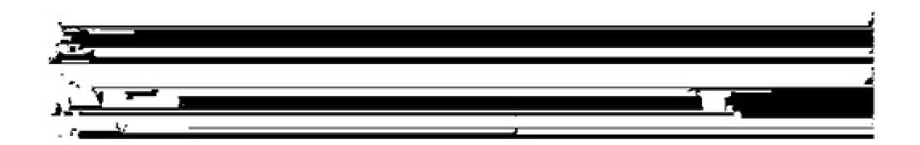
الألف كتاب ٥٩٦

# المسلمون في أوربا

## في العصور الوسطى

بإشراف
الإدارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالي



# المسلمون في أوربا

## في العصور الوسطى

تأليف

دكتور ابراهيم علي طرخان

الناشر

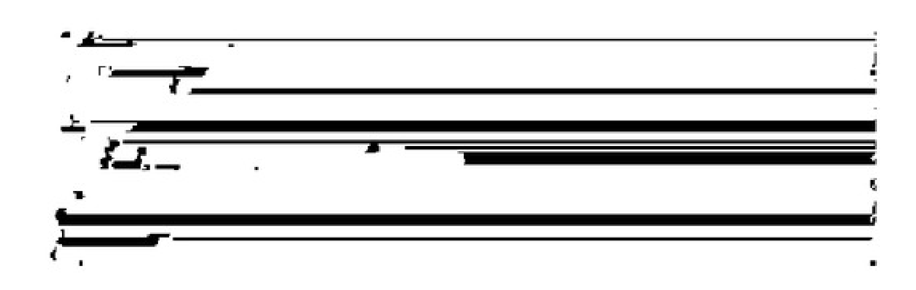
مؤسسة سجل العرب

بإشراف الأستاذ الدكتور ابراهيم عبده

٢١ شارع شريف باشا    القاهرة

تليفون ٤٩٩٩٩    ٥٢٣٠٩

١٩٦٦



## الفصل الأول

## الفصل الثانى

صفحة



## الفصل الثالث

## الفصل الرابع

صفحة



## الفصل الخامس

## الفصل السادس

## الفصل السابع



## الفصل الثامن

## الفصل التاسع

## الملاحق

## الخرائط

# مراجع الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

موضوع المسلمين فى أوربا الجنوبية ، جدير بالبحث الدائم والتقصى الدائب ، فهو إحدى صفحات التاريخ العربى المشرق فى الأرض الأوربية ، وفى مياه البحر المتوسط ، شوهها بعض كتاب الغرب المعاصرين لها ، وأغلبهم من الرهبان المتعصبين ، فنسبوا إلى العرب أعمالا هى أقرب إلى القرصنة منها إلى الأعمال الحربية الصحيحة ، وقد اعترف بمبالغاتهم الكثير ممن نقل عنهم من كتاب الغرب ، منذ القرن التاسع عشر .

فلو أن الفتوح الإسلامية فى الأرض الأوربية ، كانت مجرد أعمال عسكرية ، لما وضحت تلك الآثار البعيدة المدى فى الحضارة العربية عامة . يقول بعض المنصفين من كتاب الغرب أمثال لوبون :

« كان فضل العرب فى الغرب عظيما ، وإليهم يرجع الفضل فى حضارة أوربا » .

وقال غيره :

« لو حذف العرب من التاريخ، لتأخرت نهضة الآداب عدة قرون » .

وعن دوزى :

« تاه الناس فى دياجير الجهل ، بينما سطع النور من جانب الأمة الإسلامية من علوم وفلسفة وصناعة وآداب » .

وما أعتقد أن عملا عسكريا بحتاً وفتحاً حربياً خالصاً ، هدفه النفع والمغنم ، يؤتى مثل هذه الثمار ، التى هى من صميم أعمال السلم .

والفتوح العربية الإسلامية ، تختلف اختلافاً كبيراً عن الغزوات الجرمانية ، وحسبنا دليلا أن الشعوب الأوربية الحديثة ، وأصول أغلبها من الجرمان ، نعتت الفترة التى اشتد فيها الغزو الجرمانى ، على أثر تحطيم روما أواخر القرن الخامس الميلادى ، بالعصور المظلمة ، وامتدت هذه الحقبة إلى نحو خمسة قرون ونصف . أما الفتوح العربية الإسلامية فى أوربا أو فى أى مكان آخر : فهى مايثة بالشواهد الحية الدالة على الروح الحقيقية لطبيعة هذه الفتوح : من تسامح وبناء وإصلاح وإيثار للسلم .

لقد كانت الإمبراطورية الإسلامية برمتها، مثلا حياً لنظام سياسى قام فى أوربا وسيطر على حوادثها ، منذ مطلع القرن التاسع الميلادى ، ولم يلته رسمياً إلا فى مطلع القرن التاسع عشر .

يقول بريسى Bryce — وهو متعصب فى بعض كتاباته :—

« طالما أن النبي محمداً ، قد ترك ديناً واحداً وإمبراطورية واحدة وحاكماً واحداً ، ذا سلطة نافذة ، ألا وهو أمير المؤمنين ، فما أحوج الشعوب المسيحية لمثل هذا التنظيم ولمثل هذا الحاكم القوى النافذ الكلمة التمس مثل هذا التنظيم ومثل هذه السلطة الواحدة ، ذات الشق الروحى ،

عند سيد الفرنجة وبطل العقيدة وحامى المسيحية ، ألا وهو شارلمان ، فكانت الإمبراطورية الغربية ، وهى التى اشتهرت منذ القرن الثانى عشر الميلادى باسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

والخلاصة :

إن الفتوح العربية الإسلامية فى الأرض الأوربية ، وإن انتهت سياسياً وحربياً ، إلا أنها لم تنته حضارياً وإنسانياً . وهذا هو الفتح الحقيق ؟

ابراهيم على طرخان

# الفصل الأول

## المسلمون والأجانب

بم عبر الاجانب عن المسلمين ؟ : كلمة عرب ومدلولها عند القدماء . مساكنهم وانتشارهم . الشرقيون Saraceni وتفسيرها واتساع مدلولها فى العصر المسيحى . الاسماعيلية ومدلولها . الاسماعيلية ومسلمو المجر والباشقرد . اجتماع ياقوت الحموى بطائفة منهم فى حلب فى القرن الثالث عشر الميلادى . كلمة المغاربة Mauri واتساع مدلولها .

استخدم الأجانب اصطلاحات مختلفة للدلالة على المسلمين ، سواء أكان ذلك فى الأسماء أم فى النعوت ، وظهرت هذه المصطلحات خلال كتاباتهم وأحاديثهم عن الإسلام والمسلمين فى مختلف العصور ، منها ما كان جائراً ومنها ما جاء معتدلا ، بل إن منهم المنصف الذى لم يخضع لشىء سوى النزاهة العلمية ، فلم يتجاوز منطق الواقع التاريخى .

وأول ما يلفت النظر كلمة « عرب » ، وهذه أطلقت وأريد بها قديماً ، الدلالة على سكان الصحراء أو البدو ، بل إن هذه الكلمة أطلقت كذلك على البادية نفسها (١) ، وفى اللغة العبرانية ، دلت لفظة عرب على معنى البداوة (٢) . وأقدم نص وردت فيه هذه الكلمة ، نص أشورى قديم ، يرجع إلى عهد الملك شلمنصر الثانى Shalamanesar II الذى حكم حوالى سنة ١٢٦٠ ق . م . (٣) . وتعنى لدى الأشوريين غير ما تعنيه فى العصور الحديثة ، فهم قد أطلقوها على مشيخة عربية معادية لهم ، كانت تحكم البادية المتاخمة لحدودهم ، وملك هذه المشيخة يومئذ هو جندب أو جنديبو .

---

(١) جورجى زيدان : العرب قبل الإسلام ( مراجعة وتعليق الدكتور حسين مؤنس ) ص ٣٩ ـ ٤٠ .

(٢) جواد على : تأريخ العرب قبل الإسلام ج ١ ص ١٦٩ ـ ١٧١ .

(٣) أنظر : Hall, H.R. , The Ancient History of the Near East, P. 584. ;

وفى اللغة الأشورية قرئت كلمة عرب بصورة مختلفة : عرْب Arub وعريبي Aribi وعريبو Aribu وعرابى Arabi (١) .

ووردت فى الكتابات البابلية عبارة : « ماتو أ — را — بى » Matu A Ra - Bi ، وهذه تعنى « أرض العرب » ، ومثل هذا المعنى ، ورد كذلك ، فى النقوش الفارسية ، وفى هذه النقوش حددت أرض العرب بالصحراء السورية وصحراء سيناء . كذلك جاءت كلمة عرب وبلاد العرب فى الشعر الإغريقى ، غير أن تحديد المكان تحوطه الأساطير . وقد ذكر هيرودوت Herodotus — المتوفى حوالى عام ٤٢٥ ق . م ، أن العرب هم سكان المنطقة الواقعة بين مصر وفلسطين ، أى شبه جزيرة طور ســـيناء ، أما المؤرخ اليونانى كسنوفون Xenophon المعاصر لهيرودوت ، وتلميذ سقراط ، فقد درس كلمة عرب دراسة مستفيضة وحدد الصحراء العراقية ، بصفة خاصة ، بأنها مسكن أولئك العرب(٢) .

أى أن العرب فى عرف القدماء ، زمن الفراعنة والأشوريين والبابليين والفينيقيين والإغريق ومن عاصرهم ، هم أولئك البدو الذين استوطنوا المناطق الشمالية من الجزيرة العربية (٣) ، وهذه المناطق هى التى يحدها نهر الفرات شرقاً والنيل غرباً ، ولعل تحديد هذه المساكن ، جاء نتيجة احتكاك الدول التى سادت فيها ، فى تلك الأزمنة ، بأولئك السكان ، ولم تتوغل هذه الدول فى قلب الجزيرة العربية ، الموطن الأصلى للساميين .

---

(١) جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١ ص ١٦٩ — ١٧١ :

(٢) Nöldke , Th. , The Scope of Influence of Arabic History (In Historians' History of the World, Vol. VIII ) PP. 2-3

(٣) Grousset, R. , L'Empire Du Levant, PP. 91-92 , Goubert, p., Byzance Avant L'Islam, P. 249 sqq.

والمعروف أن العرب ، أهم فروع الجنس السامى القديم ، الذى استوطن آسيا ، ويعتبر المؤرخون أن بلاد العرب أو شبه الجزيرة العربية ، هى موطن الساميين الأصلى ، ويفسرون ذلك بأن أواسط بلاد العرب ، ولا سيما نجد ، هى التى أمدت منطقة الهلال الخصيب بسكانها ، وصبغتها بالصبغة السامية ، إذ لا يعقل أن ينتقل سكان الجبال أو الزراع المستقرون من حياة الاستقرار ، المتحضرة نسبياً ، إلى حياة البداوة والنقلة ، بل المعقول أن يحدث العكس ، ولما كانت الحياة الأولى للشعوب السامية بدوية ، فلا بد وأن يكون موطنها الأصلى صحراوياً ، وهو جزيرة العرب . وقد ثبت أن معظم المدن والقرى ، فى العراق والشام ، من إنشاء العناصر البدوية التى استقرت وأصلحت الأراضى واستغلتها ، وكذلك اشتغلت بالتجارة (١) .

الراجح إذن أن الجزيرة العربية هى الموطن الأصلى للساميين ، وأن هجرات أو موجات بشرية خرجت منها عبر القرون المختلفة منذ أقدم العصور (٢) .

على أن الأجانب لم يقتصروا على استعمال كلمة عرب للدلالة على العرب وعلى المسلمين بعد ذلك ، بل أطلقوا أيضاً كلمة « سراكينى » للدلالة على العرب والمسلمين . وورد هذا اللفظ فى اللغة اليونانية : Saracenes ، كما ورد فى اللغة اللاتينية Sarscenus فى صيغة المفرد ، والجمع Saraceni . وقد أراد اليونان والرومان بهذه الكلمة : القبائل العربية المقيمة على حدود الإمبراطورية الرومانية فى بادية الشام والأطراف

---

(١) جواد على ج ١ ص ١٥٠ — ١٥٧ .

(٢) راجع فيليب حتى : تاريخ العرب ( ترجمة محمد مبروك نافع ) ج ١ ص ١٢ — ١٦ Nöldke. Op. Cit. P. 6

الشمالية للجزيرة العربية . وفي شبه جزيرة سيناء . وكانت هذه القبائل كثيرة الإغارة على حدود الأمبراطورية (١) . غير أن اليونان والرومان لم يكونوا مبتدعين لهذا المصطلح ، وإنما نقلوه عن العبرانيين ، فهم الذين استخدموه وأطلقوه على القبائل الإسماعيلية — نسبة إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام — المقيمة في شرق فلسطين والشام ، وكانت هذه القبائل تحيا حياة بدوية (٢) .

اتسع مدلول هذا اللفظ في العصور المسيحية الأولى ، فاستعمله المؤرخ إزوب Eusebius ( ٢٦٤ — ٣٤٠ م ) (٣) ، مرادفاً للعاصمة الإسماعيلية الواردة في التوراة ، ونعني أولئك الذين كانوا يعيشون في براري منطقة قادش بشمالي الشام (٤) .

وخلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، انتشر استعمال هذه الكلمة ، فأطلقها المسيحيون الغربيون على أعدائهم من العرب والمسلمين عامة ، وظل هذا اللفظ يستعمل في غربي أوربا طوال العصور الوسطى ، وكذلك في العصور الحديثة ، ويطلق على كل عربي ومسلم دون استثناء أو تحديد

---

(١) Encycl. Brittannica . Art. 'Saracens'.

(٢) جواد علي ج ١ ص ١٨١ .

(٣) المؤرخ ايزوب أسقف ومؤرخ فلسطيني الأصل ، عاش زمن الإمبراطور قسطنطين الأكبر ( ٣٠٦–٣٣٧م ) ، ومن مؤلفاته المعروفة : التاريخ الديني Historia Ecclesiastica وكتاب سيرة قسطنطين Vita Constantini وغيرهما . وله دور مشهور في تاريخ المجامع الدينية التي عقدت زمن هذا الامبراطور ، لمناقشة المذاهب الدينية المتعارضة في ذلك الوقت وهي الأريوسية والاثناسيوسية . ( انظر : Lindsay , T. Byzantium into Europe, PP. 198-5; Hardy E. R.. Christian Egypt, P. 46 sqq.; Encycl. of Religion of Ethics, Arts. Arius of Athanasius.

(٤) جواد علي ج ١ ص ١٧٧ — ١٧٨ ، Nöldke, Op. cit. , P. 3

أما أصل هذا المصطلح واشتقاقه ، فقد قيل الكثير بصدده ، فذهب بعض علماء أوربا المسيحية في العصور الوسطى ، إلى أنه مكون من كلمتين هما : سارة (زوجة إبراهيم عليه السلام) وقين (بمعنى عبد) ، فيكون المعنى « عبيد سارة »[١] ، وهذا غير صحيح ، لأن سارة أم إسحق ، الذي بشر به إبراهيم ، بعد أن كبرت سنه ، وكانت سارة عاقراً وهي عجوز ، ولم تكن أم إسماعيل جد العرب المستعربة[٢] . ويرد الأب أنستاس الكرملي هذا اللفظ إلى مخلاف باليمن يسمى « سرحة » ، ويقول البعض ، إنه تحريف لكلمة « سرق » ، ومنه السراق والسارقون ، نظراً لكثرة سطو هذه القبائل على حدود الإمبراطورية الرومانية[٣] . أما الفرنسيون فيجعلون هذا اللفظ مشتقاً من كلمـــة سرازا Sarrasin بمعنى « الحنطة السمراء » ( Blé Noir ) ، لأن أغلب العرب سمر الوجوه[٤] ، وأطلقوه على جميع المسلمين في كل مكان .

ويرجح أن كلمة « سراكيني » تصحيف لكلمة « شرقيين » ولهذه اللفظة علاقة بما يطلق اليوم على بعض العرب من اسم « شروك أو شروكية أو شروق » باصطلاح أهل نجد والعراق ، وقد سمعت الحجازيين في الحجاز ، يستخدمون كلمة شروق وشرق ، ويعنون بها سكان نجد أو النجديين ، وهم القادمون من شرق الحجاز أي من نجد . بل إن الحجازيين يستعملون هذا المصطلح كذلك ليميزوا به نوعاً من النعال ، تعود النجديون أن ينتعلوه فيقولون « شرقية » .

---

(١) جواد علي ج ١ ص ١٧٨ .

(٢) شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٠٧ ، انظر : عبد الوهاب النجار قصص الأنبياء ص ٧٩ وما يليها .

(٣) جواد علي ج ١ ص ١٧٩ .

(٤) شكيب أرسلان ص ٢٠٧ .

ومما يزيد فى رجاحة هذا التخريج ، أن بطليموس الجغرافى الأسكندرى Claudius Gtalemaeus (ت ١٥٠ ق.م) ، أشار إلى قبائل عربية من هذه القبائل ، انفصلت عن شقيقاتها وارتحلت إلى المغرب ، وأطلق عليها كلمة « المغاربة » Machurebe [١].

هذا واستخدم الأجانب كلمة « الإسماعيلية » ، للإشارة إلى العرب وإلى المسلمين ، ولا شك أن لهذا المصطلح أساساً ، فإن قسماً كبيراً من العرب ، كان من نسل إسماعيل بن إبراهيم ، وهؤلاء هم العرب المستعربة ، وهم الذين ظهر بينهم الإســـلام ، ويعرفون كذلك بعرب الشمال أو العدنانية .

غير أن كلمة الإسماعيلية ، لم يقتصر استعمالها للدلالة على العرب ، بل أطلقت على المسلمين كذلك . والمعروف أن الإسماعيلية ، كما نفهمها نحن المسلمين اليوم ، هى طائفة من طوائف الشيعة ، تنسب إلى الإمام السابع إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب [٢] .

واشتهرت طائفة من المسلمين فى المجر باسم الإسماعيلية ، وذلك خلال العصور الوسطى ، لكنها انقرضت الآن لقلة عددها واندماجها التدريجى فى المجريين ، فضلا عما نزل بها من اضطهادات وعسف وإرغام على الارتداد .

---

(١) جواد على ج ١ ص ١٨١ ، مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الأبيض ( مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ) م ٤ سنة ١٩٥١ ، ص ١٠٢ .

(٢) انظر أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٣١٧ ـ ٣٣٢ ، ضحى الإسلام ج ٣ ص ٢٠٨ ـ ٢١٥ ، ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج ١ ص ١٩٥ وما بعدها ، وبهامشه : الشهرستانى : الملل والنحل ( نفس الصفحات ) .

ويبدو أن هذه الطائفة ليست من العرب ، وربما كانت من البلغار أو الباشقرد[١] الذين اعتنقوا الإسلام ، وعاشوا فى المجر زمن أسرة أرباد Arpad المالكة ( ٨٩٦ – ١٣٠١ م )[٢] عرف هؤلاء بين المجريين باسم « الإسماعيلية » لإسلامهم ، ويقول أبو الفداء عن الباشقرد ، إنهم « ترك جاوروا اللمانيين ، وهم مسلمون من جهة فقيه تركانى بصرهم بشرائع الإسلام »[٣] ، ويزيد القلقشندى على ذلك بأن « غالبهم نصارى ، وفيهم مسلمون ، وفى باشقرد قاض مسلم معتبر »[٤] .

زاول هؤلاء المسلمون فى بلاد المجر ( لمنقر ) ، أعمالا مختلفة ، من تجارة ووظائف فى الدولة ، على أن أكثرهم مارس التجارة ، كما اشتغل الكثير منهم فى الجندية [٥] ، حتى كان منهم من ولى حراسة قلعة بشت Besth — إحدى الجزأين اللذين تتكون منهما بودابست عاصمة جمهورية المجر الحالية — وفى الحملة التى بعثها ملك المجر جيزا الثانى Geza II ( ١١٤١ — ١١٦١ م ) لمساعدة الإمبراطور فردريك باربروسا عام ١١٦١ م ،

---

(١) وردت كلمة باشقرد بصور مختلفة : باشقرد — باشجرد — باشغرت — باشغرد — باش قرد — باش قرْد . وهى مكونة من كلمتين : باش بمعنى رأس ، وقرت بمعنى ذئب أو دود أو نحلة ( بالتركية ) .

( انظر بارتولد W. Barthold « باشقرد » فى دائرة المعارف الإسلامية — الترجمة العربية — ج ٣ ص ٢٨٦ — ٢٨٨ ، وراجع صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٢٠ ، أبو الفداء : تقويم البلدان ص ٢٠٦ ) .

(٢) ظل التاج فى هذه الأسرة أكثر من ثلاثة قرون ، وكانت أسرة إقطاعية استبدادية عضدتها الكنيسة ما كتبت لها وسائل اللهو والطغيان ( راجع : Brooke, Z. N., a History of Europe ( 911-1198 ) PP. 366 - 368 , Orton P. , A History of Europe ( 1198 - 1318 ), P. 172, )

(٣) تقويم البلدان ص ٢٠٦ .

(٤) صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٢٠ .

(٥) انظر ما يلى .

يقال إن عدة جنود الإسماعيلية الذين ضموا إلى هذه الحملة ، بلغوا نحو أكثر من ٥٠٠ جندى [١]

غير أن مسلمى المجر تعرضوا لعنت الملوك لا سيما الملك لادسلاس الأول Ladislas I (١٠٧٧ — ١٠٩٥ م) ، إذ أصدر أمره إليهم باعتناق المسيحية ، ومع ذلك ظل أغلبهم يخفى إسلامه . وخشى الملك كولومان Kolaman (١٠٩٥ — ١١١٤ م) من ازدياد نفوذ الإسماعيلية فى بلاده ، فأمر على أثر توليه للعرش ، بألا يزيد الإسماعيلية فى كل قرية من القرى التى يقيمون فيها بأطراف المجر الجنوبية ، على النصف من سكان القرية ، وأجبرهم كذلك على تزويج بناتهم من المسيحيين [٢] .

وقد التقى ياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ : ١٢٢٩ م) بطائفة من هؤلاء المسلمين فى حلب عام ٦٢٤هـ : ١٢٢٦ م ، كانوا قدجاءوا ليتفقهوا فى المذهب الحنفى ، فسأل رجلا منهم (استعقله) — على حد تعبيره — عن بلادهم وأحوالهم ، فأجاب :

« أما بلادنا ، من وراء القسطنطينية ، فى مملكة أمة من الإفرنج يقال لهم الهنكر — أى المجريون **Magyrs** — ونحن مسلمون ، رعية لملكهم . فى طرف بلاده نحو ثلاثين قرية ، كل واحدة تكاد تكون بلدة ، إلا أن ملك الهنكر لا يمكننا أن نعمل على شىء منها سوراً ، خوفا من أن نعصى عليه ونحن فى وسط بلاد النصرانية ، فشمالينا بلاد الصقالبة ، وقبلينا بلاد البابا ، يعنى رومية ، والبابا رئيس الإفرنج ، هو عندهم نائب المسيح ، كما هو أمير المؤمنين عند المسلمين .. وفى غربينا الأندلس ، وفى شرقينا بلاد الروم

---

(١) انظر Boyce. J. V., The Holy Roman Empire, pp. 45, 47

(٢) شكيب أرسلان . غزوات العرب ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

قسطنطينة وأعمالها . ولساننا لسان الإفرنج ، وزينا زيهم ، ونخدم معهم فى الجندية ، ونغزو معهم كل طائفة ، لأنهم لا يقاتلون إلا مخالفى الإسلام » .

ثم سأله ياقوت عن سبب إسلامهم مع كونهم فى وسط بلاد الكفر ، فأجاب :

« سمعت جماعة من أسلافنا يتحدثون ، أن قدم إلى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من المسلمين من بلاد البلغار[1] ، وسكنوا بيننا ، وتلطفوا فى تعريفنا وما نحن عليه من الضلال ، وأرشدونا إلى الصواب من دين الإسلام ، فهدانا الله والحمد لله ، فأسلمنا جميعاً ، وشرح الله صدورنا للإيمان ، ونحن نقدم إلى هذه البلاد نتفقه ، فإذا رجعنا إلى بلادنا أكرمنا أهلها وولونا أمور دينهم » .

سأله بعد ذلك عن سبب حلق لحاهم ، كما تفعل الإفرنج فقال : « يحلقها منا المتجندون ، ويلبسون لبسة السلاح مثل الإفرنج أما غيرهم فلا . . . » .

وختم الإسماعيلى حديثه مع ياقوت بتعريفه بمقدار المسافة بين حلب وبلاده ، وهى نحو خمسة شهور[2] .

وهناك كلمة « المورين » Mauri ، وهذه أطلقها الأجانب على العرب وعلى المسلمين عامة ، وأصل هذه الكلمة هى اللفظة اليونانية Maupoi ويقابلها فى اللاتينية Mauri ومعناها « الناس السود » Black Men[3] .

---

(١) تسمى كذلك « بلاد بلار » ( انظر تقويم البلدان لأبى الفداء ص ٢١٦ ، ٢١٧ صبح الأعشى ج ٥ ص ٤١٧ ) .

(٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٣٧ ـ ٣٩

(٣) Encycl. Brit., Art: "Moors".

وبهذا المعنى وردت فى الشعر الإنجليزى القديم (Black-a-mov) «أسود كالمور».

ويقول البعض، إن لهذا اللفظ صلة بالكلمة العبرية والفينيقية ماهور Mahur بمعنى غربى Western، فيكون المعنى مغاربة، ويشتقه البعض الآخر من الكلمة ماهير Mahir وهى تحريف لكلمة أماسير Amâsir وجمعها إيمازير Imâzir أو ماسير Masir، ومعناها حر Free وهى صفة لحقت بشخص من البربر اسمه أمازيغ Amazigh(١).

والمعروف أن الرومان أطلقوا كلمة مورى Mauri فى العصر الكلاسيكى، على قبائل البربر المقيمة فى شمالى غرب أفريقية، وسموا المقاطعات التى يقيمون فيها باسم مرطانية Mauretania نسبة إليهم. وحدود هذه المنطقة فى العصر الرومانى، من مدينة سالا Sala المطلة على المحيط الأطلسى غرباً — شمالى الرباط الحالية — إلى شرق مدينة سالداى Saldae وهما بجايه Baugia الحالية — شرقاً بالجزائر. أى إن موريتانيا، شملت فى العصر الرومانى، ما هو اليوم المغرب وبعض الجزائر(٢).

وقد ظهرت هذه التسمية لأول مرة فى التاريخ خلال الحرب اليوجرثية Jugurthine War (١١٠ — ١٠٦ ق.م)، وهى التى شبت بين يوجرتا Jugurtha ملك موريتانيا وبين الرومان(٣).

---

(١) Ibid.

(٢) انظر: Cary, History of Rone, p: 303

(٣) بدأت هذه الحرب عام ١٠٩ ق. م بقيادة القائد الرومانى كيكيليوس متيلوس G' Caecilius Metellus الذى حطم حصون يوجرتا ودائم كيرتا Cirta عاصمته — وهى قسنطينة الحالية بالجزائر — لكنه لم يخضع تماماً، وتكررت حملات الرومان حتى انتصر عليه سلا Sulla وأسره واقتاده إلى روما عام ١٠٥ ق. م.

(راجع Cary, Op. Cit., PP, 303 - 306)

وليس أولئك الموريون سوى قبائل البربر على اختلاف أسمائها وفروعها ، وهى القبائل التى قيل إنها وفدت أصلا من الشرق(١) . واعتنق هؤلاء الإسلام بعد الفتح العربى الإسلامى لشمالى أفريقية فى القرن السابع الميلادى ، وتقربوا واشتركوا مع العرب فى الفتوح ، كما اندمجوا معهم بالمصاهرات .

ولذا كان الكثير من فاتحى أسبانيا ، من هؤلاء البربر المسلمين ، واستقر الفاتحون المسلمون من العرب والبربر فى أسبانيا ، وازداد اختلاطهم ، كما اختلطوا بالأسبان الأصليين ، وهم بقايا السقوط الغربيين والأسبان الرومان ، وعن هذا الاختلاط ، نتجت طبقة جديدة مولدة : من العرب والبربر والأسبان ، وهذه الطبقة المولدة هى التى اشتهرت فى العصر الإسلامى باسم المور Maurs وهم يختلفون كثيراً عن البربر الأصليين فى شمالى أفريقية ، حتى إنه عندما طرد هؤلاء المور نهائياً من أسبانيا ، كانوا يتميزون تماماً عن البربر الأصليين ، حتى كان يطلق عليهم أحياناً اسم « الأندلسيين » .

أما العنصر البربرى النقى ، فيمكن التماسه فى المناطق الجبلية فى مراكش ولذا كان إطلاق هذا المصطلح على سكان مراكش عامة غير دقيق ، والأصح أن يطلق على سكان المدن الساحلية فى شمالى أفريقية ووديان مراكش . ولا تزال كلمة المور تطلق على السكان الذين يتكلمون اللغة العربية

(٤) انظر : شمالى أفريقية والوندال للمؤلف (مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ـ العدد التذكارى ١٩٦٢ )

وينتشرون فى المنطقة الفسيحة الممتدة من مراكش إلى السنغال وإلى النيجر حتى تمبكتو والصحراء الغربية .

والخلاصة أن المور جنسياً عنصر مولد أو مختلط من العرب والبربر والأسبان ، مع غلبة الدماء العربية على سائر الدماء الأخرى ، ولذا كان من الخطأ الشائع اعتبار المور جنساً أسود ، فهؤلاء بيض البشرة ، مع عدم إغفال تأثير الشمس فيهم لعدة أجيال وقرون فى تلك المناطق ، وسكان المدن من المور ، يشبهون الأوربيين تماما . والمور النموذجى فى مراكش ، عنصر جميل ذو بشرة قمحية وعيون سوداء وشعر أسود ناعم ، وعلى قدر من الذكاء ، وهم اجتماعيون ، متعصبون لعقيدتهم الإسلامية ، ويعتبرون أن دور عبادتهم أماكن مقدسة يحرم على اليهودى أو المسيحى الدنو منها ، ثم هم قساة يحبون الانتقام ، ولهم دور كبير فى تهديد سواحل أوربا الجنوبية(١) ، حتى كانوا أخطر من غزا تلك الجهات(٢) . وهؤلاء وسلالاتهم من بعدهم ، صاروا عدة البحرية الإسلامية العثمانية فى البحر المتوسط فى القرن السادس عشر الميلادى وما تلاه .

ومع هذا التحديد لكلمة مور ، فإن الغربيين كثيراً مايستخدمون هذا المصطلح للدلالة على العرب وعلى المسلمين عامة ، ولهم فى ذلك بعض السند ، وهو أن المسلمين الذين احتكوا بهم فى أوربا كانوا فى أغلبهم من هذا العنصر المولد .

---

(١) انظر ما يلى .

(٢) Encycl. Britt. , Op. Cit.

وفرق بعض المحدثين من الكتاب تفرقة معقولة، في استخدام مصطلحي « السراكين » و « المور » ، فاستخدمهما استخداماً جغرافياً أو إقليمياً ، وذلك بأن عبر عن المسلمين الشرقيين ، سكان البلاد الإسلامية الداخلة في نطاق الدولة العباسية ، بكلمة السراكين . وعن المسلمين الغربيين رعايا الدولة الأموية التي قامت بالأندلس ، بكلمة « المور » ، ونص عبارته :

« نجد في نهاية القرن العاشر الميلادي علكة الأمويين The Moors العظيمة في حوض البحر الأبيض الغربي ، بينما تسود في الطرف الشرقي لهذا البحر ، الإمبراطورية الشرقية الكبرى، وهي إمبراطورية العباسيين(١)
The Saracens

ونظراً لهذه الاختلافات الدقيقة بين المصطلحات التي عبر بها الأجانب عن العرب والمسلمين ، مما يدل على خطورة التعميم أو عدم دقته أحياناً ، فإن بعض المحدثين من الكتاب الأجانب ، استخدموا اصطلاحات عامة شاملة وهي كلمة « المسلمين » Moslems وكذلك استخدموا كلمة « المحمديين » Mohamadans ، للدلالة على المسلمين عامة ، دون نظر إلى جنس أو لون ، وهذا لعمري ، أدق المصطلحات وأوفاها ، لأنها تطوى فيها كل خلاف جنسي أو عنصري أو لوني ، مما يتفق وطبيعة الإسلام الأصيلة .

أما المتعصبون الذين لا تخفى قيمة ما يكتبون ، منهم من نعت المسلمين بالبربرة ، فسموهم برابرة Brabarians مثل الكاتب الفرنسي فرديناند لو F. Lot ، الذي ضم الفتوح الإسلامية ونشر المدنية الإسلامية والدين

---

(١) Hogben, S. J., The Mohammadan Emirates of Nigeria, [illegible]
1930, p. 3

الإسلامى إلى غزوات البرابرة التخريبية من الجرمان والمجريين(١) . وسار على هذا النحو كتاب إنجليز قدماء ومحدثون. أمثال: هنت Hunt(٢)وبروك Brooke (٣) وسكوت Ccott(٤) وغيرهم ، رغم إنصاف الأخير فى كثير من مواضع كتابه .

على أن ألفاظ الكفر والإلحاد ، تبادلها الجانبان الإسلامى والمسيحى خلال فترات الصراع ، ولاسيما زمن الحروب الصليبية .

---

(١) وكتابه : Les Invasions Germaniques ' Paris 1935 .

(٢) وكتابه : History of Italy : Lond. . 1878 .

(٣) وكتابه : A History of Europe ' Lond 1947 .

(٤) وكتابه : History of the Moorish Empire in Europe Lond. 1904 .

# الفصل الثانى

## عالم البحر المتوسط

### حتى اصطدامه بالفتوح الاسلامية

تحديده. العناصر السائدة فيه ـ الأحوال العامة للدول صاحبة السيادة ـ الامبراطورية البيزنطية وأحوالها الاقتصادية والحربية والدينية ـ ايطاليا وتوزع السيادة فيها بين أكثر من سلطة ـ غاله وانقسامها بين الجرمان والرومان . دولة الفرنجة وأحوالها العامة . عناصر الضعف فيها . انفلات السلطة الى حجاب القصر أسبانيا والمجتمع القوطى .

المقصود بعالم البحر المتوسط ، الأقاليم والبلاد التى تحف بشواطئه من جميع الجهات ، فضلا عن جزره المنتشرة فيه. ويقتسم السيادة فى هذا العالم ثلاثة عناصر أساسية : العنصر الإغريق أو اليونانى أو الرومى ، وتمثله الإمبراطورية البيزنطية ، وبقايا العنصر اللاتينى ، ويحكم فى مناطق مبعثرة، وعنصر جديد طرأ على أوربا ، وظل يقرع أبوابها منذ القرن الثالث الميلادى ، وهذا هو العنصر الجرمانى أو التيوتونى ، والعنصر الأخير هو الذى قدر له أن يشكل تاريخ أوربا الحديثة ، فقد طوى أغلب السيادات القائمة فى هذه البقعة من العالم، وبه زالت فكرة الدولة العامة ذات السيادة العالمية ، وهى السيادة التى حققها الرومان فى عالم البحر المتوسط لبضعة قرون .

أما الدولة البيزنطية أو دولة الروم ، كما عرفها العرب ، فهى تسيطر على أغلب شواطئ البحر المتوسط وجزره ، وعاصمتها بيزنطة Byzantium أو القسطنطية أو روما الجديدة ، وتشمل أملاكها الممتدة على سواحل البحر الشمالية : شبه جزيرة البلقان والجزر الملحقة بها ، وآسيا الصغرى ، ومن الشرق يتبعها سوريا وفلسطين ، ومن الجنوب : مصر وشمالى أفريقية وكانت أفريقية حديثة العهد بالعودة إلى حظيرة بيزنطة ، بعد زوال دولة الوندال منها ( ٥٣٣م )[١] ، كذلك امتد سلطان بيزنطة السياسى إلى وسط

---

(١) راجع شمالى أفريقية والوندال للمؤلف .

إيطاليا وجنوبها وبعض بلاد محدودة ، ولفترة قصيرة ، على ساحل أسبانيا الجنوبي الشرقي(١)

وتتلخص أحوال الإمبراطورية البيزنطية العامة، فى أنها تمتعت خلال القرن السادس الميلادى — وهو القرن السابق لقرن الفتوح الإسلامية — بالقوة والقدرة الاقتصادية ، فقد ازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة فى ولاياتها الكبرى ، بصفة خاصة ، وهى آسيا الصغرى وسوريا ومصر ، ولكل من هذه الولايات قاعدة عالمية الشهرة ، هى القسطنطينية وإنطاكية والإسكندرية . قامت هذه القواعد مراكز صناعية كبرى لعالم البحر الأبيض كله ، وصدرت إليه منتجاتها من المنسوجات والبردى والزجاج والأوانى المعدنية ، كذلك كانت تصدر ما يرد إليها براً وبحراً من بلاد الصين وجزر الهند الشرقية ، فقد كانت مصر نهاية طريق البحر الأحمر ، وسوريا نهاية طريق الخليج العربى وكذلك الطرق البرية المخترقة لبلاد فارس . وكذلك كانت القسطنطينية نهاية طريق أرمينية والبحر الأسود(٢) .

ولم تغفل بيزنطة عنايتها بالقوات البحرية ، ولا سيما فى القرن الذهبي المشهور ، بل إن هذه العناية هى التى شكلت نظامها ، منذ عهد الإمبراطور

---

(١) انظر : دولة القوط الغربيين المؤلف ص ١٠٢ — ١٠٥ ،

Bayet : H. G. : T. I. PP. 626 - 626

(٢) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ( ترجمة أحمد عيسى وتقديم ومراجعة المرحوم محمد شفيق غربال ) ص ١٠٦ ( المقدمة ) .

جستنيان Justanius (ت ٥٦٥ م) وهرقل (ت ٦٤١ م) وعهود من جاء بعدهما[١] .

واتجهت همـــة الأباطرة البيزنطيين إلى احتلال الثغور البحرية والسواحل ، وتجنب التوغل فى الأراضى الداخلية، ومن ثم قلت حاجتهم إلى الجيوش البرية الضخمة[٢] .

ومما ساعد على تفوق بيزنطة البحرى ، فى تلك الفترة ، أنه لم يكن لها منافس ، وهى فى ذلك تشبه تفوق بريطانيا البحرى فى مطالع العصور الحديثة ، فكان لبيزنطة فى العصور الوسطى سبته (Ceuta) وبعض الساحل الجنوبى لأسبانيا ، والساحل الأفريقى الشمالى وجزر سردانية وقورسيقه وصقلية وكريت وقبرص ، ومدينة الإسكندرية فضلا عن جنوه ورافنا ونابلى والدردنيل والقرم.ولم تقتصر بيزنطة على البحر المتوسط بل تجاوزته إلى غيره من البحار والأقطار ، وكان هذا التجاوز هو سر المنافسة الحادة بين الروم والفرس[٣] .

غير أن بيزنطة قد شقيت بالخلافات الدينية شقاء كبيراً ، بل إن الصراع المذهبي هو المشكلة المزمنة التى لازمت الإمبراطورية البيزنطية

---

(١) انظر : بينز : الامبراطورية البيزنطية ( ترجمة مؤنس وزميله ) ص ٢٦٩ ـ ٢٧٦
Foord, E., The Byzantine Empire, pp. 203-212, Diehl, Ch. & Marcais, G. Le Monde Orientale De 395 à 1081 ( H. G. ) T. III, p. 508. Lindsay. J. , Byzantium into Europe. pp. 395 - 405.

(٢) أرشيبالد لويس ص ١٦ ـ ١٨ ( مقدمة غربال ) .

(٣) أرشيبالد لويس ص ١٨ ـ ١٩

طوال تاريخها، حتى آخر لحظة من حياتها، في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي[1] . وكان لهذا أثره البالغ في فشلها في حماية أقاليمها السورية والمصرية والأفريقية ، عندما غزتها الجيوش الإسلامية زمن الأمبراطور هرقل (ت ٦٤١م) ، والعجيب أن هذا الفشل وقع بعد انتصار الأمبراطور هرقل نفسه على الفرس وردهم إلى بلادهم ، وذلك في حرب ، اعتبرت في نظر بعض الكتاب ، مثلا مبكراً للحروب الصليبية ، وإن كانت ضد عباد النار (٢) .

ويعلق أرشيبالد لويس A. Lowis ، على انتصار العرب هذا على الروم بقوله(٣) :

« لقد نقض انتصار العرب على بيزنطة ، انتصار الإسكندر على دارا(٤)، وانتصار روما على هانيبال(٥) ،وانتصار الإمبراطور أورليانوس

---

(١) انظر : فشر : تاريخ أوربا في العصور الوسطى ( ترجمة زيادة والباز ) ص ٤٥٦ — ٤٥٧ .

(٢) انظر Grégoire, H' , The Byzantine Church ( In Byzantium into Europe Ld. by Baynes & Mors ) pp. 86 – 185 . Lindsay, op. Cit. . pp. 171 – 230. Diehl & Marcais, op. Cit. pp. 21 – 38 . أومان : الامبراطورية البيزنطية ( ترجمة بدر ) ص١١٠ — ١٢٣ ، بينز (ترجمة مؤنس وزميله) ص ٩٥ — ٢١٧ .

(٣) القوى البحرية ص ٢٠ .

(٤) انتصر الاسكندر الأكبر المقدوني على دارا ملك فرس في أكتوبر عام ٣٣١ ق.م في وقعة جوجاميلا Gaugamela قرب نينوى ، وذلك بعد فراغه من فتح مصر في السنة السابقة ، وأوغل الإسكندر في أواسط آسيا حتى وصل الهند . وبوفاة الاسكندر عام ٣٢٣ ق . م بدأ ما عرف في التاريخ باسم العصر الهلنستي Hellenistic Ago ، وهو العصر الذى انتهى بوقعة أكتيوم Actium البحرية عام ٣١ ق . م ( انظر : نصحى : مصر في عهد البطالمة والرومان — تاريخ مصر العام — ص ٦٤ — ٦٦ ، Bury, J. . History of Greece, p. 776.

(٥) توفي هانيبال ملك الفينيقيين عام ٢٠٦ ق . م

على زنوبيا(١) . ومعنى ذلك رجحان كفة الشرق على الغرب .

والمعروف أن الإمبراطورية البيزنطية، هى الدولة الأوربية الآسيوية الأولى التى اصطدمت بالفتوح الإسلامية فى حوض البحر الأبيض .

أما إيطاليا فى تلك الفترة ، والعرب يسمونها « البر الطويل » ، فقد وقعت فريسة الانقسامات الداخلية ، بعد أن انتهى أمر الامبراطورية الرومانية فى الغرب ، منذ عام ٤٧٦ م ، على يد أدواكر زعيم المعاهدين Faederati فى الجيش الرومانى(٢) .

اقتسم الحكم فى إيطاليا أكثر من سلطة واحدة ، فأشرف البيزنطيون على أرخونية رافنا، وحددوها من نهر البو شرقى جبال الإبنين حتى مدينة أنكونا على الساحل الغربى للبحر الأدرياتى . وذلك بعد أن أزالوا دولة

---

(١) زنوبيا العربية المتغطرسة الجميلة ، ملكة تدمر أو بالميرا Palmyra هى زوجة أذينة الذى منحه الرومان لقب « دوق الشرق » Dux Orientis . خلفت زوجها على العرش نيابة عن ابنها عام ٢٦٧ م ، وذلك على أثر مقتل زوجها بإيعاز من روما . واسم زنوبيا بالآرامية « بنت زباى » وبالعربية « الزباء » وكذلك « زينب » . ويسمى ابنها الذى حكمت بإسمه « وهب اللات » أو « عبد اللات » . عرفت هذه الملكة بالقوة والطموح ، ونجحت فى توسيع حدود مملكتها ، فانتزعت مصر لفترة قصيرة ، كما استولت على جزء كبير من آسيا الصغرى وأزالت السيادة الرومانية عنها وطردت حاميات الرومان عام ٢٧٠ م ، ثم نودى بابنها الصغير ملكا على مصر ، وأصدرت عملة بدون رأس الامبراطور أورليانوس Aurelianus فلم يسع الامبراطور الرومانى إلا محاربتها ، وجاء على رأس جيشه ودخل تدمر فى ربيع عام ٢٧٢ م ، فهربت زنوبيا ، لكنها وقعت فى الأسر وقيدت بسلاسل ذهبية . ( انظر : حتى ــ ترجمة نافع ــ ص ٨٨ ــ ٩١ ) .

(٢) انظر نهاية الامبراطورية الرومانية فى الغرب للمؤلف ( مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ــ م ٢٠ ــ العدد الثانى ــ ديسمبر ١٩٥٨ ــ مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٢ ) ، أرشيبالد لويس ص ١٥ .

القوط الشرقيين عام ٥٥٠ م زمن الإمبراطور جستنيان(١) ، وكذلك حكمت بيزنطة الجزء الجنوبي من إيطاليا وجزيرة صقلية ، ودخل الغزاة الجدد اللومبارديون ، وهم جرمان ، عقب وفاة الإمبراطور جستنيان عام ٥٦٥ م وأسسوا لهم مملكة (٢)، المنطقة التي عرفت باسمهم في شمالي إيطاليا عام ٥٦٨ م ، بزعامة ملكهم البوين Albuin ، واشتهر اللومبارديون بالتخريب والتدمير ، ولم تسلم روما من نهبهم ، وامتد سلطان مملكة اللومبارد إلى الدوقيتين الكبيرتين في جنوب إيطاليا وهما: سبوليتم Spoletum وبنفتم Beneventum (٣) . وقد ظلت مملكة اللومبارد حتى عام ٧٧٤ م ، حين أزالها الفرنجة المناصرون للبابوية . ونظراً للتخريب الذي استهدفت له إيطاليا من جراء حروب جستنيان لاستعادة إيطاليا من القوط الشرقيين وما تلا ذلك من تخريب اللومبارديين ، يعيب بعض الكتاب على مشروع حركة الاسترداد reconquest الذي قام به جستنيان ، والذي أدى إلى تعرض إيطاليا لكثير من الكوارث ، إذ يقول فشر ، معقباً على غلطة جستنيان في إزالة دولة القوط الشرقيين ، التي احترمت التقاليد الرومانية.

« والواقع أن المملكة التي وقفت من الروح والتقاليد الرومانية هذا الموقف الجيد ، استأهلت لأن تصبح زعيمة بإنقاذ إيطاليا من سلسلة الحروب الطويلة والفتن الداخلية التي تعرضت لها بلادها المنكودة طوال تاريخها منذ القرن السادس الميلادي ، إذ كان في استطاعة القوطيين أن

---

(١) انظر Deanesly. M. . A History of Early Medieval Europe (476 - 911) pp. 38 - 53)

(٢) يسميها القلقشندي « مملكة اللبردية » ( صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤١٥ ـ ٤١٦ ).

(٣) فشر ( ترجمة زيادة والباز ) ص ٥١ Hunt. W. , History of Italy. pp. 7 - 9 . Deanesly. op. Cit. pp. 245 - 250 . Pirenne. H. , A History of Europe. pp. 39 - 45.

يجعلوا من أنفسهم وصفاتهم الحربية والسياسية حتى تشبه الجزيرة ، بعد أن ذهبت تلك الصفات عن أهلها الأصليين منذ قرون، ومن هنا تتضح جسامة الغلطة التي انتهت بالقضاء على القوط الشرقيين ، فلو أنهم ظلوا وشأنهم ، لما حدثت الغزوات والفتوحات اللومباردية فى شمالى إيطاليا، ولما قامت الدولة البابوية فى روما ، ولما أحييت الإمبراطورية الرومانية فى الغرب ، بل ربما تحققت الوحدة السياسية الإيطالية على أيديهم فى القرن الثامن الميلادى»(١).

ولاشك أن السلطة الثالثة، التي اقتسمت الحكم فى إيطاليا، هى البابوية فإن من أهم نتائج سقوط الإمبراطورية الرومانية فى الغرب ، ظهور سلطة البابا السياسية ، إذ تطلع إليه الإيطاليون ، بعد أن غدا البابا أهم شخصية رومانية باقية فى إيطاليا. فانتقل مركز الأهمية والتوجيه والقيادة من قصور الأباطرة السياسيين إلى أروقة اللاتران Lateran ، أى إلى كنيسة روما(٢).

وفى غاليا gallia(٣) ، انقسمت السلطة بين ثلاث دول جرمانية ناشئة، أولاها : دولة القوط الغربيين ، فى منطقة الحدود بين غاله وأسبانيا . وهى

---

(١) دفس : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ( ترجمة زيادة والباز ) ص ٥٠ ـ ٥١ .

(٢) انظر : Finlay, G., History of the Byzantine Empire. pp. 243 - 244. Painter, pp. 104 - 120. Hunt, pp. 16 - 18. Levtchenko. M. V. . Byzance. Des Origines a 1453 ; Trad. de Pierre Mabille ) PP. 135-141. Lindsay, op. Cit. p. 221 Sqq. . Foord, op. Cit. PP. 180-202. Vassilies A. A. . History of the Byzantine Empire. pp. 136-139. 573-394. Bailly. A. . Byzance. PP. 163 - 175. C. Med. H. . Vol. III. p. 148. Vol. V. P. 167.

(٣) عن غالة قبل الفتح الجرمانى ، انظر : Hubert . H. . The Greatness & Decline of Celts ( Lod. . 1934 )

المنطقة المعروفة باسم سبتمانيا أو منطقة المدن السبعة(١) ، وذلك بعد أن طردهم الفرنجة من أكويتانيا .

والدولة الثانية، هي دولة البرجنديين في حوض الرون ومنطقةسافوى، أقام البرجنديون دولتهم فيجنوبي غاله منذ أواخر القرن الخامس الميلادى وذلك بعد أن قضى الهون Huns على دولتهم الأولى فى فرمز Warms ومايتز Mayence وسبير Speyer . وملك البرجنديين المشهور فى نهاية ذلك القرن هو جندوباد Gundobad ومن أميرات البيت البرجندى الأريوسى المذهب : كلوتيلدا Clotilda الكاثوليكية ، وهى التى تزوجت من كلوفس clovis ملك الفرنجة،وكان لها أثر كبير فى اعتناق زوجها ورعاياه من الفرنجة المسيحية على المذهب الكاثوليكى ، ولهذا نتائجه البعيدة فى مستقبل الفرنجة(٢) .

أما الدولة الثالثة التى سادت فى غاله ، فهى دولة الفرنجة Franks ، أعظم ممالك الجرمان على الإطلاق ، ومؤسس هذه الدولة كلوفس (٤٨١ — ٥١١ م) . وتعرف باسم الدولة الميروفنجية . أو « الأسرة الميروفنجية » . فيما عبر التونسى(٣) . نسبة إلى ميروفش Meroveh جد كلوفس . ومن أهم أسباب عظمة هذه الدولة ، وبقائها أكثر من غيرها ، أنها خالفت من

---

(١) هذه المدن هى : أربونة Narbonne ونيم Nimes وآجد Agde وبيزيه Beziers ولوديف Lodeve وقرقشونة Carcasonne وماجلون Maguelone . وكانت منطقة سبتمانيا أولى المناطق التى زحفت اليها السيادة الإسلامية ، بعد فتح أسبانيا فيما بعد ( انظر دولة القوط الغربيين للمؤلف ص ٨٢ — ٨٤ ، Eyre. . (Ed.), European Civilistion. p. 50 )

(٢) Larisse. E. , Histoire de France. T. I. PP. 48 – 66 , C. Med. H. . Vol. III. PP, 134 - 36. H. G. T. I. PP. 97 – 108, 121 – 122. Deanesly. op. Cit. P. 50. Cortellieri. O.- The Count of Burgundy ( Studies in History of Civilization ) pp. 24. 164 – 180.

(٣) نزهة المشتاق ص ١١٣ .

عداها من سائر الجرمان ، مثل القوط والوندال والبرجنديين والسويف (الجلالقة) واللومبارد وغيرهم ، إذ اعتنقت المسيحية على المذهب الكاثوليكي ، فوافقت بذلك مذهب رعاياها من الرومان الغاليين ، كما وافقت البابوية وظفرت بتأييدها ، حتى لقب كلوفس بملك الرومان Rex Romanorum [١] .

اعتمدت دولة الفرنجة على رجال الدين . ومن أهم أركان سياستها ، التبشير بالمسيحية فى الأقاليم الوثنية البربرية مثل بلاد السكسون والألمان وغيرهم ، وتضمن التبشير بالمسيحية نقل المدنية الرومانية والقانون الرومانى إلى تلك الأصقاع [٢] . وتحمس الفرنجة لحماية العقيدة المسيحية ، مما كان له أثره فى النضال الإسلامى المسيحى ، وليس من باب الصدفة أن فرنسا ، دون غيرها ، من سائر دول الجرمان ، هى التى ساهمت بالنصيب الأوفى فى الحروب الصليبية فيما بعد ، وأن لغتها هى التى سادت فى الإمارات اللاتينية بالشرق [٣] .

كانت مملكة الفرنجة Regnum Francorum موحدة زمن كلوفس وخلفائه المباشرين ، وتعزى هذه الوحدة إلى شخصية كلوفس ومقدرته ، وإلى حروبه الظافرة التى حطم بها قادة الجرمان الآخرين ، كما أزال فى عام ٤٨٦ م البقية الباقية من حكم الرومان فى غاليا ، وهى مملكة سياجريوس Syagrius وعاصمتها سواسون Soissons [٤] .

---

(١) دولة القوط الغربيين للمؤلف ص ١٤٥ ، H. G. T. I, PP. 121 - 132

(٢) نفس المرجع ص ٣٥ — ٣٦ .

(٣) انظر Barker, E. , The Crusades, pp. 3 - 10 والترجمة العربية ( للدكتور الباز ) ص ٢٤ — ٢٥ ، Runciman, S. , A History of the Crusades, Vol. I. PP. 106 - 99.

(٤) Lavisse, op. Cit. pp. 94 - 95, 100 - 108. Deanesly, op Cit. PP. 58 - 60 , Funk - Brentano : Histoire de France, PP. 200 - 207.

وعندما استقرت حدود مملكة الفرنجة عند جبال البرانس ، واستقر اللومبارد فى حوض البو شمالى إيطاليا ، عندئذ تحولت الروح الحربية الجرمانية إلى صراع داخلى . فلم يكن للفرنجة أو غيرهم من الجرمان ، خبرة أو رصيد سياسى سابق فى معالجة الرعايا ، ورغم أنهم استخدموا بعض النظم الرومانية إلا أنهم لم يفهموا قيمة الحكومة المركزية ولم يعقلوها كما عقلها العرب ، مثلا ، فى فارس وغيرها من البلاد التى فتحوها ، وذلك بالإبقاء على النظم القائمة الثابتة[١] .

سار الفرنجة على قاعدة خطيرة ، كانت أهم معاول ضعفها وتمزيقها ، تلك هى ، تقسيم الملك كالإرث بين الأبناء ، ويشبه هـــذا ما وجد عند السلاجقة والدول الإسلامية التى نبتت فى أحضانهم مثل الدولة النورية والدولة الصلاحية .

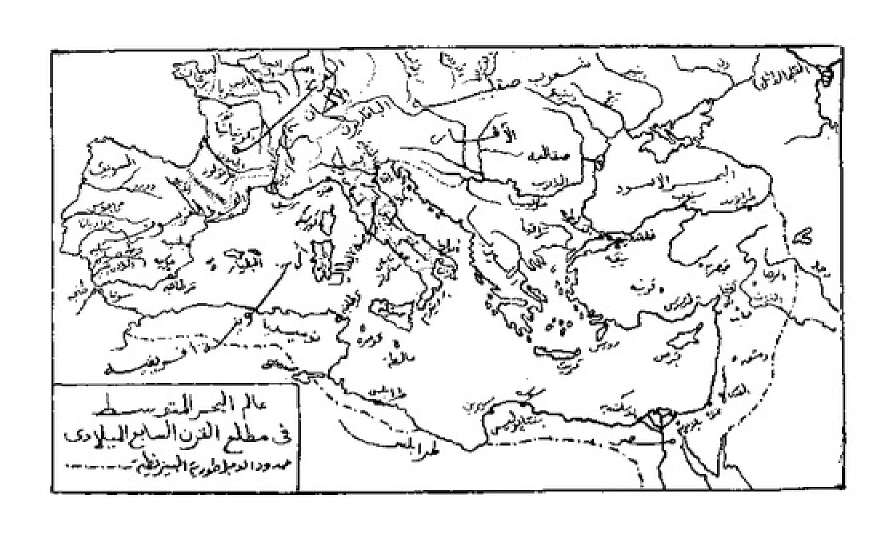
جهل الفرنجة فكرة الدولة State وقيمة التجانس أو الحدود الاستراتيجية لأملاكهم ، أو حتى الإمكانيات الاقتصادية التى ينبغى أن تتوافر ، ولم يكن أمامهم سوى اعتبار واحد ، هو تقسيم الإرث الموجود ، الثابت والمنقول بين المستحقين من أبناء البيت الميروفنجى[٢] .

وأول تقسيم مشهور فى تاريخ الفرنجة ، ماوقع فى عام ٥١١ م عقب وفاة كلوفس ، فقد قسمت المملكة بين أبناء كلوفس الأربعة ، فنشأ من ذلك أربعة ممالك فرنجة متنافسة[٣] . على أن التقسيم لم يقتصر على الأقاليم ، بل

(١) Deanesly, op. Cit., p. 261

(٢) Ibid., p. 262

(٣) R. C. T. I. p. 124. Funk - Brentano, op. Cit., p. 235, Lavisse, op. Cit., pp. 161 — 120



عالم البحر المتوسط
في مطلع القرن السابع الميلادي
حدود الإمبراطورية البيزنطية
البحر الأسود
صقالبة
افريقية

شمل كذلك تقسيم المدينة الواحدة بين أكثر من واحد ، مثل ميناء مرسيليا وباريس العاصمة نفسها ، فن عام ٥٦٧ م قسمت باريس بين ثلاثة أخوة ، حتى إن الحصة التى لم تقع فيها الأسقفية ، أقام فيها صاحبها أسقفية خاصة به [1]

والملحوظ على الفترة الممتدة من ٥٦١م — وهى سنة وفاة لوثر الأول ابن كلوفس — إلى ولاية شارلمان عام ٧٦٨ م ، وتقدر بأكثر من قرنين ، أنها فترة مضطربة ، اشتد فيها الصراع ، ليس فقط بين الممالك الفرنجية التى انقسمت إليها دولة الفرنجة ، ولكن كذلك بين ملوك الفرنجة الميروفنجيين وبين حجاب قصورهم ، مما أدى إلى تدهور التقاليد اللاتينية فى غالة ، ولا سيما فى الجنوب .

كان حكم الميروفنجيين خلال تلك الفترة حكماً اسمياً ، فقد انتقلت السلطة الفعلية تدريجياً إلى حجاب القصر ، وبرزت سلطة حجاب قصر مملكة أستراسيا Austrasia الفرنجية ، وهى الجزء الشرقى من فرنسا [2] ، وهؤلاء الحجاب من سلالة أرنولف Arnulf أسقف متز Metz ، أمثال ببين Pepin الأول وببين الثانى وشارل مارتل ، ومن هذه الأسرة قامت أسرة الكارولنجيين Carolingians التى أنهت حكم الميروفنجيين ، فى منتصف القرن الثامن الميلادى [3] .

---

(١) Deanesly, op. Cit. , p. 287.

(٢) انظر ص ٧٤

(٣) موطن الكارولنجيين الأصلى هو بلجيكا الحالية تقريبا ، وبرز فيها شخصيتان هما : ببين صاحب بلدة لاندن Landen بمقاطعة برابانت Brabant الحالية ، ودوق أرنولف ، الذى صار أسقف متز فيما بعد ، وصار ببين حاجباً لقصر استراسيا عام ٦٢٢ م ، وزوج ابنته لابن أرنولف ، وكان من نتاج هذه المصاهرة ببين الثانى الذى تولى رئاسة البلاط فى أوستراسيا عام ٦٨١ م ثم فى نوستريا Neustria — وهى الجزء الغربى من فرنسا — عام ٦٨٧ م ( انظر ص ٧٥ — ٧٦ ) .

وزاد من مركز حجاب قصر أستراسيا ، أنهم هم الذين انبروا لحماية فرنسا من الخطر الخارجى ، ولاسيما خطر الفريزيين Frisin المقيمين على ساحل بحر الشمال حتى نهر الفيزر ، هزمهم ببين الثانى (ت ٧١٥ م) واستعاد المدن التى استولوا عليها ، كما هزم الألمان Alemans والبافاريين ، فمهدت جهوده لسيادة خلفائه من بعده ، وصار بيد هؤلاء الحجاب تولية الملوك الميروفنجيين وعزلهم(١) .

ومن أبرز خلفاء ببين الثانى حفيده شارل مارتل (٧١٩ — ٧٤١م) ، الذى اشتهر بالشجاعة والكفاية ، قام بالغزو المنظم فى كل صيف ، وحطم الأعداء المحيطين بدولة الفرنجة ، ونجح فى جميع حروبه ، فأخضع دوقية ألمانيا بعد أن شن عليها أكثر من حملة ظافرة ، فى أعوام ٧٢٠ ، ٧٢٢ ، ٧٢٤ ، ٧٣٨ م كما أخضع بافاريا بعد حملتين ناجحتين فى ٧٢٥ ، ٧٢٨ م ، وكذلك حارب الفريزيين عام ٧٣٣ ، ٧٣٤م (٢) ، وهو الذى هزم المسلمين فى واقعة بلاط الشهداء ، كما سنرى فيما بعد ، ويقال إنه لقب بالمطرقة Martel لأنه دحر أعداء الفرنجة ، أو لشدة ما أنزل بالكنيسة الكاثوليكية فى غاليا من صارم الضربات التى استلزمها فساد رجال الدين فى عصره (٣) .

وكانت دوقية أكويتانيا ، فى غاله ، شبه مستقلة ، ويحكمها دوق فرنجى هو أود Eudes . ويتحين الفرص لتوسيع دوقيته على حساب الميروفنجيين ، فحاربه شارل مارتل وهزمه عام ٧٣١ م ، لكنه لم يخضع لنفوذه ، غير أن

---

(١) Deanesly, pp. 276 – 282. Lavisse. op. Cit. , pp. 257 – 261. Funk – Brentano. pp. 280 – 290, Pirenne. H. , A History of Europp pp. 72 – 79.

(٢) Deanesly, op. Cit. , pp. 276 – 286, Lavisee, pp. 257 – 261

(٣) قنبر ص ٧٦ ، Deanesly, op. Cit. , p. 286

تعرض دوقية أكويتانيا ، بحكم موقعها ، لخطر المسلمين ، حمل الدوق على التحالف مع شارل مارتل ضد العدو المشترك . وهم المسلمون ، ومن ثم امتد نفوذ شارل مارتل على كل فرنسا تقريباً .

وفى زمن شارل مارتل صاحب قصر الميروفنجيين، وابنه بيبين القصير صاحب القصر، ثم ملك الفرنجة ، وحفيده شارلمان ، كان الصراع قد اشتد بين الفرنجة والمسلمين (١) .

وفيما يتعلق بأسبانيا ، كان صاحب الأمر فيها ، هم القوط الغربيون ، البرابرة الجرمان ، ولقد ترك القوط أسبانيا ، فى مطلع القرن الثامن الميلادى ، كما دخلوها أول مرة ، فى مطلع القرن الخامس ، مشهداً من مشاهد البؤس والفاقة ، دخلوها وهى مقسمة ضياعاً Latifundia بين أقلية من السادة الرومان ، تتمتع بكل الامتيازات ، وسط محيط من العبيد الأذلاء ، ولا بد لمثل هذا المجتمع المنهار ، من أن يسقط عند أول غزو ، هكذا كان الحال عند نهاية حكم القوط ، فقد تركوها على هذا النحو أو ما يقرب منه (٢) .

قام المجتمع القوطى على نظام الطبقات ، فاستولى النبلاء فيه ورجال الدين على نحو ثلثى الأراضى الخصبة ، مع الإعفاء من الضرائب(٣) ، ولهم جميع السلطات المدنية والعسكرية والروحية.إذ كان رجال الدين يشاركون فى حكم البلاد . أما جمهور الناس من التجار وصغار الملاك ، فوقع عليهم

---

(١) انظر ما يلى .

(٢) Dozy, R. , Les Musulmans d'Espagne, T. II, pp. 4 - 13.
Oman, Ch. , The Dark Ages, pp. 181 - 184, Bradley, H., The Goths, p. 348

(٣) العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس ص ٤٤ — ٤٥ ، دولة القوط الغربيين ص ١٢٥ — ١٢٨ ، التونسى أقوم المسالك ص ٢٤٩ ،
Scott, Vol. I, p. 184 , Lavisse ( H. G. ) T. I, p. 247

صب، دفع الضرائب وإشباع نهم الحكام ، ثم طبقة العبيد ، وهذه مرتبطة بالأرض ، تنتقل معها من مالك إلى آخر ، وهى طبقة كثيرة العدد ، ومع أن الكثير من أفرادها أقام بالمدن وزاول بعض الصناعات ، إلا أنهم حرموا جميعاً من شتى الحقوق.وبجانب هذه الطبقات توجد جالية كبيرة لليهود ، وتتحكم هذه الجالية فى موارد البلاد الاقتصادية ، شأنهم فى كل مكان،وقد أحس ملوك القوط بوطأتهم فناصبوهم العداء وتواصوا بالتنكيل بهم واستئصال شأفتهم ، وصدرت عدة قوانين ضدهم ، من ذلك ما أصدره الملك شنشادس Sienaud (ت ٦٣٦ م) من قوانين تقضى بطردهم من المناصب العامة ، وربما كانت القوانين التى أصدرها الملك إرفج Ervig (ت٦٨٧م) من أقواها وأشدها تنكيلا باليهود[١] .

نظر اليهود لأحوال أشقائهم عبر الزقاق ، فى شمالى أفريقية ، حيث ينعمون بالتسامح فى ظل السيادة الإسلامية الجديدة ، فاتصلوا بهم ودبروا مؤامرة للقضاء على حكم القوط ، حقيقة اكتشفها الملك أيقة Egica (ت ٧٠١ م ) ، وأجبر اليهود على اعتناق المسيحية إلا أنهم لم يكفوا عن الكيد والتدبير ضد حكم القوط ، وهذا يفسر ترحيب اليهود بالمسلمين عندما دخلوا أسبانيا،وهم فى ذلك يشبهون أقباط مصر فى العصر البيزنطى، عندما رحبوا بالفتح العربى الإسلامى (٢) .

ومن عناصر ضعف المجتمع القوطى كذلك ، الصراع المستمر على

---

(١) راجع دولة القوط الغربيين المؤلف ص ١٦٧ — ١٦٨ وانظر :
Scott. I. PP. 172 - 178, 178-184, 132. Leclercq. H. . L'Espagne Chrétinne PP. 312 - 4.

(٢) Leclerq. op. Cit. PP. 306, 333 362. Deanesly. PP. 104-166. Dozy II. PP. 25 - 7 Pirenne. P. 155. Lévi - Provençal. Histoire de L'espagne Musulmane. T. I. PP. 1 - 7. H. G T. I. P. 248. Oman. op. Cit. PP. 253 - 4. Diehl. ch. L'Afrique Byzantine. P. 589.

العرش ، إذ كانت الملكية القوطية قائمة على الانتخاب ليظل العرش حقاً مشاعاً بين القادرين على اغتصابه ، وهذا بجانب حقد الرعايا من الرومان الأسبان لاختلافهم فى المذهب الدينى ، ولم تفلح سياسة القوط الدينية عندما تحولوا إلى الكاثوليكية فى أواخر القرن السادس الميلادى ، فقد جاء هذا التحول متأخراً [١] ، كما لم تفلح تشريعاتهم القانونية للمزج بين القوانين الجرمانية والقوانين الرومانية ، حتى تزول الصفة الشخصية عن التشريعات الجرمانية [٢] .

ظلت الكراهة قائمة بين الرعايا والحكام ، كما ظلت مؤامرة الصراع حول العرش ، وآخرها مؤامرة لوذريق Rudericus [٣] التى انتهت بطرد الملك غيطشه Wetiza وتولى لوذريق العرش ( ٧١٠ — ٧١١ م ) فاستعانت الأسرة وأنصارها بالمسلمين ، وما كاد عام ٩٢ هـ — ٧١١ م يأتى حتى تعرضت دولة القوط الغربيين ، لأخطر ما تعرضت له فى حياتها ، ومهما قيل عن عوامل ضعفها ، وكثرة ما خاضت من حروب وفتن مهلكة ، فلم يكن هناك خطر يهدد أسبانيا البربرية بالزوال ، قبل وصول فرسان العرب المسلمين إلى إفريقية ، جاء هذا الخطر سريعاً وحاسماً [٤] .

---

(١) Lavisse. E. ( H. G. ) T. I. P. 249. Bradley. PP. PP. 301 - 332, Leclercq. P. 270.

(٢) دولة القوط الغربيين للمؤلف ص ١٤٣ — ١٤٨ ، Scott. I. P. 284. De Marlès M. : Histoire de la Domination des Arabes et des Maures en Espagne et En Portugal. PP. 58 - 60

(٣) يسميه القلقشندى : غطشه ( راجع صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٣٨ — ٢٤١ ) .

(٤) راجع دولة القوط الغربيين للمؤلف ص ١٢٠ — ١٢١ ، العبادى ص ٤٦ ، Lévi - Provencal. op. Cit. PP. 1 - 7. Scott. I. pp. 217 - 19. Lot. F. : Les Invasions Germaniques. p. 187.

# الفصل الثالث

## الفتوح الإسلامية والبحرية الإسلامية

طبيعة الفتوح الاسلامية ـ عوامل سرعتها ـ معاوية وقيام البحرية الاسلامية ـ اهميتها للدولة الاسلامية ـ انتصار المسلمين البحرى فى قبرص غزوة الصوارى ـ قواعد الاسطول الاسلامى فى حوض البحر المتوسط ـ توافر المواد الخام ـ قطع الاسطول الاسلامى - النار الاغريقية ـ ابن خلدون والسيادة البحرية الاسلامية .

هذا هو مجمل الوضع السياسي والأحوال العامة لعالم البحر المتوسط ، عندما بدأت الفتوح الإسلامية .

ولقد بدأ بالفتح الإسلامي طور جديد في تاريخ البحر المتوسط ، وفي تاريخ الإنسانية ، فلم يكن ظهور الإسلام على سواحله بالحادث المؤقت الذي سرعان ما تمحي آثاره ، بل على العكس ، كان انبثاق فجره ظاهرة دائمة مستمرة ، صحبها تبديل جوهري في ثقافة المواطنين في أغلب بلاد هذا البحر وفي كل صقع وصلت إليه الفتوح الإسلامية . ولم يزل أثر ذلك التغير ، يمثل الحقيقة الكبرى والظاهرة الجوهرية التي تميز هذا الجزء من العالم [1] .

ومما يدعو للدهشة ، تلك السرعة الهائلة ، وذلك اليسر العظيم الذي رافق الفتح العربي الإسلامي أينما سار ، ولعل مرجع هذا ، هو ذلك الإجهاد العظيم الذي ألم بالدول التي قدر لها أن تحتك بالدولة الاسلامية ، رغم تفوقها البحري ، ثم إلى ما سمع ولمس عن خصائص الإسلام وطبيعة تعاليمه القائمة على التسامح وهذا أمر لم يؤلف في تلك الفترة المليئة بالفتن المذهبية والصراع الديني ، وهذا ما حمل سكان شواطئه الشرقية والجنوبية والغربية . على الترحيب بالفتح الإسلامي ، وأصدق دليل على ذلك أن مصير الشام تقرر في معركة واحدة ، هي وقعة اليرموك ١٥هـ — ٦٣٦م ، كما تقرر مصير مصر في واقعة واحدة هي وقعة حصن بابليون ٢٠ هـ — ٦٤١ م وكذلك تقرر مصير أسبانيا في واقعة واحدة هي واقعة وادي لكه Lakko أو فحص شريس Xeres عام ٩٢ هـ — ٧١١ م [2] .

---

(١) أرشيبالد لويس ص ٢٠ ( مقدمة شفيق غربال ) ، ص ٨٧ (ترجمة أحمد عيسى) .

(٢) أرشيبالد لويس ص ٨٧ — ٨٨ ، Ivo. G. H. , History of The Byzantine Empire. PP. 40 - 52.

ومن أسباب سرعة الفتح الإسلامي كذلك ، ذلك الحماس الديني الذي بثه الإسلام في قلوب الفاتحين ، وحسبي شاهد أو شاهدان من بين آلاف الشواهد ، دليلا على هذا الحماس :

فهذا عقبة بن نافع ، الملقب بقاهر الروم والبربر ، أوطأ جيوشه أرض السوس الأدنى ، ودحر البربر والروم ، ثم وقف على ساحل المحيط الأطلسي ، ثم اندفع إلى البحر بفرسه ، حتى وصل الماء إلى ركابه ، ثم انتضى سيفه وهزه قائلا :

« اللهم فاشهد ، أني لو كنت أعلم أن وراء هذا البحر أرضاً لخضته غازياً في سبيلك » . وفي عودته أحاط به البربر والروم براً وبحراً ، واشتدت نكاية العدو بالمسلمين . وكان أبو المهاجر دينار ، من موالي المسلمين ووالي أفريقية قبل عقبة ، مقيداً بالحديد (١) ، فسمع بشدة وطأة البربر والروم على المسلمين ، ففاض به الحزن ، وتمثل بقول أبي محجن الثقفي (٢) :

كفى حزناً أن تردى الخيلُ بالقنا ... وأُترك مشــــدوداً عليَّ وثاقيا
إذا قمت عنّاني الحديد وأُغلقت ... مصارع من دوني تصم المناديا

---

(١) كان عقبة قد أساء معاملة أبي المهاجر دينار ، حين عاد إلى ولاية أفريقية زمن يزيد بن معاوية ، فقد قبض على أبي المهاجر وقيده بالحديد ، وكان ذلك جزاء وفاقاً لما فعله أبو المهاجر من قبل زمن معاوية . إذ أساء عزل عقبه عن ولاية أفريقية سنة ٥٠ هـ — ٦٧٠م.

(٢) أبو محجن الثقفي مولى عبد العزيز بن مروان ، واسمه نصيب بن رباح ، وأمه نوبية ، فجاءت به أسود ، وباعه عمه ، وله قصة طريفة في بيعه وعتقه ، وتوفي عام ١٠٨ هـ ٧٢٦ م . ( راجع الأغاني ج ١ ص ٣٣٣ — ٣٣٧ ، ابن الأثير ج ٤ ص ٥٠ — ٥٤ ، النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٥٩ : ٢٠٦ ) .

فأطلقه عقبة ، وأمره باللحاق بالمسلمين قائلا له : « الحق بالمسلمين ، وقم بأمرهم ، وأنا أغتنم الشهادة » .فرفض أبو المهاجر وقال : « وأنا أيضاً أريد الشهادة ! » ، فقاتل الاثنان حتى قتلا فى معركة تاهوده عام ٦٢هـ — ٦٨٢ م (١) .

ثم ذاك زهير بن أبى قيس البلوى العابد الزاهد ، ولى أفريقية عام ٦٩هـ — ٦٨٨ م ، زمن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، قضى على البربر وزعيمهم كسيلة الأوربى من البربر البرانس ، وأصر على مغادرة أفريقية خوف الفتنة ، لأنه رأى بها ملكا عظيماً ، ومما قاله :

« قدمت للجهاد . فأخاف أن أميل إلى الدنيا ، فأهلك ! » . وقتل فى عودته أيضاً أمام الروم الذين بعثوا بأسطول حربى (٢) .

**البحرية الإسلامية . . . .**

وسر نكبة عقبة وزهير بن قيس البلوى هو افتقارهما إلى القوة البحرية ، فضلا عن مرارة الكفاح فى شمال أفريقية (٣) . حقيقة إن العرب قد امتلكوا البر ، غير أن البحر لم يزل فى قبضة أعدائهم من الروم بصفة خاصة .

---

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ١٩٩ — ٢٠٠ ، العبادى ص ٣٤ .

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٤٧ ، العبادى ص ٣٥ — ٣٦ .

(٣) ابن الأثير ج ٤ ص ٤٥ — ٥٠ ، العبادى ص ٣٥ — ٣٦ .

والمعروف أن العرب المسلمين قد عمدوا إلى اتخاذ قواعد حكمهم بعيداً عن ساحل البحر ، كما فى دمشق والفسطاط ، على حين اتخذها أسلافهم من اليونان والرومان على الساحل ، كما فى أنطاكية والإسكندرية (١) ، إلا أن الضرورة قد أجبرت العرب على الاهتمام بالبحر ، ففضلا عن الاعتبارات العسكرية ، هناك أهمية البحر الاقتصادية ، فهو طريق هام للتجارة العالمية ، وزاد فى تنبيه العرب إلى أهمية البحر ، تلك الحملة البحرية التى أرسلها البيزنطيون عام ٢٥ هـ — ٦٤٥ م عقب فتح مصر ، واستولت على الإسكندرية ، ولم تطرد إلا بعد جهد عنيف (٢) ، ثم تلك المقاومة العنيدة التى أبدتها مدينة أرواد : Aratus ، آخر حصن بحرى قوى للبيزنطيين فى سوريا ، بسبب الأمدادات التى وصلتها عن طريق البحر (٣).

ويعتبر معاوية بن أبى سفيان ، أول من نظم أسطولا فى الإسلام ، وأول من أرسل حملة عربية إسلامية للغزو فى البحر المتوسط . استأذن معاوية ، وهو يلى الشام من قبل الخليفة عمر بن الخطاب ، لكى يسمح له الخليفة بركوب البحر . لاعتزامه فتح جزيرة قبرص . ومما قاله معاوية لعمر :

« يا أمير المؤمنين ، إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم ، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص ، فاتهمه الخليفة ،

---

(١) أرشيبالد لويس ص ٢٠ .

(٢) ذكر ابن الأثير أن من أسباب عودة الروم إلى الإسكندرية ، أن الروم قد « عظم عليهم فتح المسلمين للاسكندرية ، وظنوا أنهم لا يمكنهم البقاء ببلادهم بعد خروج الاسكندرية عن ملكهم ، فكاتبوا من كان فيها من الروم ودعوهم إلى نقض الصلح ، فأجابوهم إلى ذلك » وكان هذا النقض على غير رغبة المقوقس الذى ثبت على صلحه ( راجع ابن الأثير حـ ٣ ص ٣٣ — ٣٤ ) وانظر إبراهيم العدوى « الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ص ٦٠ — ٩٣ )

(٣) فيليب حتى ص ١٦٧

لأنه ، المشير بذلك ، وكتب إلى عمرو بن العاص ، والى مصر ، أن « صف لى البحر وراكبه ، فإن نفسى تنازعنى إليه » أجابه عمرو :

« إنى رأيت خلقاً كبيراً ، يركبه خلق صغير ، إن ركن خرق القلوب وإن تحرك ، أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا برق » . فلما وقف عمر على كتاب والى مصر ، كتب إلى معاوية :

« لا والذى بعث محمداً بالحق ، لا أحمل فيه مسلماً أبداً »(١) .

وفى خلافة عثمان بن عفان (٢٣ — ٣٥هـ = ٦٤٤ — ٦٥٦ م ) ، أعاد معاوية طلبه موضحاً أهمية البحر ، فأذن له عثمان وأوصاه « لا تنتخب الناس ، ولا تقرع بينهم ، خيرهم ، فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه »(٢) واستمع معاوية لنصيحة عثمان . واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الحارثى ، حليف بنى فزارة(٣) .

وهكذا قامت البحرية الإسلامية ، وتشجع المسلمون على ركوب البحر وارتياده ، ولا سيما بعد انتصارهم على قبرص عام ٢٨هـ — ٦٤٨ م وانتصارهم الساحق على البحرية البيزنطية عام ٣١هـ — ٦٥١ م فى الوقعة المعروفة باسم « غزوة الصوارى » . وهى وقعة هامة ، إذ اطمأن المسلمون بها على إمكان تفوقهم البحرى ، بعد أن انتصروا على صاحبة أقوى بحرية معاصرة .

---

(١) الطبرى حـ ٥ ص ٥١ — ٥٢ .

(٢) الطبرى حـ ٥ ص ٥٢ .

(٣) يقال إن عبد الله بن قيس الفزارى غزا خمسين غزوة بحرية « من بين شاتية وصائفة ، ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب ، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية فى جنده ، وأن لا يبتليه بمصاب أحد منهم »

( الطبرى حـ ٥ ص ٥٣ ، ابن الأثير حـ ٣ ص ٣٩ — ٤٠ ) .

كان الأسطول الإسلامي يتكون من مائتي سفينة ، وعليه بحارة من المصريين والسوريين ، وتراوحت سفن الأسطول البيزنطي بين ٧٠٠ وألف سفينة .

ويقول مؤرخو المسلمين : « إن الروم قد خرجوا في جمع لم تجمع الروم مثله منذ كان الإسلام »(١) . التقى الأسطولان عند موضع فوينكس Foeaix على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى ، ويقود الأسطول البيزنطي الإمبراطور قسطانز الثاني Constans II نفسه ( ٦٤١ - ٦٦٨ م ) ، وعلى الأسطول الإسلامي معاوية بن أبي سفيان ، ويقود أهل الشام ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح والي مصر ، وإليه أمر البحرية الإسلامية .

بات المسلمون يقرأون القرآن ، بينما أخذ الروم يضربون بالنواقيس وربط المسلمون سفنهم بعضها إلى بعض ، بسلاسل قوية وذلك لمهارتهم في الحروب البرية من غير شك ، استحال على عدوهم أن يخترق صفوفهم وانتهت المعركة بتدمير الأسطول البيزنطي ، وهرب الإمبراطور إلى صقلية ، حيث عنفه أهلها لخيبته ، ومما قالوه له « أهلكت النصرانية ، وأفنيت رجالها ، لو أتانا العرب ، لم يكن عندنا من يمنعهم »(٢) ، ثم أدخلوه الحمام وقتلوه .

اطمأن المسلمون إلى قوتهم البحرية ، فأولوها أكبر العناية . ومعاوية ابن أبي سفيان ، سواء أكان في ولايته ، أم في خلافته ، هو صاحب الفضل الأول في ارتياد المسلمين البحر وتنظيم البحرية الإسلامية ، ويقال إن جملة ما أنفقه في بناء السفن في مصر بلغت نحو سبعة آلاف دينار

---

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٤٨ .

(٢) ابن الأثير ج ٣ ص ٤٨ - ٤٩ ، الطبري ج ٥ ص ٦٩ - ٧١ ، أرشيبالد لويس ص ٩١ - ٩٢ ، العدوي ص ٦٣ .

سنوياً ، وذلك خلال الأربعين سنة التى تلت الفتح العربى الإسلامى لمصر (١) .

سار معاوية وخلفاؤه من بعده على منهج البيزنطيين فى تنظيم البحرية ، وساعدهم على ذلك ، ما خلص لهم من دور الصناعة والمعدات البحرية ، فى سوريا والإسكندرية ، وفضلا عن السفن التى غنموها فى وقائعهم البحرية . فكان لدى المسلمين سفن معدة للعمل ، وأخرى سهلة الإنشاء ، يضاف إلى ذلك ، السفن التجارية التى يملكها أهل البلاد فى مصر وسوريا ، وهذه يسهل تحويلها إلى سفن حربية عند الحاجة .

استقدم معاوية بناة السفن من المصريين لبناء أسطول فى عكا ، وهى التى غدت أهم قاعدة بحرية فى الشام ، وكانت السفن تبنى فى القلزم والفسطاط والإسكندرية . وفى زمن عبد الملك بن مروان (ت ٨٦ هـ — ٧٠٥ م) ، أنشئت قاعدة بحرية فى قرطاجنة . وأرسل من أجل ذلك ألف صانع مصرى من بناة السفن بأسرهم (٢) ، وفى زمن الوليد بن عبد الملك (ت ٩٦ هـ — ٧١٥ م) ، صارت هذه القاعدة على بحيرة ، حرص موسى ابن نصير على أن يتصل بالبحر ، إذ كان موسى يدرك سر حماية خطوط مواصلاته البرية بحمايات بحرية (٣) .

وفى حوض البحر المتوسط الغربى ، نامت البحرية الإسلامية من الأندلس ، وهذه لم تنظم وتكتمل إلا زمن عبد الرحمن الثالث الملقب

---

(١) أرشيبالد لويس ص ٢١ ، ١١٦ .

(٢) أرشيبالد لويس ص ٢١ ، ١١٦ ، حسن حسنى عبد الوهاب : [illegible] المجلة التاريخية المصرية م ٢ عدد ٢ أكتوبر ١٩٤٩ م ، ص ٥٨ .

(٣) أرشيبالد لويس ص ٢١ .

بالناصر ( ت ٣٥٠ هـ - ٩٦١ ) . ويرجع السبب فى ذلك إلى عدم اكتراث الدولة الأموية فى الأندلس بتكوين تجرية قوية منظمة دائمة ، غير أن هذا لا ينفى وجود بحرية إسلامية فى الأندلس قبل عبد الرحمن الناصر ، واشتغال الكثير من مغامرى المسلمين فى أسبانيا فى الأساطيل الإسلامية فى البحر المتوسط . فقد تنبه الأمويون فى الأندلس فى أوائل القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى ، إلى أهمية وجود بحرية دائمة لهم ، وذلك زمن عبد الرحمن الأوسط ( ت ٢٣٨هـ - ٨٥٢م ) بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، كان ذلك على أثر غارة المجوس ( النورمان ) عام ٢٠٩هـ - ٨٢٤م ، لشواطىء أسبانيا ، حيث نزلوا عند الأشبونة (١) ( اشبونة ) Lisbôa ، وغنموا وعادوا قبل أن يتمكن المسلمون من اللحاق بهم . ولم يكف النورمان عن قرع شواطىء أسبانيا ، فأغاروا مرة أخرى على شرق الأندلس ووصلوا إلى سواحل غانة الجنوبية ، وفى عودتهم ، هزمهم المسلمون فى البحر (٢) . وعندئذ انصرف النورمان عن الأندلس ، لفترة ، ولما كانت هذه الغارات البحرية مفاجئة لمسلمى أسبانيا ، استقر الرأى على إنشاء بحرية دائمة منظمة لحماية بلادهم (٣) .

وتم تنظيم البحرية فى الأندلس ، واستكمالها ، زمن عبد الرحمن الناصر ، وتركز غالب القواعد البحرية فى أسبانيا على طول الساحل الشمالى الشرقى بين طرطوشه Sortosa (٤) وبلنسيه Valencia (٥) ، وكان ذلك

---

(١) وردت فى المراجع العربية باسم أشبونه أو الأشبونه ( انظر الروض المعطار ص ١٦ ، صبح الأعشى حـ ٥ ص ٢٢٣ ) .

(٢) انظر البيان المغرب حـ ٢ ص ١٣٠ — ١٣٢ . أعمال الأعلام ص ٢٠ .

(٣) العبادى ص ١١٠ — ١١١ .

(٤) الروض المعطار ص ١٢٤ — ١٢٥ .

(٥) الروض المعطار ص ٤٧ — ٥٥

للفداء المستحكم بين مسلمى أسبانيا وبين دولة الفرنجة ، وملوكها يومئذ من الكارولنجيين خلفاء الميروفنجيين ، مع ملاحظة أن بحرية الفرنجة كانت ضعيفة . ودون البحرية الإسلامية . ولا سيما زمن لويس التقى ابن شارلمان ( ٨١٤ — ٨٤٠ م ) .

وكانت مدينة المرية Al mria[١] ، فى الجنوب الشرقى من أسبانيا ، هى القاعدة الرئيسية للبحرية الأندلسية ؛ وفيها معظم دور الصناعة ؛ كذلك وجد فيها أسطول دائم تألف من مائتى سفينة ؛ ويليها فى الأهمية قاعدة بجايه Bougie[٢] وطراكونه Tarragona[٣] ثم طرطوشه ولقنت Alicante[٤] شمالى مرسية ؛ وكذلك شريش Yerez وطرش Toutox وشلب Silves[٥] وقرطاجنة وبجانه Bechina[٦] . ومن القواعد البحرية الأندلسية أيضا الجزيرة Algeciras جنوبى جبل طارق ويابسة Ivisa[٧] إحدى جزر البليار . ولعل أعمر المناطق بالنشاط البحرى ، هى المنطقة الواقعة بين لقنت وأكيله Aquila ، وأهمها اسكمبيره Escambera ، وهى فى جزيرة فى

---

(١) الروض المعطار ص ١٨٣ — ١٨٤ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٨٢ ، مؤنس ص ١٢٢ — ١٢٣ .

(٣) الروض المعطار ١٢٥ — ١٢٦ .

(٤) الروض المعطار ص ١٧٠ .

(٥) الروض المعطار ص ١٠٦ .

(٦) الروض المعطار ص ٣٧ — ٣٩ .

(٧) الروض المعطار ص ١٩٨ .

حوض البحر الأبيض الغربي ، عند مدخل خليج قرطاجنة الأندلس ، وهي المعروفة بقرطاجنة الخلفاء (١) .

ولأسطول المحيط الأطلسي الإسلامي قاعـــدة هي الأشبونة أو (أشبونة) . . وفي كل قاعدة دار صناعة وإدارة خاصة للأساطيل ، وفي وقت السلم يرابط عدد من السفن في هذه القواعد ، وهذه تتجمع كلها في مكان واحد في وقت الحرب . ولكل سفينة قبطان مسئول عن الأسلحة والمحاربين ، وكبير للبحارة أو رئيس — كما يقول ابن خلدون — : « يدبر أمر جريته بالريح أو بالمجاديف وأمر إرسائه في مرفئه »(٢)

والملاحظ أن لرجال البحرية أجوراً عالية : ويعتبر أمير البحر في دولة بني أمية بالأندلس « أحد الكبار الأربعة الذين تعتمد عليهم الدولة ، ويقال له « قسيم الخليفة » في السلطان : فهذا يحكم البر وذاك يحكم البحر »(٣)

وبسيادة المسلمين على نحو ثلثي البحر الأبيض وجزائره ، أضحى لهم قواعد بحرية ممتدة من شرقه إلى غربه : في عكا والإسكندرية . وجزيرة كريت وتونس وصقلية وباره Bari وجاريليانو Garigliano وطارنت Tarant بجنوبي

---

(١) توجد ثلاث مدن بهذا الاسم ، إحداها الواقعة بإفريقية قرب تونس الحالية ؛ بينما تقع الثانية والثالثة بالأندلس ، وهما قرطاجنة الجزيرة عند جبل طارق وهي مدينة قديمة مهجورة ، وقرطاجنة الخلفاء في إقليم مرسية . وهي ميناء صالحة للرسو ( انظر الروض المعطار ص ١٥١ — ١٥٢ ، انظر كذلك : مؤنس ص ١٢٣ — ١٢٣ ، كلاينا : مجاهد العامري ص ١٨٥ — ١٨٦ )

(٢) المقدمة ص ٢٨٢

(٣) ارشيبالد لويس ص ٢٤٢

إيطاليا ، وعند ساحل نابلي في جزيرة بونتزا Pontza ، وفي جنوبي فرنسا على ساحل بروفانس في فراكسنتم Fraxinetum ، وكذلك في جزيرة كامرج Camergue وفي مدينة ماجلون Magaelonne غربي نهر الرون، هذا بالإضافة إلى قواعد جزر البليار: ميورقة Majarca ومنورقة Minorca ويابسة (١) gvisa ، وقواعد سواحل إسبانيا .

واقتسم هذه القواعد أربعة أساطيل إسلامية وهي : أسطول سوريا ، وأسطول مصر ؛ وأسطول شمالي أفريقية وصقلية ؛ وأسطول الأندلس ؛ على أن أهم مراكز القوى البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض ما كان في الوسط ؛ وهو شمالي أفريقية وصقلية ؛ زمن الأغالبة والفاطميين من بعدهم (٢) .

ويقابل هذه الأساطيل الإسلامية ؛ أساطيل بيزنطة : فهناك أسطول مركزي إمبراطوري في القسطنطينية ؛ ويقابل هذا أسطول مصر ؛ وأسطول بجنوب آسيا الصغرى وقواعده في جزر بحر إيجة وجزر السيكلاديز والدوديكانيز ويقابله أسطول سوريا ؛ ثم أسطول غربي البحر الأبيض ويقابله أسطول شمالي أفريقية (٣) .

وبانتقال الجزر الهامة في البحر الأبيض إلى أيدي المسلمين . فضلا عن أغلب سواحله ؛ توفر لهم الحصول على المواد الأولية اللازمة لبناء السفن ؛

---

(١) انظر الخريطة

(٢) لوشيباد لويس ص ٢٥١

(٣) لوشيباد لويس ص ١١٣ ــ ١١٤ ؛ ٢٢٩ ؛ ديلر ص ١٨٢ ــ ١٩٠

وقد أمدنا البلاذرى واليعقوبى وياقوت والاصطخرى وابن حوقل والإدريسى والمقرى وغيرهم : بأنواع المواد التى توافرت للمسلمين ؛ نتيجة للسيطرة البحرية ؛ فحصلوا على الخشب والحديد من صقلية وشمالى أفريقية غربى تونس ؛ ومن الأندلس قرب طرطوشه ؛ وكذلك من ساحل الأناضول الجنوبى وجبال قليقيا ؛ وعن طريق التجارة مع البندقية حصلوا على الخشب والحديد اللذين يكثران فى شمالى إيطاليا وإقليم الثيرول وذلك رغم احتجاجات البابوية على المتاجرة مع المسلمين فى المواد الحربية (١)

أما قطع الأسطول الإسلامى نفسه ، فهذه تنوعت فى الحجم والنوع والوظيفة . فمنها .

الشوانى : جمع شينى أو شينيه ، وهى أهم قطع الأسطول الإسلامى وأطولها ، وتجـــدف بـ ١٤٣ مجدافا ، وهى مزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم ، وكذلك بها أهراء لخزن القمح وصهاريج الماء . ويقابلها فى اللغة الفرنسية ( Galaie ) (٢)

الحراريق : جمع حراقة وهى نوع من السفن يستخدم لحمل الأسلحة النارية مثل النار الإغريقية ، وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو ، ووجد فى مصر نوع من الحراقات استخدم فى النيل لحمل الأمراء ورجال

---

(١) ارشيبالد لويس ص ٢٤٩ ــ ٢٥٠ ، المقرى نفح الطيب ج ١ ص ٩٣ ــ ٩٤ ؛ Scott II pp 57 - 61

(٢) مفرج الكروب ج ١ ص ١٣ حاشية ١ ؛ ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ١٨٩ ؛ المقريزى السلوك ج ١ ص ٣٠٦ حاشية ٣ المقريزى خطط ج ٢ ص ١٥٤ ــ ١٩٥ ؛ مؤنس : المسلمون فى البحر الأبيض ص ١٠٩

الدولة فى الاستعراضات البحرية والحفلات الرسمية (١)

البطس : جمع بطسة ، وتشتمل على عدة طبقات وبها أكثر من أربعين شراعا ، وتستخدم فى حمل الأزواد والذخيرة وكذلك الرجال ، ويقال إنها تحمل نحو ١٥٠٠ شخص (٢).

البركوس : مركب صغير (٣).

الغراب : نوع من السفن ، وسمى كذلك لأن مقدمة هيكلها على شكل رأس غراب والجمع أغربة وغرابى (٤).

المسطحات : جمع مسطحة ومسطح ، وهى من كبار السفن (٥).

الطرائد : جمع طريدة لنقل الحبوب (٦) .

الشلنديات : جمع شلندى ، وهى من كبار السفن المسطحة لنقل البضائع (٧) .

---

(١) المقريزى خطط جـ ٢ ص ـ ١٩٤ ١٩٥ ، المقريزى السلوك جـ ١ ص ٣٠٦ حاشية ٣ ابن إياس بدائع الزهور جـ ٤ ص ٥٢ ـ ابن واصل مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٣١ حاشية ١ ؛ ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ١٧٣ . مؤنس: الساطون فى البحر الأبيض ص ١٠٩ ـ ١١٠

(٢) ابن واصل مفرج الكروب جـ ٢ ص ٧٧ حاشية ١ ، مؤنس: المسلمون فى البحر الأبيض ص ١١٠

(٣) المقريزى السلوك جـ ١ ص ٩٩١ حاشية ٢ . ابن واصل مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٣٧ حاشية ٢

(٤) مؤنس : المسلمون فى البحر الأبيض ١١٠

(٥) المقريزى السلوك جـ ١ ص ٣٣٩ ، ابن واصل مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٧٤

(٦) مؤنس : المسلمون فى البحر الأبيض ١١٠

(٧) المرجع السابق

القراقير : جمع قرقورة لنقل المؤن .

الحمالات : جمع حمالة لحمل الذخيرة .

الطرادات : جمع طراد وطرادة وهى مركب صغير أكثر شبها بالبرميل وليس لها سطح ، وتستخدم فى مطاردة العدو لسرعتها ، وكذلك تستعمل فى حمل الخيول والفرسان (١) .

الدرمونة : مركب كبير لنقل الغلال ، وتستخدم فى مصر لنقل الغلال من الأهراء السلطانية وإليها وحمولتها خمسة آلاف إردب ، وهى مشتقة من الكلمة اليونانية ( Drams ) بمعنى السفينة (٢) .

الشبابيك : جمع شبك أو شباك ، وهى سفينة صغيرة لها ثلاثة قلاع (٣) .

الفلايك : جمع فلوكه ، وهى سفينة صغيرة تتحرك بالمجاديف (٤) .

القوارب والزوارق : مراكب من غير شراع لنقل الأشخاص (٥) .

وجهزت الأساطيل الإسلامية بالنار الإغريقية Greek Fire وكان هذا سلاحاً سرياً أخفته بيزنطة إذ يرجح أن الأسطول الإمبراطورى الرئيسى فى القسطنطينية قد احتفظ لنفسه بهذا السلاح السرى الرهيب فى

---

(١) المرجع السابق . المقريزى السلوك ج ١ ص ٥٦ . ابن واصل مفرج الكروب ج ٢ ص ١٢

(٢) خليل الظاهرى زبدة كشف الممالك ص ١٢٢ — ١٢٣ ، بيتز الإمبراطورية البيزنطية ترجمة مؤنس وزميله ص ١٩٠

(٣، ٤، ٥) مؤنس المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١١٠

ذلك الوقت إلا فى الحالات الطارئة ؛ حيث يسمح للوحدات البحرية الأخرى باستخدامه . وكان هذا السلاح هو العامل الحاسم فى انتصار البيزنطيين على الأسطول الإسلامى الذى حاصر القسطنطينية سبع سنوات بقيادة مسلمة بن عبد الملك أخى الخليفة سليمان بن عبد الملك (١) . ويبدو أن هذا السلاح استخدم لأول مرة عند البيزنطيين (عام ٥١٦ م) أى على زمن الإمبراطور أنستاسيوس الأول Anastasius (٢) ثم اكتشف من جديد أو أدخل عليه تحسينات ؛ ولنجاح هذا السلاح فى إنقاذ العاصمة البيزنطية إبان أزماتها المختلفة ، أثره فى زيادة الاعتقادات بكرامات القديسين وعبادة الصور المقدسة (٣) .

وهذا السلاح عبارة عن مواد ملتهبة من بينها ملح البارود ، ومن خصائصه الاشتعال عند ملامسته للهدف ؛ استخدمه المسلمون لأول مرة عند غارات الأغالبة على صقلية عام ٢٢٠ هـ ، ٨٢٥ م ؛ ولعل لخيانة فيمى Euphemius البيزنطى فى صقلية ، وخروجه على الإمبراطور ميخائيل العجوز ( ٨٢٠ — ٨٢٩م ) واستبداده بالحكم فى الجزيرة ، لفترة من الزمن صلة بنقل هذا السلاح إلى المسلمين ؛ وذلك حين لجأ هذا الثائر إليهم بشمالى أفريقية ، وعاد بجيش إسلامى ، ولكن الجيش الإسلامى لم يلبث أن عمل لحسابه لا لحساب هذا المغامر (٤) كذلك استخدم المسلمون هذا السلاح فى الهجوم على سالونيكا عام ٢٩٣ هـ / ٩٠٤ م وبهذا السلاح

---

(١) انظر ابن الأثير ج ٥ ص ١١ Vossilie A. A. History of the Byzantine Empire p. 235 C. Med. H. Vol. IV p. 8.

(٢) حكم من ٤٩١ الى ٥١٨ م

(٣) انظر الحركة اللاإيقونية فى الدولة البيزنطية للمؤلف ص ٣ — ٨

(٤) C. Med. H. Vol. IV. pp. 136-5 ، وانظر ما يلى :

أحرق الفاطميون سفن أعدائهم فى البحر التيرانى Tyrrherian Sea عام ٣٢٥هـ/٩٣٥م. (١)

وبالإضافة إلى هذا السلاح الجديد؛ لم يستغن العرب عن استخدام الخيول؛ عماد حروبهم؛ حتى فى الحروب البحرية؛ فكانوا ينقلون الخيول على سفنهم؛ وينزلونها إلى البر فى غزواتهم المختلفة؛ وقد ساعدتهم هذه الخيول على اقتناص الأسرى والاستيلاء على المغانم.

والملاحظ أن استخدام الخيول على هذا النحو؛ كان مثلا احتذاه الغزاة الشماليون من الفيكنج Vikings؛ بدأ هؤلاء يهبطون على سواحل أوربا الغربية خلال القرن التاسع الميلادى؛ ولما لم يكن لدى الشماليين خيول فى بلادهم الشمالية؛ فإنهم كانوا يجمعونها من السواحل التى ينزلون فيها (٢). كذلك كان ضمن معدات أسطول صقلية؛ الاحتفاظ بأسراب من الحمام؛ للاتصال السريع بين مختلف وحدات الأسطول أو مع القيادة العامة فى البر (٣).

هذه هى القوة البحرية الإسلامية، التى ضمنت السيادة البحرية للمسلمين فترة من الزمن؛ يقول ابن خلدون:

« وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية، قد غلبوا على هذا البحر من

---

(١) أرشيبالد لويس ص ٢٤٢ — ٢٤٣

(٢) Deanesly, OP. Cit., pp. 374-376

(٣) مؤنس: المغرب فى حوض البحر الأبيض ص ١١٢

جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم أو بشيء من جوانبها ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه،مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة واقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والإفرنج... والمسلمون خلال ذلك كله. قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر،وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة، والعساكر الإسلامية تجتاز البحر فى الأساطيل من صقلية إلى البر الكبير — أى إيطاليا — المقابل لها من العدوة الشمالية فتوقع بملوك الأفرنج وتثخن فى ممالكهم . . . وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالى الشرقى منه من سواحل الإفرنجة والصقالبة والجزائر الرومانية، لا يعدونها، وأساطيل المسلمين قد ضريت عليهم ضراء الأسد على فريسته ، وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعدداً واختلفت فى طرقه سلماً وحرباً فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح . . . »(١) .

ورغم هذا التفوق ، فإن وجود ثلاث خلافات إسلامية فى العالم الإسلامى . كان من أكبر عوامل التفكك للوحدة الإسلامية ، ومن ثم تفوقت البحرية البيزنطية على البحرية الإسلامية فى كثير من الأوقات على الرغم من الانتصارات الرائعة التى حققتها البحرية الإسلامية، وبمقارنة البحرية الإسلامية ببحرية الفرنجة . كانت البحرية الإسلامية أقوى منها إذ كانت قوة الفرنجة كامنة فى جيشها البرى ، ومع ذلك كان باستطاعة

---

(١) المقدمة ص ٢٨٢ — ٢٨٣

الفرنجة زمن الكارولنجيين بصفة خاصة أن يحشدوا سفنا فرنجية وإيطالية ويشحنوها بالمقاتلة عند الضرورة . وجهد الفرنجة فى تكوين قوة بحرية لحماية شواطيء بلادهم من المسلمين . فأقام بيبه ومن بعده شارلمان ، القلاع البحرية على سواحل فرنسا الجنوبية ، وكافحوا الغزوات الإسلامية ، إلا أن حماية الفرنجة للمسيحيين المقيمين بجزر البحر الأبيض الغربية ، والقريبة من الشاطيء الفرنسى، كانت عديمة الجدوى ، غير أن كفاح الفرنجة فى حروبهم ضد المسلمين صار مثلا احتذته أوربا فى نضالها ضد الشماليين(١) .

° ° °

الخلاصة: أن الدولة الإسلامية قد تحولت إلى دولة بحرية منذ أواخر القرن السابع الميلادى . ولم يعد البحر الأبيض بحراً رومانياً . أو رومياً بل صار حداً للعالم الرومانى والبيزنطى . كما صارت جزره داخلة فى نطاق آسيا وأفريقية . ولم تعد داخلة فى نطاق أوربا . وهذا فضلا عن أجزاء كبيرة من سواحل البلقان وجنوبى إيطاليا وجنوبى فرنسا ومعظم شبه جزيرة أيبريا(٢) .

بهذا الوضع غدا البحر الأبيض بحيرة إسلامية ، وظل كذلك حتى حوالى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى . فإن قوة الأسطول الإسلامى منذ العهد الأموى فصاعداً ، ثم قوة الأسطول المصرى زمن الفاطميين

---

(١) انظر Danesly, Op. Cit., pp. 874-76

(٢) مؤنس ص ١٣٢

بصفة خاصة ، ونشاط أسطول أبى الحسين مجاهد الدانى العامرى فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) من قواعده فى جزر البليار وسردانية ، كل ذلك أتاح للمسلمين قدراً كبيراً من السيطرة على البحر الأبيض .

والواضح أن سيطرة المسلمين على الجزر ذوات المواقع الهامة ، كانت لأغراض دفاعية ، أو على الأقل انتهت إلى نتيجة ، هى تحقيق أغراض الدفاع فمثلا حمت قبرص ومدينة طرسوس القريبة منها ، شواطىء سوريا ، وكانت كريت تحمى مصر ، كما حمت صقلية شمالى أفريقية ، وكذلك قامت جزر البليار بحماية الأندلس

وبهذه السيطرة تحكم المسلمون فى مداخل البحار المتصلة بالبحر الأبيض فقد سدت جزيرة كريت مدخل بحر إيجة ، كما أغلقت جزيرة صقلية وثغر مونت جارليانو مدخل البحر التيرانى . كذلك سدت جزر البليار وحصن فراكينيتوم خليج ليون Leons[١] .

لذلك يمكن القول إنه منذ أواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) صارت هذه الشواطىء فى مأمن من أى غزو خارجى لأول مرة منذ منتصف القرن السابع الميلادى (١) .

* * *

(١) راجع : أرشيبالد لويس ص ٢٤٨ - ٢٢٤ .

# الفصل الرابع

## النفوذ الإسلامي في جزر البحر المتوسط

جزر حوض البحر الأبيض الشرقي : قبرص ـ رودس - أرواد ـ كريت وبعض جزر بحر ايجه . جزر حوض البحر الأبيض الاوسط :صقلية أكبر جزائر البحر الأبيض ـ أهميتها ـ الحاح المسلمين عليها .

بالرمو عاصمة للاملاك الاسلامية بها ( ٨٣١ ) ـ اتمام فتح الجزيرة ( ٨٧٨ ). جزيرة قوصرة ولواحقها ـ مالطة ولواحقها. جزائر حوض البحر الأبيض الغربي : جزر البليار ـ جزيرتا سردانية وقورسيقة .

موضوع هذا الفصل يقع فى ثلاثة أقسام : القسم الأول : ويشمل جزائر حوض البحر الأبيض الشرقى ، وهى قبرص ورودس وأراود وجزائر بحر إيجه ، ويشمل القسم الثانى جزائر حوض البحر الأبيض الأوسط ، وهى صقيلة وقوصرة ولواحقها ومالطة ولواحقها . أما الحوض الغربى للبحر الأبيض فيشمل جزر البليار وجزيرتى سردانية وقورسيقة ، أما الجزر الصغيرة المتناثرة حول ساحل فرنسا الجنوبى وساحل إيطاليا الغربى ، فكأنها مع فرنسا وإيطاليا .

* * *

وتعتبر جزيرة قبرص أولى جزائر البحر المتوسط التى تطلع إليها المسلمون منذ قامت بحريتهم أواخر القرن السابع الميلادى ، ويعتبر معاوية ابن أبى سفيان ( ت ٦٠ هـ / ٦٨٠ م ) ، أول من غزا فى البحر من المسلمين الأولين ، زمن الخليفة عثمان بن عفان ( ٢٣ - ٣٥ هـ / ٦٤٤ - ٦٥٦ م ) ، وقد وافق عثمان على غزو جزيرة قبرص فى عام ٢٨ هـ / ٦٤٨ م بينما كان عمر بن الخطاب قد رفض من قبل ركوب البحر (١)

وقبرص جزيرة هامة من حيث الموقع لتأمين فتوح المسلمين فى الشام وأفريقية ، ثم إنها محطة بحرية هامة للتجارة والملاحة ، فضلا عن ثروتها .

---

(١) راجع الفصل الثالث

جاءت أول غزوة إسلامية لقبرص عام ٢٨ هـ، وانتزعها المسلمون من السيادة البيزنطية، وصالح معاوية أهلها على جزية يؤدونها سنويا، ومقدارها سبعة آلاف دينار، ويقال إن معاوية لحسن سياسته وفرط دهائه، وافق على أن يؤدى أهل الجزيرة مثل هذه الجزية إلى الروم، وإمبراطورهم المعاصر يومئذ هو قسطانز الثانى (٦٤١ - ٦٦٨ م)، كذلك اشترط معاوية على القبارصة، ألا يقوموا بغزو المسلمين، وعليهم، كما يقول الطبرى «أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم» وشمل العهد الذى أعطاه معاوية لأهل قبرص كذلك، على «أن يبطرق إمام المسلمين عليهم منهم»[1] وعلى ألا يتزوج أهل قبرص فى «عدونا من الروم إلا بإذننا».[2]

على أن السيادة الإسلامية لم تثبت على قبرص، فتكررت غزوات المسلمين لها. من ذلك غزوة معاوية لها فى عام ٣٣ هـ / ٦٥٣ م، فى خمسمائة مركب، ونجحت كما نجحت الغزوة الأولى، وأنزل معاوية بها اثنى عشر ألف مسلم، كلهم أهل ديوان، أى من مستحق العطاء بديوان الجيش، كما ابتنى فيها المساجد، وهجر إليها جماعة من بعلبك، واشترك أهل مصر فى هذه الغزوة بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى سرح، إذ كان إليه أمر البحر[3] ولم تنقطع غزوات المسلمين لهذه الجزيرة خلال العهد الأموى والعباسى.

---

(١) الطبرى تاريخ الرسل والملوك جـ ٥ ص ٥١ ـ ٥٣

(٢) الطبرى تاريخ الرسل والملوك جـ ٥ ص ٥٤

(٣) البلاذرى ق ١ ص ١٨١ — ١٨٣ : ابن الأثير جـ ٣ ص ٣٩ ـ ٤٠ : رحلات الفتوحات الإسلامية ص ١٥١ ـ ١٥٢

فخرجت غزوات : ١٣٠ هـ / ٧٤٧م ، ١٥٨ هـ / ٧٧٥م، ١٧٤هـ، ٧٩٠ م ، ١٩٠ هـ /٨٠٦ م وهكذا .

ولم تكن معاملة المسلمين لأهل قبرص إلا بناء عن مشورة الفقهاء والأئمة ، بدليل ماحدث خلال العصر العباسي زمن الخليفة أبي جعفر المنصور عندما ثار القبارصة ونقضوا شروط الصلح القديم ، فاستشير في أمرهم كبار الأئمة في ذلك الوقت ، منهم مالك بن أنس والليث بن سعد ، وسفيان بن عيينة وموسى بن أعين وإسماعيل بن عباس ويحيى بن حمزة وإسحاق الفزاري وغيرهم(١) ، وعلق بعض الصحابة على موقف القبارصة بقوله « ما وفى لنا أهل قبرص قط » (٢)

ورغم حرص المسلمين على المحافظة على العهد الذى أعطوه لأهل قبرص ، فإن قبضة المسلمين على الجزيرة لم تثبت ، ومن ثم تداولت السيادة عليها بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية ، حتى استولى عليها ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا وهو في طريقه إلى الشام خلال الحملة الصليبية الثالثة عام ١١٩٦ م . وكانت في ذلك الوقت خاضعة لأمير بيزنطي استقل بها عن بيزنطة، ثم آل أمر الجزيرة إلى الفارس الفرنسي جي لوزينان Guy de Lusignan ملك بيت المقدس الصليبية ، وقامت أسرة لوزينان الصليبية في قبرص حتى استولى عليها السلطان برسباي سلطان الجراكسة في مصر بعد ثلاث

---

(١) البلاذري ص ١٨٣ — ١٨٦

(٢) البلاذري ص ١٨٦

حملات (١٤٢٤ . ١٤٢٥ م ١٤٢٦م) ، وأسر ملكها جانوس ، وظلت قبرص خاضعة لمصر ، وتدفع لها الجزية حتى نهاية عصر المماليك(١) .

أما جزيرة رودس ، فتعد من أخصب جزر البحر الأبيض الشرقى وقد بدأ غزو المسلمين لها فى عام ٢٨هـ / ٦٤٨م ، وفى الحملة التى شنها المسلمون عليها عام ٣٢هـ /٦٥٢م ، غنم المسلمون منها كثيراً . ومن بين مغانمهم أنقاض نحاسية لإله الشمس هليوس ، كان عند ميناء رودس ، وسقط بفعل الزلازل(٢) .

وفى عام ٥٣هـ / ٦٧٣ م أرسل الخليفة معاوية بن أبى سفيان حملة بقيادة جنادة بن أبى أمية الأزدى ، ففتحها عنوة ، وأنزلها قوما من المسلمين ، استقروا بها نحو سبع سنوات ، استثمروا خلالها أرضها الخصبة فزرعوها واتخذوا أموالا ومواشى يرعونها حولها . فإذا أمسوا أدخلوها الحصن ، ولهم ناطور (٣) يحذرهم مافى البحر ممن يريدهم بكيد ، فكانوا على حذر منهم ، وكانوا أشد شيء على الروم ، فيعترضونهم فى البحر . فيقطعون سفنهم ، وكان معاوية يدير لهم الأرزاق والعطاء ، وكان العدو قد خافهم(٤) .

---

(١) مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة (المؤلف) ص ٩٥ ــ ٩٧ ، ١٠٢ــ١٠٥ ، عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ١٠ ــ ٢٠

(٢) أرشيبالد لويس ص ١٩١ ، ١١٦ ، انظر الفصل الثانى من كتاب «دراسات إسلامية » لطائفة من المستشرقين الأمريكيين ( ترجم إلى العربية بإشراف دكتور نقولا زيادة) ص ٢٥ ــ ٨٤ .

(٣) الناطور اصطلاح أطلق على متولى الحراسة ، واشتهر فى عصر سلاطين المماليك فى مصر على من يقوم بحراسة الملابس فى الحمامات .

(٤) الطبرى ج ٦ ص ١٦١ ، ابن الأثير ج ٣ ص ٢١١

غير أن يزيد بن معاوية ( ٦٠ – ٦٣ هـ / ٦٨٠ – ٦٨٣ م ) ، سمح للمسلمين المقيمين برودس ، بالعودة خوفاً عليهم من خطر الروادسة والإمبراطورية البيزنطية(١) ، ولكن غزوات المسلمين لم تنقطع عنها ، وتداولت السيادة عليها الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية ، من ذلك أن مسلمة بن عبد الملك استولى عليها وهو فى طريقه لحصار القسطنطينية عام ٧١٧ م ، وهو الحصار الذى انجلى عن قيام الأسرة الأيسورية فى العرش البيزنطى(٢) ، وبعد فشل الحصار ، أفلتت الجزيرة من يد المسلمين ، وفى مطلع القرن التاسع الميلادى ، حاول هرون الرشيد فتحها ، ولكنه لم يتمكن ، فظلت تابعة لبيزنطة(٣) ، حتى استولى عليها فرسان الاسبتارية الصليبيون Hospitalers ١٣٠٨ م(٤) ، وخلال سيادة الفرسان عليها ، جاءت محاولة السلاطين المماليك فى مصر زمن السلطان جقمق ( ٨٤٢ – ٨٥٧ هـ : ١٤٣٨ – ١٤٥٣ م ) ، ولكنهم لم ينجحوا فى الاستيلاء عليها(٥) ومن ثم ظلت رودس خاضعة للاسبتارية حتى انتزعها العثمانيون عام ١٥٢٢ م .

---

(١) البلاذرى ق ١ ص ٢٧٨

(٢) زيادة : المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس ص ١٩٥ ؛ الطبرى جـ ٦ ص ١٦١ ، ١٧٦ ، ابن الأثير جـ ٣ ص ٢١١ ، جـ ٤ ص ٢ ، Vasiliev A. A. Byzantin & Islam ( Byzantin ) pp. 300 - 320

(٣) زيادة ص ١٩٥

(٤) مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٩٧ – ٩٨ ؛ Runciman, A History of the Crusades, Vol. III, pp. 432, 434 - 5

(٥) زيادة ص ١٩٦ – ٢٠٢ ، الجراكسة ص ١٠٥ ومابعدها ، السيوطى : غزوات قبرص ورودس ص ١٤ – ١٥ ، النجوم الزاهرة ص ٦٢ – ٦٤ ، Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle Ages pp. 338 - 339

وهناك جزيرة صغيرة قرب القسطنطينية تعرف باسم جزيرة أرواد Aratus » فتحها المسلمون بقيادة جنادة بن أبي أمية عام ٥٤ هـ / ٦٧٤ م ، واشترك معه في الفتح مجاهد المقرى ، ولكن المسلمين لم يلبثوا أن جلوا عنها عندما عادوا من رودس(١) .

وبمثل الانتصارات التي اقترنت بالفتوح الإسلامية ، افتتح المسلمون جزيرة قريطش ( كريت ) عام ٥٥ هـ / ٦٧٣ م ، وذلك بقيادة جناده بن أبي أمية ، وتكرر الغزو زمن الوليد بن عبد الملك ، وفي عهد هرون الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ / ٧٨٦ — ٨٠٩ م) تم فتح جزء كبير من الجزيرة بقيادة حميد بن معيوف الهمدانى(٢) .

ولكن كريت لم تخضع كلها للسيادة الإسلامية إلا في مطلع القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى ، وذلك على يد الربضيين الذين ثاروا بالأندلس عام ١٨٩ هـ ، ٢٠٢ هـ ، زمن الحكم بن هشام الأموى ( ١٨٠ — ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ — ٨٢٢ م ) ، فقد خرج أولئك الثائرون مهاجرين من الأندلس بقيادة أبي حفص عمر بن عيسى بن شعيب البلوطى(٣) ، وهو الذى اشتهر فيما بعد باسم الأقريطشى ، وبلغ عدد هؤلاء المهاجرين نحو خمسة عشر ألف رجل ، غير النساء والأطفال(٤) ،وصلوا إلى الاسكندرية

---

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٢١٢ ، الطبرى ج ٦ ص ١٦٤ ، البلاذرى ص ٢٧٩

(٢) البلاذرى ص ٢٧٩

(٣) البلوطى نسبة إلى فحص البلوط قرب قرطبة ، وهذا المكان هو المعروف حاليا باسم Los Pedroches ، والنسبة إلى هذه الضاحية بلوطى ( انظر الروض المعطار ص ١٤٠-١٤٣)

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٥٧-١٥٨ ؛ مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١٣٧ ؛ Dozy, Op. Cit, t.I., P. 500. T. II, pp. 63-76

واستولوا عليها فترة من الزمن ، وكانت مصر وقتذاك مضطربة بسبب الفتنة بين الأمين والمأمون ، فلما استوى الأمر للمأمون ، أرسل عبدالله ابن طاهر واليا على مصر ، فحاصرهم وسهل لهم أمر الرحيل ، وأمدهم بالأموال ثم سيرهم إلى جزيرة كريت(١) .

استولى أبو حفص على أحد حصون الجزيرة عام ٢١٠هـ / ٨٢٥م ، ولم يزل يفتح الحصون والبلاد ، حتى لم يبق بها من الروم أحد(٢) ، ثم وفد على الجزيرة نفر آخر من الأندلسيين وانضموا إلى إخوانهم ، ومن ثم أصبحت جزيرة كريت قاعدة للعمليات الحربية الإسلامية فى بحر إيجه وشواطئه . وقد روع أبو حفص شواطىء بيزنطة، وأشارت إليه المراجع البيزنطية باسم Apocapso ، وتكررت الغزوات من الجانبين الإسلامى والبيزنطى .

اتخذ المسلمون فى كريت قاعدة لهم عند موضع بلد قديم على خليج لادا Lada قرب رأس خراكس Charax ، وحفر حوله خندق، ثم عرف هذا المكان كله بالخندق ، وفيه نشأت المدينة المعروفة باسم كانديا Candia وهى تحريف لكلمة الخندق(٣).وفى جزيرة كريت أقام المسلمون دولة أو إمارة إسلامية عرفت باسم الدولة الكلبية،عمرت أكثر من قرن (٨٢٧—٩٦١م)

---

(١) العبادى ص ٩٣ـ٩٥ ، البيان المغرب جـ ٢ ص ١٠٦ . ١١٣ ـ ١١٤ ، ابن الخطيب ص ١٥ ـ ١٦ ، نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٩ ، ابن الأثير جـ ٦ ص ١١٠ـ١١١

(٢) البلاذرى ص ٢٧٩

(٣) مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١٣٧ـ ١٣٨

وأمراء هذه الدولة هم : أبو حفص عمر مؤسسها ( ت ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م ) وابنه من بعده وهو شعيب بن عمر ، ثم حفيده عبد العزيز بن شعيب بن عمر المعروف بالغليظ، وتوفى هذا الأمير بالقسطنطينية، وخضع ابنه انيماس Anemas فى خدمة البيزنطيين ( ٣٤٩ — ٣٥٠ هـ / ٩٦٠ — ٩٦١ م )(١) أى زمن الأسرة المقدونية الحاكمة فى بيزنطة .

وخلال إقامة المسلمين فى أقريطش ، لم تنقطع الحروب بينهم وبين بيزنطة ، ورد المسلمون على هجمات بيزنطة ، بغزو ساحل تراقيا وجزر السيكلاديز Cyclades فى بحر إيجه، ودمروا أسطولا بيزنطيا عام ٢٢٦ هـ / ٨٣٩م) قرب جزيرة تاسوس Thasos ولما كان مسلمو كريت على تحالف وثيق مع مصر الإسلامية ، فقد هاجمت بيزنطه دمياط عام ٢٣٩ هـ ، ٨٥٣ م .

وذلك زمن ولاية عنبسة بن إسحاق على مصر (٢) من قبل الخليفة المتوكل العباسى. ونهبوها وسبوا وخربوا ، ثم عادوا مسرعين ، وتكررت غارة الروم عام ٢٤٥ هـ ٨٥٩ م فى ولاية يزيد بن عبد الله (٢٤٢—٢٥٣ هـ / ٨٥٦ — ٨٦٧م ) (٣) .

واتخذ المسلمون قواعد لهم فى جزر بحر إيجه مثل جزيرة نيون قرب شبه جزيرة خالسيدس Chalcidice ، وتحكموا فى كثير من هذه الجزر مثل ناكوس Nakos وباتموس Batmos وباروس Baros وإيجينا Aegina

---

(١) زامباور ج ١ ص ١٠٩

(٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٩٢ ، ٢٩٤—٢٩٥

(٣) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣٠٨—٣٠٩

وساموس Samos ، وربما كانت لهم قاعدة فى أثينا نفسها ، ووصلت سفنهم إلى بحر مرمرة عام ٢٨٩ هـ/٩٠١م ، وفى عام ٢٩٢هـ/٩٠٤ م هاجم المسلمون سالونيكا وأسروا نحو ٢٢ ألفاً من أهلها ، وفشل أسطول الإمبراطور ليو السادس الملقب بالرشيد (٨٨٦–٩١٢م) الذى أرسله إلى جزيرة أقريطش عام ٢٩٨ هـ / ٩١٠ م ، وعلى ذلك ظلت مدينة أخندق مركز تهديد للنفوذ البيزنطى فى بحر إيجه ، وفى زمن الإمبراطور رومانوس ليكابنوس R. Lecapenos فشل أسطول بيزنطى آخر أرسله عام ٣٣٨هـ/٩٤٩م(١) .

ومن حيث جزائر حوض البحر الأبيض الأوسط فأهمها : صقليه (صقلية) Sicilia ، وهى فى الواقع أكبر جزائر البحر الأبيض ، وتشتهر بخصوصيتها ، فضلا عن حسن موقعها ، لصلتها بأفريقيا الشمالية من ناحية وإيطاليا الجنوبية من ناحية أخرى ، ولهذا الموقع أهميته الكبرى من الناحية التجارية والحضارية ؛ فقد سهل الاتصال بالشعوب ذوات الحضارة على شواطئ ذلك البحر منذ القدم ، بل إن صقلية والجزء الجنوبى من إيطاليا ، كانا يعرفان معاً فى العصر الكلاسيكى باسم «بلاد الإغريق العظمى Magna Gracia » ، وذلك خلال القرن الرابع قبل الميلاد ، بسبب سيادة الحضارة الهلينية بهما (٢) ، وكان الفينيقيون قديماً قد امتلكوها قبل الإغريق .

وفى العصر المسيحى ، كانت جزيرة صقلية من المعاقل التى اعتمدت

---

(١) أرشيبالد لويس ص ٢١٤ ، ٢٣٤ ، C. Med. Hist., Vol. IV, pp. 141-2

(٢) Bury, History of Greece pp. 675-80 379 80

عليها البابوية ، وفى فجر الفتوح الإسلامية ، كانت السيادة البيزنطية على صقلية ، قد تدهورت نتيجة للغزوات اللومباردية التى اجتاحت إيطاليا خلال النصف الثانى من القرن السادس الميلادى ، عقب الجهود المضنية التى بذلها الإمبراطور جستنيان (ت ٥٦٥م)(١) .

بدأ الغزو الإسلامى لجزيرة صقلية عام ٣٦هـ/٦٥٦م ، حين خرجت حملة مكونة من مائتى سفينة ، من شواطىء سوريا ، وهذه أول حملة إسلامية ، وتقول الرواية العربية إن أول من غزاها عبدالله بن قيس الفزارى من قبل معاوية بن حديج الكندى والى مصر وأفريقيا ، فأصاب أصناماً من ذهب وفضة ، مطلية بالجواهر ، ولما بعث بها إلى معاوية بن أبى سفيان والى الشام يومئذ ، وجهها إلى البصرة لتحمل إلى الهند لتباع هناك ، لأنه رأى بيعها وهى قائمة أكثر لثمنها ، ولم يبال معاوية بانتقاد المسلمين ، وأخرج الخمس من الغنائم وبعث به إلى الخليفة عثمان بن عفان ، وكتب له بسلامة المسلمين من هذه الغزوة (٢) .

استمر الغزو الإسلامى لجزيرة صقلية ، وكان مسلمو أفريقيا ، هم الذين تولوا أمر الغزو بحكم موقعهم الجغرافى ، وأكثر هؤلاء الغزاة من البربر الذين تعربوا ، لما كان من قلة العرب فى ذلك الدور ، والبربر أشد الشعوب التى اعتنقت الإسلام ، بأساً (٣).

---

(١) فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (ق١ ترجمة زيادة والباز ) ص ٥٠-٥٢ ، وفى النسخة الإنجليزية ؛ Scott Vol II ( Book I pp 101 102
p p 1-S Waern C Medieval Siciby PP · 7 -10

(٢) البيان المغرب ج ١ ص ١٢ ؛ البلاذرى ص ٢٧٨ ، كرد على : الإسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٢٧٣ ، Encycl Britt Scott II p. g

(٣) أرشيبالد لويس ص ٩١ ، لوبون حضارة العرب ( ترجمة عادل زعيتر ) ص ٣٠٢

فغزاها عباس بن أخيل من رجال موسى بن نصير ومحمد بن يزيد الأنصارى والى أفريقية (٩٧-٩٩هـ/٧١٥-٧١٧م)(١). وبعد عام ١٣٠هـ/٧٤٧م قام عبد الرحمن بن حبيب الفهرى والى أفريقية زمن المنصور وغزا صقلية عام ١٣٥هـ/٧٥٢م، وتكرر الغزو عام ١٤٦هـ/٧٦٣م(٢).

على أن الأغالبة، حكام أفريقية، هم الذين قاموا بالنصيب الأكبر فى فتح الجزيرة، وأكملوا فتحها، وجد الأغالبة الأغلب بن سالم التميمى ثم السعدى، ولاه الخليفة أبو جعفر المنصور على المغرب عام ١٤٨هـ/٧٦٥م، وهو من ذوى الشجاعة والرأى، ومن أصحاب أبى مسلم الخراسانى، دخل الأغلب بلاد المغرب مع محمد بن الأشعث الخزاعى الذى ولاه المنصور مصر(٣) وعهد إليه بإخماد البربر بالمغرب فدخل المغرب سنة ١٤٤هـ/ ٧٦١م وأخمد الفتن واستقر بالقيروان وشرع فى بناء أسوارها. وكان معه الأغلب، فعينه ابن الأشعث على طبنه والزاب وعاد ابن الأشعث عام ١٤٨هـ إلى المشرق فرأى المنصور أن الأغلب خير قائد يوليه المغرب فولاه فى ذلك العام والياً على المغرب وهو جد الأغالبة ملوك أفريقية من بعده وظل حتى قتل فى سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م خلال إخماد الفتن الداخلية بالمغرب.

---

(١) البيان ج ١ ص ٤٤ ـ ٤٥

(٢) البيان ج ١ ص ٦٥ ـ ٧٧

(٣) ولى محمد بن الأشعث بن عقبة بن أهبان الخزاعى، مصر أواخر عام ١٤١ هـ / ٧٥٩م، وعزل عن مصر أوائل سنة ١٤٣ هـ / ٧٦٠م (النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٤٦ ـ ٣٤٨)

والمؤسس الحقيق لدولة الأغالبة فى أفريقية هو إبراهيم بن أبى العرب الأغلبى الذى ولاه الرشيد عام ١٨٤هـ/ ٨٠٠م(١) .

عقد إبراهيم الأغلبى (١٨٤ – ١٩٧هـ/٨٠٠ – ٨١٢م) هدنة ومعاهدة مع حاكم صقلية البيزنطى وهو البطريق قنسطنطين لمدة عشر سنوات ، ولكن هذه المعاهدة . لم يطل أمرها بسبب اندفاع المسلمين وحماستهم للغزو والفتح ، فحدث فى عام ١٩٧هـ/٨١٢م أن هاجم المسلمون بعض الجزر التابعة لصقلية فأرسل الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الأول (٨١١ – ٨١٣م) أسطولا بحرياً بقيادة جريجورى، وساعدته المدن الإيطالية مثل جايتا Gaeta وأمالفى Amalfi ،

(١) اشترط إبراهيم الأغلبى على الرشيد أن يكون مستقلا فى شئونه الداخلية وأن تتولى ذريته من بعده إمارة أفريقية بالوراثة ، وألا يدفع الإعانة التى كانت تدفعها أفريقية إلى مصر ، وقدرها مائة ألف دينار ، وأن يقوم إبراهيم الأغلبى بدفع ٤٠ ألف دينار سنويا للخليفة ، ووافق الرشيد بعد استشارة أولى الرأى ، ومنهم هرثمة بن أعين ؛ وكان أهل أفريقية قد طلبوا من الرشيد الموافقة على ولاية إبراهيم الأغلبى .

ويعتبر إبراهيم الأغلبى أول من جعل إمارة أفريقية وراثية فى العهد الإسلامى ، وخلفه أولاده الثلاثة من بعده: وهم أبو العباس عبد الله ثم أبو محمد زيادة الله ثم أبو عقال الأغلب السعدى ، وأهمهم ابنه: زيادة الله وهو معاصر للخليفة عبد الله المأمون ، وزيادة الله هو الذى استقضاه أفريقية إلى أسد بن الفرات صاحب مالك بن أنس ، وهو صاحب الأسدية فى الفقه على مذهب مالك ، وأسد هذا هو الذى قاد حملة لغزو صقلية عام ٢١٢هـ/ ٨٢٧ م . وانتهت دولة الأغالبة فى أفريقية عام ٢٩٦ هـ/٩٠٩م، وذلك عندما دخل أبو عبد الله الشيعى ودعا للفاطميين ، واستولى على أفريقية ، وقد حكمت دولة الأغالبة أفريقية ١١١ سنة ، تولى الحكم خلالها أحد عشر أميرا أولهم إبراهيم بن الأغلب — باستثناء من سبقه — وآخرهم زيادة الله الثالث وكنيته أبو مضر .

( الاستقصا ص ٨٤ ، ١١٤ – ١١٦ ، ١٢٢ ، ١٦٥ – ١٦٧ ، البيان ج ١ ص ١١٦ – ١٦٦ ، ابن الأثير ج ٦ ص ٥٦ ، ١٢١ ، ١٢٣ ؛ الزاوى ص ١٤٢ – ١٤٣ ، زامباور ج ١ ص ١٠٥ – ١٠٦ ، Brockelmann P. 150

غير أن المسلمين استطاعوا أن يستولوا على بعض سفن الأسطول قرب جزيرة لنبدوشه Lampedusa(١)، وقتلوا بحارتها، فعاود البيزنطيون الكرة وانتصروا على المسلمين، مما أدى إلى تجديد الهدنة لمدة عشر سنوات أخرى من عام ٨١٣م، ومع ذلك لم تطل هذه الهدنة كسابقتها(٢).

فقد حدث فى عام ٢٠٤هـ/٨١٩م، أن أرسل زيادة الله الأغلبي ثالث حكام الأغالبة فى أفريقية، (٢٠١—٢٢٣هـ/٨١٧—٨٣٨م) أسطولا لغزو صقلية، بقيادة ابن عمه(٣).

وفى سنة ٨٢٥م، قام مغامر فى صقلية اسمه يوفيوس Euphemius، وتكتبه المراجع العربية فيمى، وخرج على جريجورى Greogaras حاكم صقلية البيزنطى، وفيمى هذا كان أمير البحر فى الأسطول البيزنطى المرابط فى صقلية، علم أن الإمبراطور ميخائيل الثانى العمورى (٨٢٠ — ٨٢٩م) قد أمر بالقبض عليه وقتله، فثار على حاكم صقلية وقتله ونصب نفسه حاكما على الجزيرة عام ٨٢٥م، وفى العام التالى جاءت قوة بيزنطية بقيادة قسطنطين للقضاء على الثائر. غير أن فيمى تمكن من القضاء على هذه القوة فى قطانيا Catania وقتل قسطنطين، وجاءت قوة أخرى بقيادة أرمينى، سماه العرب بلاطه Balatah، فانتصر وهرب فيمى لاجئاً عند المسلمين فى أفريقية، طالباً مساعدتهم(٤).

---

(١) انظر ما يلى

(٢) Camb. Med. Hist. Vol. IV P. 134. Deanesly P. 375

(٣) Brockelmann P. 176. C. Med. H. Op. Cit. P134

(٤) ابن الأثير ج ٦ ص ٣٢٣—٣٢٤ ؛ C. Med. H. Vol. IV Scott H. PP-10 11. PP. 134-5

أرسل زيادة الله بن الأغلب حملة من أفريقية بقيادة أسد بن الفرات ونزلت هذه الحملة فى مدينة مازر Mazzara فى ١٥ يونية ٨٢٧ م / ٢١٢ هـ وهزمت بلاطه الذى هرب إلى مدينة إنا Enna التى عرفت كذلك باسم مدينة قصريانه Castrogiavanni ومنها هرب إلى قلورية Calabria فى جنوبى إيطاليا حيث قتل بعد قليل . واستولى المسلمون على بعض الحصون . فطالب الصقليون بالأمان ودفع الجزية . ولكنهم تربصوا بالمسلمين الدوائر واستعدوا للوثوب عليهم . على أن أسد بن الفرات استمر فى فتوحه . وحاصر سرقوسه Syracuse وجاءته إمدادات من أفريقية وأسبانيا وهزم حامية بالرمو عام ٢١٣هـ/٨٢٨م، وقاسى العرب الكثير من الجوع والطواعين حتى أن ابن الفرات نفسه مات فى يوليو ٨٢٨م [١].

خلفه فى القيادة محمد بن أبى الجوارى ، وجاء أسطول بيزنطى بقيادة ثيودوتس Theodotus الذى عينه الإمبراطور بطريقاً على الجزيرة ، فتقهقر العرب نحو الشمال ورفعوا الحصار عن بالرمو ، لكنهم استولوا فى طريقهم على مدينة مينو مناو Mineo وحصن مدينة جرجنت Gregenti وحاصروا قصريانة مرة أخرى . وخلال هذه العمليات كان فيمى يساعد المسلمين ، غير أن مواطناً من قصريانة قام له وحياه باعتباره إمبراطوراً ثم اغتاله ، وفشل ثيودوتس فى مهمته ، فقد هزمه المسلمون كما هزموا أسطولا بندقياً جاء لمساعدة البيزنطيين(٢).

وبعد وفاة القائد الإسلامى محمد ، خلفه فى منصبه زهير بن غوث ،

---

(١) C. Med. H., Vol. IV P. 135 : Scotts II, G. ق

(٢) ابن الأثير جـ ٦ ص ١٢٠ ; C. Med. H. Vol. IV P. 135

وفى تلك الفترة ، رجحت كفة المسيحيين ، ولكن بوصول إمداد إسلامية من أسبانيا بقيادة الأصبغ ، انتصر المسلمون على ثيودوتس وقتلوه ، ومات الأصبغ فى طاعون انتشر فى ذلك الوقت ، وكان الإمبراطور البيزنطى المعاصر هو ثيوفلس ( ٨٢٩ — ٨٤٢ م )[١] .

نجحت القوات الإسلامية بقيادة محمد بن عبد الله فى عام ٨٣١ م فى الاستيلاء على مدينة بالرمو ، عاصمة الجزيرة ، وساعدهم على ذلك انشغال ثيوفلس فى حروبه الشرقية ، واستسلمت بالرمو بشرط أن يترك قائد حاميتها وأسرته ، وتم ذلك فى سبتمبر من عام ٨٣١ م وصارت بالرمو عاصمة المسلمين[٢] .

غير أن الخلافات التى وقعت بين المسلمين الأسبان والمسلمين الأفريقيين قد أخرت إتمام فتح الجزيرة ، ورغم ذلك ، فلم تقف عمليات الغزو ، فغزا المسلمون سرقوسة ٨٣٥ م ، ولما جاء محمد أخو ابن الأغلب فى ذلك العام ، ليتولى حكم الجزيرة ، وليكمل فتحها ، اتخذ من بالرمو مركزاً لتوسعه ، واستولى على بعض السفن البيزنطية ، كما استولت قواته على سفينة بيزنطية قرب جزيرة قوصره[٣] . وتكرر الغزو ، وتأرجح النصر والهزيمة بين الجانبين .

وفى عام ٢٢٥ هـ (٨٣٩م) أرسل أبو الأغلب ، حاكم أفريقية (٨٣٨—

---

(١) ابن الأثير جـ ٦ ص ١٢٥ ؛ C. Med. op. cit. p. 136

(٢) Waern op. Cit. pp. 11-13 . Brockel. p. 150 . Scott. II p. 21

(٣) أنظر مايلى :

٨٥١ م ) أمداداً جديدة ، أجبرت بعض المدن والحصون على دفع الجزية ، وهي: حصن البلوط Caltabellotta وأبلاطنبو Platani وقرلون Corleone وسوترا Sutera ، فاضطر الإمبراطور ثيوفاس إلى طلب المساعدة من الفرنجة ومن مسلمي الأندلس . وأمده البنادقة بأسطول دمره الأسطول الإسلامي في مياه طارانت Tarantum جنوبي إيطاليا . ويمكن القول إنه في عام ٨٤٠م كان المسلمون قد استولوا على نحو ثلث الجزيرة تقريباً(١) .

وفي الفترة ما بين ٨٤١ ، ٨٤٥م استولى المسلمون على كالتا جيروني Caltagirone ومسينا وموديكا Modica وبعض الحصون الجنوبية ، وكان أهالي نابلي يساعدون المسلمين ، بسبب الصراع بينهم وبين جيرانهم أدواق بنفنتم Beneventum(٢) .

وخلال الفترة من ٨٤٥ إلى ٨٥١م استولى المسلمون على ليونتيني Leontini ( ٨٤٧م ) وراجوزه Ragusa ( ٨٤٨م ) ، بفضل شجاعة القائد الإسلامي الفضل بن جعفر(٣) .

ويعتبر عباس بن الفضل بن جعفر ( ٨٥١ — ٨٦١م ) الفاتح الحقيق لجزيرة صقلية ، فقد خلف أباه في قيادة القوات الإسلامية بها ، كما خلف أبا الأغلب في حكم الجزيرة بعد وفاته . وذلك بانتخاب القادة المسلمين بالجزيرة لكفايته ، وهذا هو الاستثناء الوحيد في حكام صقلية . إذ كان

(١) Scott II p. 25 C. Med. II. p. 136 Brock. Op. Cit. p. 156

(٢) C. Med. II. p. 136

(٣) Ibid. p. 137

الأغالبة يخشون استقلال أحد الحكام بها ، مما جعلهم يحرصون على أن يكون الحاكم من أسرتهم . ووافق الأمير محمد الأغلبي فى أفريقية على ما تم بصقلية .

أرسل عباس بن الفضل القوات الإسلامية إلى مختلف جهات صقلية ، وكان يقود أغلبها ، فاستأنف الهجوم على إنا Enna عام ٨٥٢ م واتجه إلى الساحل الشرقى ٨٥٣ م وغزا قطانيا Catania ونوتو Noto وراجوزه Ragusa التى كان البيزنطيون قد استردوها من المسلمين لفترة ، وحاصر بوتيرا Butera لمدة خمسة شهور حتى سلمت ، وفى عام ٨٥٦ م استولى على خمسة حصون . وهاجم فى العام التالى تورمينا Taormina وسرقوسة . كما سلمت له مدينة كِفالو Cefalù فدمرها . وأخيراً استسلمت مدينة إنا ( قصريانه ) فى ٢٦ يناير ٨٥٩ م . واستولى على قلعتها التى ظلت تقاوم ثلاثين سنة . وأعدم حاميتها . وابتنى فيها مسجداً[١] .

وفشلت جهود بدراس Hadras الوصى على العرش البيزنطى زمن الامبراطور ميخائيل الثالث السكير ( ٨٤٢ — ٨٦٧ م ) آخر سلالة الأسرة العمورية[٢] . فقد قضى عباس على الأسطول الضخم الذى أرسله بدراس عند سرقوسة . كذلك أخضع عباس ثورات المدن الخاضعة للمسلمين . والتى كانت تمدها بيزنطة بالمساعدات[٣] .

---

(١) C. Med. H. p. 137

(٢) راجع قصة السفير الإسلامى يحيى الغزال وزيارة الإمبراطورة لدهى وابنها ميخائيل ، وأصل تسميته بالسكير ؟ ( فى الملاحق )

(٣) C. Med. H. p. 138

وتوفى عباس فى ١٥ أغسطس ٨٦١ م . وهو فى طريق عودته من إحدى غزواته لسرقوسة . ووقع خلاف بين المسلمين . وانتهز البيزنطيون الفرصة . فانتقموا بإخراج جثة عباس من قبره وأحرقوها .

تلا ذلك سقوط سرقوسة فى يد المسلمين فى ٢١ مارس ٨٧٨ م . بعد حصار دام تسعة شهور . وكان سقوطها كارثة كبرى لبيزنطة وسياستها الحربية . كما جاء نقطة تحول فى تاريخ العلاقات الخارجية للإمبراطور بازل المقدونى (٨٦٧ — ٨٨٦ م) مؤسس الأسرة المقدونية . إذ أثبت فشل هذه السياسة . وفشل الجهود الجبارة التى بذلها خلال السنوات الأربع الأولى من حكمه . لإعادة النفوذ البيزنطى على ساحل البحر الأدوزياتى (١) .

وسقطت مدينة تاورامينا Taorminium فى أول أغسطس ٩٠٢ م ، بفضل شجاعة إبراهيم الأغلبى ، وهذه المدينة آخر معقل بيزنطى فى صقلية وبسقوطها أصبحت صقلية كلها تقريبا خاضعة للسيادة الإسلامية . حقيقة هناك بعض البلاد الصغيرة ، قليلة الأهمية التى لم تزل خاضعة لبيزنطة ، غير أن المسلمين لم يعيروها اهتماما كبيرا ، ومن هذه البلاد : دنونا Denona ورمتا Rametta فى شرقى الجزيرة ، وحتى الأخيرة هذه ، سقطت فى يد المسلمين عام ٩٦٥ م ، ودمر المسلمون القوة البيزنطية التى وصلت بقيادة مانويل لمساعدتها (٢) .

(١) C. Med. H. p. 139 ; Brockel p. 157

(٢) C. Med. H. pp. 141-147


أسبانية الإسلامية
المغرب الأوسط
ليون
جليقية
المشكنش
الجزائر الشرقية

ورغم سيادة المسلمين على جميع أنحاء الجزيرة تقريبا فى مطلع القرن العاشر الميلادى إلا أن الانقسامات التى وقعت بين القبائل العربية المختلفة المشتركة فى الفتح ، فضلا عما وقع بين العرب والبربر ، مثلما كان الحال فى أسبانيا الإسلامية ، بسبب التنافس والعصبية القبلية ، حملت إبراهيم الثانى الأغلبى على القدوم بنفسه إلى صقلية لتهدئة الأحوال وتدعيم السيادة الإسلامية ، ولكن موته الفجائى فى عام ٩٠٦م أدى إلى بعث الانقسامات وإثارة الأحقاد من جديد ، وكان ذلك مدعاة للضعف العربى الإسلامى فى صقلية ، وتلك هى الآفة الكامنة الدائمة التى أفقدت السيادة صفة الدوام والبقاء إلى أجل أطول فى جميع البلاد التى فتحوها . ومن نتائج هذه الآصرة المباشرة اضطرار مسلمى صقلية إلى قبول معاهدة من بيزنطة تنازلوا فيها عن مدينة تاورومنيوم ، ومع ذلك استعادها العرب فى عام ٩٦٥ م(١) .

وبعد سنتين من تاريخ استعادة العرب لمدينة تاورومنيوم ، أبرمت هدنة دائمة بين الجانبين الإسلامى والبيزنطى ، ومثل الجانب الإسلامى وقتئذ كان الخليفة أبا تميم معد المعز لدين الله الفاطمى ( ٣٤١ — ٣٦٥ هـ / ٩٥٣ — ٩٧٤م) الذى خضعت له صقلية ، ومثل البيزنطيين الإمبراطور المعاصر نقفور ( ٩٦٣ — ٩٦٩ م )

---

(١) Brockel., p. 157

أما عن جزيرة قوصرة(١) Pentellaria . فهى تقع فى منتصف الطريق بين صقلية وساحل أفريقية الشمالى تقريباً . إذ تبعد عن صقلية بنحو ٦٠ ميلا وعن أفريقيا بنحو ٤٠ ميلا . وقد دعت الضرورة العسكرية المسلمين لفتحها لتأمين فتوحهم فى شمالى أفريقية ، وذكر ياقوت أنها فتحت فى أيام معاوية بن أبى سفيان (٤١-٦٠هـ/٦٦٠-٦٨٠م) والراجح أن أول من غزاها هو عبد الملك بن قطن الفهرى (٢) . خلال ولاية موسى بن نصير على أفريقية . وذلك عام ٨٨هـ/٧٠٧م. ثم غزاها حبيب(٣) بن أبى عبيدة الفهرى زمن ولاية عبيد الله بن الحبحاب لأفريقية والمغرب (١١٦ — ١٢٣ هـ / ٧٣٤ — ٧٤١م) وذلك حوالى عام ١١٨ هـ / ٧٣٦ م . على أن الاستيلاء النهائى عليها كان حوالى عام ١٣٠هـ / ٧٤٨م على يد عبد الرحمن بن حبيب الفهرى . حفيد عقبة بن نافع (٤) .

---

(١) كلمة قوصرة Cossyra اسم يونانى معناه السلة أو السفط أو الزنبيل ، وافقة قوصرة فى اللغة العربية لها نفس هذا المعنى فيقال : القوصرة وعاء التمر ، وفى بيت لعلى بن أبى طالب :

أفلح من كانت له قوصرة ... يأكل منها كل يوم مرة

وربما كان الاسم مشتقا من الفينيقية القديمة : قيصرة تصغير قصره ، والمعنى واحد : وأطلق الأسبان عليها كلمة بانيلاريا Pantellaria بهذا المعنى كذلك . وقد وصفها الجغرافيون العرب أمثال : ياقوت (ت ٦٥٦ هـ) ق . م. وابن سعيد الغرناطى (ت ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م) وابى الفداء (ت ٧٣٢هـ) والعمرى (ت ٧٢٣ هـ / ١٣٢٢م) وخلاصة ما ذكروه أنها خصيبة وبها آبار وأشجار زيتون وفيها معز برية متوحشة . ولها من جهة الجنوب مرسى مأمون من الرياح . (حسنى عبد الوهاب : قوصرة مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية م ٢ عدد ٢ أكتوبر ١٩٤٩ ) ص ٥٥ — ٥٧

(٢) ولى عبد الملك بن قطن الفهرى الأندلس بعد ذلك مرتين إحداها ١٢٤هـ / ٧٤٢م ومكثت نحو سنتين والأخرى سنة ١٢٢ هـ / ٧٤٠م لمدة سنة تقريبا (راجع البيان ج ٢ ص ٣٩ ، ٤٢ — ٤٦ )

(٣) البيان ج ١ ص ٣٥١ — ٣٥٥

(٤) ولى عبد الرحمن بن حبيب الفهرى أفريقة عام ١٢٩ هـ / ٧٤٨ م ، وكان مغتصبا للولاية وظل بها خلال حوادث القضاء على الدولة الأموية بالمشرق وقيام الخلافة العباسية ، وقتل زمن أبى جعفر المنصور على يد أخيه إلياس بن حبيب (البيان ج ١ ص ٦٥ — ٧٨)

وقد اتخذ الأغالبة جزيرة قوصرة قاعدة لغزو صقلية . وأقاموا بها مركز الحمام الرسائل (١) وعنى بها المسلمون عناية كبرى. فنقلوا إليها كثيراً من نصارى صقلية ، كما هجروا إليها عدداً كبيراً من فلاحي تونس من عرب وأفارقه ، فامتزج الجميع بالعادات الإسلامية واللغة العربية . وكان القطن من أهم منتجاتها . ولا يزال إلى اليوم بها أسماء عربية (٢) وامتدت السيادة العربية الإسلامية على قوصرة إلى عام ٤٨٤هـ / ١٠٩١ م(٣) .

وهناك جزائر أخرى قرب قوصرة . وصلت إليها السيادة الإسلامية. منها جزيرة لانبدوشة Lampédusa وجزيرة غوشة Linosa ، وتقعان شرق تونس . والراجح أنهما خضعتا للسيادة الإسلامية خلال عمليات الفتح لجزيرة صقلية . فقد ورد فى حوادث عام ١٩٧ هـ/٨١٢ م أن المسلمين غزوا بعض الجزر التابعة لصقلية . وأنهم حطموا أسطولا بيزنطياً قرب جزيرة لنبدوشة(٤) وقد وصفهما البكرى والإدريسى . وخلاصة وصفهما أنه بينما يوجد مرسى أمين فى جزيرة لنبدوشة . لا يوجد مثل هذا المرسى فى غوشة . وهما عامة قليلتا الزرع والحيوان(٥)

* * *

---

(١) حسنى عبد الوهاب ص ٥٩ ، أرشيبالد ص ٢١ ، ٤٢٨

(٢) حسنى عبد الوهاب ص ٦٠ ، مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١١٣

(٣) انظر مايلى :

(٤) C. Med. H., Vol. IV, p. 134 ، وراجع ما سبق عن صقلية

(٥) حسنى عبد الوهاب ص ٦٦ — ٦٧

وعن جزيرة مالطة ولواحقها . فهذه تعرف بالأرخبيل المالطي . نظرا لأنها أهم جزائر هذا الأرخبيل ، ولواحقها هي جزيرة جوتزو Gozo وكونه Comino وكومينوتو Cominotto وفلفلة Filfola .(١)

وتتميز مالطة ولواحقها بحسن الموقع ، حتى اعتبرت مفتاح حوض البحر الأبيض الشرقي في العصور الوسطى ، وكذلك في العصور الحديثة ، واسمها يوناني ميليتيه Miletus ، واشتهر هذا الاسم حوالي ٨٢٨ ق . م ، سنة النحل ، لحرفها المسلمون إلى مالطة . والمعروف عن تاريخها السابق للفتح الإسلامي ، أنها خضعت للفينيقيين في القرن السابع قبل الميلاد ، ثم الرومان عام ٢١٨ ق . م ، وظل الرومان بها نحو عشرة قرون ، اعتنقت خلالها مالطة المسيحية خلال القرن الأول الميلادي ، على يد القديس بولص ، ثم خضعت للوندال والقوط الغربية ، واستردها جستنيان ، فصارت جزءا من الإمبراطورية البيزنطية (٢)

والراجح أن مالطة سقطت في يد المسلمين قبل عام ٨٠٠ م : كما يقول غويا Goeje إلا أن السيادة الإسلامية لم تثبت وتكرر غزوها .

ويبدو أن أول غزو إسلامي لها فيما ذكره ابن الأثير ، كان في سنة ٢٢١ هـ ٨٣٧ م ، فقد ذكر في حوادث هذه السنة بصدد حديثه عن فتوح زيادة الله الأغلبي ، وفيها — أي في سنة ٢٢١ هـ — جهز أسطولا ،

---

(١) Rossi, E., Malta ( Encycl. of Islam ( Vol. III, pp. 213

(٢) أرسلان : غزوات العرب ص ٢٨٤ — ٢٨٥ ؛ ٢٨٨

Scott. II, p. 76 ، تحفة الألباب ص ١٠٥

فسار نحو الجزائر ، فغنموا غنائم عظيمة ، وفتحوا مدنا ومعاقل وعادوا سالمين ،[١] ويرجح أن هذه الجزائر هى الأرخبيل المالطى ، وربما لم تكن غزوة زيادة الله الأغلبي هذه هى الغزوة الإسلامية الأولى للأرخبيل المالطى ، فقد تكون هناك غزوات سابقة ، وأن المسلمين فتحوا الجزيرة أو بعضا منها ، إلا أن السيادة الإسلامية لم تثبت عليها ، فتكررت الغزوات مثل غزوة عام ٢٠٩ هـ / ٨٢٤ م ، وجاء الاستيلاء النهائى عليها فى عام ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م[٢] زمن أبى عبد الله محمد الأغلبي الملقب بأبى الغرانيق ( ٢٥٠ — ٢٦١ هـ / ٨٦٤ — ٨٧٤ م )[٣]

ولذلك جاء استيلاء الأغالبة على مالطة ولواحقها ، مكملا لحصارهم صقلية ، فضلا عن ربطها بالأملاك الإسلامية ، فقد أضحت جميع الجزر فى تلك المنطقة الوسطى من حوض البحر الأبيض فى أيدى المسلمين ، ومن ثم تأكدت سيطرة المسلمين على المضايق الواقعة بين صقلية وأفريقية[٤] وكان مقام المسلمين بمالطة أطول من مقامهم بجزيرة صقلية، حتى أن أصول

---

(١) تاريخ الكامل ج ٦ ص ١٢٥ ، أرشيبالد لويس ص ٢٠٧ ، مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١١٣ ، أرسلان : غزوات العرب ص ٢٨٥ ،
C. Med. H., IV, p. 139

(٢) C. Med. H., IV, p. 139

(٣) لقب بأبى الغرانيق ، لأنه كان مولعا بالصيد ، ويقال إنه بنى قصرا لصيد الغرانيق وهى طيور مائية سوداء وقيل بيضاء — مفردها غرنوق ، أنفق فيه ثلاثين ألف دينار ( ابن الأثير ج ٦ ص ١٩٢ أرسلان ، ص ٢٨٩ ، القاموس المحيط )

(٤) أرشيبالد ص ٢٠٧ .

لغة مالطة هي العربية (١) ، فقـــد ظلت مالطة خاضعة للسيادة الإسلامية نحـو ٢٢٠ سنة ، وتعتمد على صقلية ، وعومل أهلها بالتسامح واللين ، وفرضت عليهم ضرائب معتدلة (٢)

ومن حيث جزائر حوض البحر الأبيض الغربي ، فأولها جزائر البليار ، وتعرف كذلك باسم الجزائر الشرقية ، لوقوعها شرق الأندلس . وأهم جزرها ميورقة أو مايرقه Majiorca ومينورقة أو منرقة Mlniorca ويابسه Gvisa(٣) ونظرا لقرب هذه الجزائر من أسبانيا، فقد ارتبط تاريخها بالتاريخ الأسباني منذ أقدم العصور ، ومن ثم تعرضت للغزوات التي شهدتها سواحل البحر الأبيض وبلاده، ووقعت معها تحت نير الاستعمار الإغريقي ثم الفنيقي ثم الروماني والبيزنطي(٤)،وتشتهر هذه الجزر بجمالها وخصوبتها(٥)

وأول غزو إسلامي لهذه الجزائر ،كان زمن حوادث الفتح الإسلامي لأسبانيا ، فقد أرسل موسى بن نصير والي أفريقية والمغرب ، قوة بحرية

---

(١) أرسلان ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ ( عن الواسطة في معرفة أحوال مالطة للرحالة المسلم أحمد فارس الشدياق ، وعن دائرة المعارف الإسلامية ) انظر مايلي .

(٢) Scott, II , p. 76

(٣) انظر الروض المعطار ص ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩٨ ؛ تقويم البلدان ص ١٩٠ ، صبح الأعشى جـ ٥ ص٢٠٦ ( ذكرها باسم يابسة )

(٤) كاليبا ( Clelia Sarancelli Cerqua ) مجاهد العامري ص ١٨٦

(٥) تغنى الشاعر ابن اللبانة بجمال مدينة بجزيرة ميورقة ، بها ساقية تعمل باستمرار فقال :

بلدا أعارته الحمامة طوقها ... وكساه حلة ريشه الطاووس
فكأنما الأنهار فيه مدامة ... وكأن ساحات الديار كؤوس

( نفح الطيب جـ ١ ص ٨٠ )

بقيادة ابنه عبد الله ، فغزا جزيرة ميورقة « وغنم منها ما لا يحصى وعاد سالما (١) » وتكرر غزوها بعد ذلك ، منها الغزوة التي وجهها إليها الحكم بن هشام الأموي بالأندلس سنة ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م ، فاستعان أهل الجزر بشارلمان ، ونجحت معونة شارلمان في إبعاد المسلمين عنها لفترة طويلة ، لكن ليس من المحقق ، هل خضعت جزر البليار لسيادة شارلمان أم لا؟ وهناك من يقول : إنه بعد وفاة الإمبراطور شارلمان الفرنجي عام ٨١٤ م انتخب برنارد حفيده ملكا على ميورقة ، وبرنارد هذا ابن بيبين بن شارلمان وكان بيبين ملكا على إيطاليا وتوفي ٨١٠(٢) .

وفي زمن الحكم بن هشام كذلك ، قامت حملة إلى جزر البليار عام ٢٠٠هـ/ ٨١٥ م (٣) ، وكان أهل ميورقة مرتبطين بعهد مع المسلمين ، لكنهم خرجوا على العهد وثاروا في ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م ، فأرسل الخليفة عبد الرحمن الثاني بن الحكم (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ / ٨٢١ — ٨٥٢ م ) ، أسطولا مكونا من ثلثمائة مركب ، نجح في إخماد الفتنة ، يقول ابن عـــذاري : « وفي سنة ٢٣٤ ، أمر الأمير بتوجيه العساكر إلى أهل جزيرة ميورقة لنكايتهم وإذلالهم ومجاهدتهم لنقضهم العهد وإضرارهم بمن مر عليهم من مراكب المسلمين ، فغزتهم ثلاثمائة مركب ، فصنع الله للمسلمين جميلا وأظفرهم بهم وفتحوا أكثر جزائرهم(٤) » . وتدل هذه الغزوة على وجود نوع من السيطرة ، فضلا عن العهد المكتتب لأهل الجزيرة .

---

(١) ابن الأثير جـ ٤ ص ٣٢١

(٢) كابليا ص ١٨٧

(٣) مؤنس : المسلمون في حوض البحر الأبيض ص ١١٦ ، كابليا ص ١٨٦ — ١٨٧

(٤) البيان جـ٢ ص ١٣٢ . انظر ابن الخطيب ص ١٨

وربما كان الفتح الحقيقى لهذه الجزر فى سنة ٢٩٠ ه / ٩٠٣ م ، فقد أرسل الخليفة الأموى عبد الله بن محمد ( ٢٧٥ — ٣٠٠ه / ٨٨٨ — ٩١٢م) أسطولا بقيادة عصام الخولانى ، وقد عينه حاكمها على الجزر، فنجح عصام فى فتح ميورقة ومنورقة ، أما يابسه ، فظلت بين حا كمها جويزا Juiyza ، وحكم عصام هذه الجزر باسم بنى أمية حتى وفاته ، وخلفه ابنه(١) . ومنذ ذلك الوقت ، تعاقب على حكمها ، ولاة من المسلمين ، وظلت خاضعة للسيادة الإسلامية حتى سقوط خلافة قرطبة فى عام ٤٢٢ ه / ١٠٣١ م .

وحدث أن اضطربت بلاد الأندلس عقب سقوط الخلافة وقيام ما عرف باسم عصر ملوك الطوائف ( ٤٢٢ — ٤٨٤ ه/١٠٣١ — ١٠٩١م) فاستقل كل بما أمكنته يده ، وأصبح لكل مدينة أومقاطعة أمير مستقل وبلغ هؤلاء الأمراء فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى ، نحو عشرين أسرة مستقلة فى عشرين مدينة أو مقاطعة : وهؤلاء هم ملوك الطوائف(٢)، وكان حكمهم فترة انتقال بين عهد الخلافة الأموية وبين قيام دولة المرابطين ودخولها أسبانيا(٣) .

استقل بنو عامر بشرق الأندلس(٤) ،وسنحت الفرصة لمجاهد العامرى

---

(١) مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص١١٦ ، كليليا ص ١٨٧ — ١٨٨

(٢) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٥٨ ، العبادى ص ١٧٠ — ١٧١ ، كليليا ص ٥٢ — ٥٥

(٣) كليليا ص ٣٥ — ٥١

(٤) بنو عامر هم سلالة محمد بن أبى عامر الذى ظهر فى بلاط الحكم المستنصر الأموى(٣٥٠ — ٣٦٦ه/ ٩٦١ — ٩٨٦ م ) الذى انصرف إلى شئون العلم والأدب عن شئون الدولة ، وساعدته صبح زوجة الحكم حتى ولاه قضاة بعض البلاد فبرزت مواهبه وعبقريته،وساعده على =

لغزو جزائر البليار . وأبو الجسين مجاهد بن عبد الله العامرى صقلبي(١)

---

ــ الظهور موت الحكم وتولية ابن هشام وهو صبي لم يتجاوز التاسعة من عمره (٣٦٦ــ ٣٩٩ هـ / ٩٧٦ ــ ١٠٠٩م) . ووطد علاقته بالمصحفى كبير الوزراء حتى أخرج الصقالبة الذين كانوا بالقصر، وكانوا يحومون حول الخلافة، فخلا له الجو ، وظل يدبر المؤامرات ضد المصحفى، صاحب الفضل عليه ونجح فى إبعاده ونفيه سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٨ م ، وأصبح هو المدبر الفعلى لشئون الخلافة الأموية، إذ سار الحاجب بالشام المؤيد . واستخدم ابن أبى عامر الصقالبة واصطنع فريقا لنصرته، فكون له منهم قوة ، واشتهر فى السياسة والحرب والعلم والأدب .

( انظر : ابن عذارى جـ ٢ ص ٣٧٣ — ٣٧٦ ، مفاخر البربر ص ١٣ ، ابن الخطيب ص ١٩٣ ــ ١٩٥ ، نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٥ وما بعدها ، كلينيا ص ١٦ ــ ٣٢ ) .

(١) تعنى كلمة صقلبي وصقالبة ، عند الجغرافيين العرب فى العصور الوسطى ، مجموعة من الناس من أجناس مختلفة ، كانت تعيش على حدود الخزر ، أى بين منطقة القوقاز والحوض الأدنى لنهر الفلجا ، وأطلق هذا الاسم على أسرى الجرمان من هذه الشعوب ممن استرقهم العرب فى الأندلس ، وتطور هذا المصطلح فى أسبانيا حتى صار يطلق على هؤلاء العبيد الأوربيين الذين شغلوا بعض المناصب فى بلاط قرطبة ، ومنهم الحرس الخاص بالخلفاء الأمويين،منهم من الجليقيين ، السويف ، ومن الفرنج واللمبارد . وأغلبهم ينتمى إلى سكان ثغور أوربا المطلة على البحر الأبيض ، وجاءوا عن طريق الشراء أو الأسر فى الحروب ، واشتهرت مدينة فردان Verdun بفرنسا بوجود تجار من اليهود الخبيرين بعملية الخصى لهؤلاء العبيد ، ومن فردان كان الخصيان يرسلون إلى الأندلس ، وانتشرت عملية الخصى كذلك فى مدينة اليسانه Lucena بالأندلس على بعد ٤٠ ميلا من قرطبة ، وأغلب سكانها من اليهود وكذلك مناطق الثغور المتصلة بفرنسا. يقول المقرى (وقد تعلم الخصاء قوم من المسلمين هناك ، فصاروا يخصون ويستحلون المثلة ) . وتعلم هؤلاء الصقالبة سواء أكانوا فحولا أم خصيانا ، لغة سادتهم وأخذوا دينهم وعاداتهم ، وتفتحت عقولهم فى الأندلس تحت الحضارة المزدهرة على عكس الظلام الدامس الذى كان يخيم على شعوب أوربا فى العصور الوسطى ، فنهلوا من هذه الحضارة حتى صاروا مصدر خطر على سادتهم .

والأصل اللغوى لهذه الكلمة كما فى اللغة الصقلبية القديمة سلافينيو Slaveninu وتدل على سكان هذه البلاد من حيث الوطن ، واستعملها اليونان مرادفة للعبد Sklavos ، وصارت فى اللاتينية Sclavus نقلا عن اليونان ،وفى الفرنسية Esclave وفى الألمانية Sklave وفى الانجليزية Slave ، وذلك حوالى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر ، وعرفها العرب منذ اشتبكوا فى حروب مع بيزنطة حوالى القرن السابع الميلادى ، إذ كان بعض الصقالبة يحاربون كجنود مرتزقة فى الجيش البيزنطى .

( انظر كلينيا ص ٢ ــ ١٥ وما بها من مراجع ؛ ابن حوقل : المالك والممالك ص١٣ــ١٤ ياقوت معجم البلدان جـ ٢ ص ٢٧٢ . نفح الطيب جـ ١ ص ١٤٠ Dozy. II, P. 154

مسيحي فى الأصل ، ويقترن اسمه كذلك بالرومى[1] ، استرقه المنصور بن أبى عامر فى بلاط قرطبة، واشتهر مجاهد بالشجاعة والمغامرة وسعة الثقافة فى العلوم الدينية والأدبية ، وبفضل مواهبه ، ارتفع مجاهد من طبقة الرقيق إلى مرتبة ملك خطر يسيطر على دانيه Denia بشرق الأندلس؛ واستقل بدانيه حوالى عام ٤١٢ هـ ، وولى أمر دانيه من قبل هشام الثانى ، ويقول صاحب البيان إن الذى ولاه دانيه هو المنصور بن أبى عامر حتى صار أسطورة عجيبة فى تاريخ العلاقات الإسلامية الإيطالية فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) : كانت دانيه عاصمته ، مركز النشاط الثقافى والحربى ، وغدت نقطة وثوب على جزر البليار وسردانية ، بل صارت دانيه قاعدة بحرية لأسطول قوى شجعه على القيام بمغامرات حربية بحرية وقد أفردت له المراجع اللاتينية والغربية فصولا مطولة ، إذ كانت أعماله ومغامراته تعد من الأساطير ، وكان بمجرد ذكر اسمه ، يلقى الرعب فى قلوب المسيحيين ، ويعرف فى الكتب الأجنبية باسم: Mujet أو Musectus[1]

قام مجاهد العامرى فى عام ٤٠٥ هـ / ١٠١٤ — ١٠١٥ م ، وفتح جزر البليار الثلاث الرئيسية ، وأعلن استقلاله بها فى عام ٤٣١ هـ / ١٠٢٢ م ، وعين فى ذلك العام ، عبد الله بن أخيه ، واليا على هذه الجزر ، فأمضى فى حكمها خمسة عشر عاما حتى توفى ، وخلفه فى حكومة البليار الأغلب مولى مجاهد ، وذلك سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ — ١٠٣٧ م ، وفى خلال حكم الأغلب

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٤ ؛ صبحى الأعشى ج ٥ ص ٢٥٦ — ٢٥٧ ؛ الروض المعطار ص ٧٦ ؛ ابن الخطيب ص ٢١٧ — ٢٩١ ؛ معجم الأدباء ج ١٧ ص ٨٠ ، كليليا ص ٢١١ — ٢١٤ ؛ أرسلان غزوات العرب ص ٢٠٢ — ٢٠٤ ، مؤنس ص ١١٦ .

مات مجاهد سنة ٤٣٦ هـ / ١٠٤٥ ، وخلفه ابنه على الملقب بإقبال الدولة(١)

° ° °

أما جزيرة سردينية ، فهى ثانية جزر البحر الأبيض حجما ، بعد صقلية(٢) ، ونظرا لعدم تعرج سواحلها ، فإن موانيها قليلة ، ومن ثم قلت صلاحيتها للملاحة البحرية ، ويوجد بشواطئها كثير من المستنقعات ، مما حمل سكانها على الانحياز إلى المرتفعات الداخلية ، على أن شواطئها الغربية والجنوبية صالحة للملاحة ، مما جعلها هدفا للمسلمين من ناحية الجنوب ومن ناحية الأندلس(٣) .

احتلها الرومان واتخذوها منفى ، ومن بعدهم احتلها الوندال عام ٤٧٦م ثم البيزنطيون عندما استرد جستنيان بعض الجزر التى كانت تابعة للإمبراطورية الرومانية(٤) ، وظلت جزيرة سردينية بيد بيزنطة حتى القرن العاشر ، واعتبرت فى التنظيم الإدارى البيزنطى تابعة لبندصقلية Theme of Sicly(٥)

تعرضت هذه الجزيرة للغزو الإسلامى . كغيرها من جزر البحر الأبيض ، وأول غزو إسلامى لها كان عام ٩٢ هـ / ٧١٠ م ، يقول ابن الأثير : « ولما فتح موسى بلاد الأندلس ، سير طائفة من عسكره فى البحر إلى هذه الجزيرة

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٤ ؛ كابليا ص ١٧٥ ، ١٨٧ — ١٨٩ ، ٢٥٣ وما بعدها ، ابن الخطيب ص ٢٢١ — ٢٢٢ ؛ ٢٧٥ — ٢٧٦

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٢٣٢

(٣) كابليا ص ١٩٣ . تحفة الألباب ص ١٠٤ — ١٠٥

(٤) انظر شمال أفريقية والوندال ( للمؤلف )

(٥) Deanesly, P. 375

سنة اثنتين وتسعين ، فدخلوها ، وغنموا وغنم المسلمون فيها ما لا يحد ولا يوصف ، وفى عودتهم ، غرقوا بما غنموا[١] ، وتكرر الغزو بعد ذلك فى عام ٩٨ هـ / ٧١٦ م ، ١١٧ هـ / ٧٣٥ م ، ١١٨ هـ / ٧٣٦ م ، وفى سنة ١٣٥ هـ / ٧٥٢ م ، غزا عبد الرحمن بن حبيب الفهرى سردانية وصالح أهلها على الجزية[٢] .

وخلال الفترة ما بين ١٨٥هـ/٨٠١م و ٢١٦هـ/٨٣١م ، توالت الغزوات على الجزيرة من ناحيتى أفريقية والأندلس ، ولكنها كانت غزوات سريعة خاطفة ، ليست لها صفة الدوام ، وكان لتفرق كلمة المسلمين بين أمويى الأندلس وأدارسة المغرب وأغالبة تونس أثره فى عدم اتخاذ موقف موحد قوى ، وتم الفتح الجزئى لهذه الجزيرة عام ٢٢٧هـ/ ٨٤٩م زمن الخليفة الأموى عبدالرحمن بن الحكم (٢٠٦-٢٣٨هـ/٨٢٢-٨٥٢م) ، واتخذ المسلمون من فتوحهم فى سردانية نقطة انطلاق لمهاجمة روما ؛ فضلا عن أهمية الحصول منها ومن غيرها على العبيد والخشب لصنع سفنهم[٣] .

وفى سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م ، قامت الغزوة المشهورة من المهدية بشمالى أفريقية ، إذ أبحر أسطول إسلامى بقيادة يعقوب بن إسحاق ، وكان مكونا من ثلاثين سفينة حربية وهاجم كلا من سردانية وجنوا وعاد محملا بالغنائم[٤] ، وبرز خلال هذه المعارك الحربية البحرية أحد الجنود المسلمين

---

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٢٣٢ — ٢٣٣

(٢) البيان ج٢ ص ٧٣ ، ابن الأثير ج ٤ ص ٢٣٣ C. Med. H., Vol. IV, 184

(٣) انظر ما يلى . Deanesly. p. 373

(٤) ابن الأثير ج ٤ ص ٢٣٣ . كابابا ص ١٩٥

الذين أسهموا بشجاعة فى غزو سردانية ، حتى لقب بابن السردانى ، وهو أبو جعفر أحمد ، ويقال له حمودة بن إبراهيم أو ابن سعدون المتعبد (ت ٣٢٢هـ أو ٣٥٤هـ)(١) .

وربما كان أصلح تعبير للغزوات الإسلامية التى تعرضت لها جزيرة سردانية أنها كانت أقرب الموجات منها إلى الفتح والاستقرار . إذ كانت تتكسر على شواطىء الجزيرة دون أن يتمكن المسلمون من تثبيت أقدامهم فيها . بسبب عدم ملائمة المناخ وشدة كفاح أهل الجزيرة ، وكثرة الأمواج على شواطئها ، ومن أجل ذلك لم تتأثر سردانية كغيرها من البلاد التى وطئها المسلمون ، من حيث الثقافة أو الدين أو الفن أو التجارة (٢).

أدت هذه العمليات الحربية المستمرة إلى قطع العلاقات بين بيزنطة وجزيرة سردانية ، وتقاعدت بيزنطة عن نصرتها ، فاعتمد السرديليون على أنفسهم ، وأمدهم الفرنجة أحياناً بالمساعدات كما ساعدتهم جمهوريات إيطاليا البحرية مثل جنوه وبيزا . كذلك أدى الغزو الإسلامى إلى تقوية الصلات بين البابا والمدن الإيطالية . ومن ثم انبرت البابوية لتنظيم حركة المقاومة ضد الخطر الإسلامى ، بل أدى تدخل بيزا إلى إسلال نفوذها فى سردانية . مما أدى بالتالى إلى صراع حربى بين بيزا ومنافستها جنوا (٣) .

والفتح الإسلامى الحقيق لجزيرة سردانية : تم فى مطلع القرن الحادى

---

(١) كابيا ص ١٩٥

(٢) كابيا ص ١٩٩

(٣) كابيا ص ١٩٦ . Bramsly. P. 375

عشر الميلادى . على يد مجاهد الدانى . فقد حدث بعد أن انتهى من فتح جزر البليار فى رمضان ٤٠٥هـ/مارس ١٠١٥م . توجه إلى سردانية فى ربيع أول ٤٠٦هـ/أغسطس وسبتمبر ١٠١٥م . على رأس ١٢٠ سفينة حربية . ومعه ألف جواد . وكان مشروعه للفتح والإقامة لا لمجرد الغزو . على أن يتخذ من سردانية نقطة وثوب على غيرها فضلا عن هدفه البعيد وهو جعل البحر الأبيض بحراً إسلامياً (١) .

والراجح أن مجاهداً نزل بالقرب من مدينة كاليارى Cagliari ، وكانت المعركة رهيبة . قتل فيها الكثير وأسر الكثير ولاسيما من جانب المسيحيين ومن بين القتلى شخص يسمى مالوت . قيل إنه قائد السردنيين (٢) . وعلى الرغم من دفاع أهل الجزيرة . إلا أن مجاهداً استطاع أن يحتل جزءاً كبيراً من الجزيرة وأن ينفذ إلى المناطق الجبلية وأن يحتل عدداً من المعاقل السردينية (٣) . يقول ابن الخطيب :

وغزا رحمه الله إلى سردانية . جزيرة الروم . وهى عظيمة . مسيرتها ثمانية أيام . وفيها ملوك أربعة من قبل صاحب الأرض الكبيرة ـ أى فرنسا اقتحمها فى مائة وعشرين مركبا . حمل فيها ألف فارس . ففتح أرضاً جليلة . وضرب على بعض ملوكها جزية . وتجاوز حده (٤) .

بدأ مجاهد عملية إقامة المزيد من الحصون . واختط مدينة واسعة وشرع

---

(١) كليليا ص ١٩٦ – ١٩٧ . ابن الأثير جـ ٤ ص ٢٣٣

(٢) كليليا ص ١٩٧ – ١٩٨ ( عن أمارى Amori )

(٣) كليليا ص ١٩٨ .

(٤) أعمال الأعلام ص ٢١٩

فى بنائها وانتقل إليها بأهله وولده ، بعد أن غنم وسبى مالا يأخذه الحصر . إلى أن كسد فى زمانه السبى وخست فيه الأثمان» (١) .

ولقد بالغ الأعداء فى تصوير سوء معاملته لأهل سردانية . غير أن سوء هذه المعاملة ترجع إلى ضعف مركزه فى الجزيرة وهزيمته أمام بيزا وجنوه ، يقول ابن الخطيب : «وكان شديد الوطأة على رعيته ، سام أهل الجزائر الخسف ، فسطا بوجوههم ورؤسائهم ، وألزم قلوبهم الرهب ، لما خافهم على دولته ... حتى لقد حظر عليهم رماكهم السامية ، وكانت عمدة أموالهم ، فكتبها منحوتة ، فلا تكاد الرمكة تنتج مهراً ، حتى يكتب على ربه بنعته ، ويلزمه بتربيته ، والقيام عليه ، إلى أن يصلح للرياضة ، فيقبض منه ذلك ، ويعطى عنه خمسة دنانير دراهم ، لا يزاد عليها فى وقت . ولا يبرأ منه إن نفق إلا ببراءة من ثقته ، ولقد قطع أذن رجل لقطعه أذن مهر طلب التشويه بخلقه» (٢) .

غير أن أعداء مجاهد أفرطوا فى المبالغة ، ولا سيما الشاعر الإيطالى فيرنيزى Vernese ، الذى قال إن مجاهداً كان يأمر بأن يبنى بأجسام الثوار أحياء ، بدلا من الحجارة . ويجلدهم ويصلبهم ويدعهم للكلاب الشرسة(٣) ولم يكن هدف هذه المبالغة فى التصوير خفياً . فإن أمثال هؤلاء الأعداء

---

(١) أعمال الأعلام ص ٢١٩

(٢) أعمال الأعلام ص ٢١٨

(٣) كابينا ص ٢٠٣ ( أوردت كابينا بعض فقرات من الشعر الذى قاله فيرنيزى فى هذا الصدد )

كانوا يعملون على إشعال نار الكراهية فى قلوب المسيحيين . وإثارة حماستهم للدفاع ضد مجاهد . وقد امتد حكم مجاهد فى سردينيا إلى عام ١٠١٦ م (١) .

* * *

ويلاحظ أن الغزوات التى شنها المسلمون على جزر البليار وسردانية قد اقترنت بغزو جزيرة قورسيقة (٢) . والراجح أن جزيرة قورسيقة خضعت للسيادة الإسلامية قبل عام ١٩١هـ/٨٠٦م . واتخذت هى وسردانيا قاعدة للعمليات البحرية . لغزو شواطىء إيطاليا . وكان المسلمون يأملون أن تظل قورسيقة بصفة خاصة قاعدة دائمة لهم .

جمع شارلمان إمبراطور الإمبراطورية الغربية وملك الفرنجة أسطولا من الموانى الإيطالية لطرد المسلمين من قورسيقة . وكان ذلك فى عام ٨٠٦م وفى المعركة البحرية قتل قائد الأسطول الفرنجى هادومر Hadumar وهو كونت جنوه . فاضطر شارلمان إلى إعداد أسطول آخر بقيادة برخارت Burchard . وظفر هذا الأسطول بإحراز نصر على المسلمين . وفى عام ٨٠٨م تدخل البابا ليو الثالث . وطلب من شارلمان ألا يغفل عن مهاجمة قورسيقة ، لأن المسلمين بها لا يكفون عن غزو الشواطىء الإيطالية

---

(١) كلينيا ص ٢٠٢ . مؤنس ص ١١٦ . انظر ما يلى

(٢) Deanesly, P. 375

(٣) Deanesly, P. 375. Scott Vol. II. J. 75

وعلى أن السيادة الإسلامية على هذه الجزيرة ، لم تكن ثابتة أو مستقرة بدليل كثرة تكرار الغزو لها من الجانب الإسلامى والجانب المسيحى . ففى عام ٨١٣ م توجه أسطول إسلامى إليها ، جاء من أسبانيا . وغنم من قورسيقة مغانم كثيرة ، منها خمسمائة أسير . إلا أن الأسطول الفرنجى ، التق بالأسطول الإسلامى العائد من قورسيقة . عند جزيرة ميورقة. و أجبره على تسليم مغانمه وأسراه . فلم يكن من الأسطول الإسلامى إلا أن توجه إلى مدينة كيفيتا فكيا Civita Viccia على الساحل الإيطالى شمالى روما لتعويض مافقده(١) .

ثم انتقلت السيادة الإسلامية على قورسيقة وسردانية للفاطميين عام ١٠٠٣ م (٢) . وعندما غزا مجاهد العامرى سردانية عام ١٠١٥ م توجه إلى غزو مدينة لونى Luni الإيطالية وكان عليه أن يمر بجزيرة قورسيقة ويحتمل أنه احتلها أو احتل بعض أجزاء منها. ويرى المؤرخ ماس لاترى Mas Latrie أنه طالما كان العرب مسيطرين على بوغاز بونيفاشـــيو Bonifecio الفاصل بين سردانية وقورسيقة ، فلابد وأنهم احتلوا قورسيقة أو على الأقل الأجزاء الساحلية منها لكى يؤمنوا هذا الممر ، وكذلك لتأمين شواطىء سردانية(٤) .

---

(١) كابليا ص ١٩٨

(٢) كابليا ص ١٦٣

(٣) كابليا ص ١٩٨

(٤) كابليا ص ١٩٨ — ١٩٩

# الفصل الخامس

## السيادة الإسلامية في أسبانيا

أهمية شمالي أفريقية للدولة الاسلامية - البربر - عمليات الفتح وقادته وبطولة المسلمين - شمالي أفريقية نقطة وثوب على أوربا - الأسباب المباشرة للفتح أسبانيا - موسى بن نصير يستأذن الخليفة الوليد بن عبد الملك - سرية طريف ونجاحها عام ٩١ هـ / ٧١٠ م - حملة طارق ووقعة وادى لكه - موسى يلحق بطارق - أبناء غيطشه وضياعهم - « أرض تدمير » وكتاب الصلح . اتمام الفتح - الولايات المسيحية الباقية فى أسبانيا الاسلامية .

تطلبت الأحوال العسكرية حماية الجناح الأيسر للفتوح الإسلامية إذ لم تزل السيادة البيزنطية مبسوطة على شمالى أفريقية . فكان من الضرورى فتح شمالى أفريقية وإزالة السيادة البيزنطية بعد أن أزالهـــا المسلمون عن الشام ومصر .

واستغرق فتح أفريقية الشمالية ، مايربو على نصف قرن من الزمان ( ٢٥ — ٨٩ هـ / ٦٤٦ — ٧٠٨ م ) ، وهذه فترة طويلة بالقياس إلى سرعة الفتوح الإسلامية السابقة ، حيث استغرق فتح الشام ومصر وفارس نحو عشرين عاما فقط ، غير أن هذا البطء راجع إلى طبيعة البلاد الجغرافية ، يضاف إلى ذلك شدة مقاومة البربر وصلابتهم ، ومن ناحية أخرى هناك حصون الروم المنيعة التى لم تزل قائمة على طول الساحـــل ، وتتولى أمر حراستها قوة بحرية هائلة ، وهذا ماضاعف من مشقات الفتح ، وعرقل من سرعة التقدم (١) .

ويتميز البربر ، سكان شمالى أفريقية ، بالشجاعة وحب الحرب وقوة الشكيمة ، ولذا كان من العسير إخضاعهم أو التغلب عليهم ، عاشوا على النظام القبلى ، وانتشروا فى مساحات واسعة مترامية الأطراف ، ومن ثم تحتم على فاتح بلادهم ، أن يحارب فى كل مكان (٢) .

---

(١) العبادى : موجز تاريخ الأندلس ص ٣٠

(٢) العبادى ص ٣٢ ؛ H. G. T. I. P. 473

والبربر قسمان . البرانس والبتر ، ومرجع هذه التسمية ، هو الزى القومى المنتشر فى شمالى أفريقية ، فالبرانس وهم سكان الحضر ، يلبسون البرنس ذا الغطاء ، للرأس ، بينما لبس البتر هذا الزى وهو أبتر من ذلك الغطاء وهؤلاء يقيمون فى البادية ، ومن فروع البرانس صنهاجة وكتامة وأوربة ومصمودة وأوريغه وغيرها ، ومن البتر إداسة ، ومنها تفرعت هوارة ولواتة وزناتة وغيرها (١)

اشترك فى عمليات الفتح سبعة من كماة الحرب ونوابغ السياسة ، أولهم عمرو بن العاص وآخرهم موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد . فوصلت جيوش عمرو بن العاص إلى بلاد أطرابلس (طرابلس) فى عام ٢٢ هـ/ ٦٤٣م ، وكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، يخبره وبما أفاد به عليه من الفتح والنصر ، وأن ليس أمامه إلا بلاد أفريقية ، (٢) جاء بعده عبدالله بن سعد بن أبى سرح ، وغزا أفريقية (تونس) عام ٢٦ هـ/ ٦٤٧ م ، وهزم جرجورى Gargory الأرخون البيزنطى فى أفريقية ، وعاد بالغنائم (٣)

---

(١) انظر : ابن خلدون : تاريخه جـ ٦ ص ٨٩ ــ ٩٦ ، الناصرى : كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ ١ ص ٥٣ ــ ٥٨ ، البلاذرى : فتوح البلدان جـ ١ ص ٢٦٥ ــ ٢٧٠ ، العبادى : موجز تاريخ الأندلس ص ٣٢ ــ ٣٣ ، مؤنس : فتح العرب المغرب ص ٥ ــ ٦ ، لوبون : حضارة العرب . ترجمة زعيتر . ص ٢٤٤ ــ ٢٥٣ ، طرخان : شمالى أفريقية والوندال ( مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ــ العدد التذكارى ١٩٦٢ ) ، Gsell, S. Histoire Ancienne de l'Afrique Du Nord. T. I. P. 1. Soames, j. The Coast of the Barbary. P. 12 sqq. ; Ch - André. J. La Berbérie, p. 43 ; C . Med. H. (Sh.) , Vol. I , P. 36 .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب جـ ١ ص ٢

Deanesly, pp. 200 - 201

(٣) ابن عذارى جـ ١ ص ٣ ــ ٥ ، البلاذرى جـ ١ ص ٢٦٤ ــ ٢٦٩

توقفت الفتوح الإسلامية فترة ، بسبب انقسام المسلمين خلال الفتنة الكبرى التي وقعت في الدولة الإسلامية ، وانتهت بمقتل الخليفة عثمان بن عفان (٢٣ — ٣٥ هـ/ ٦٤٤ — ٦٥٦ م) وقيام النزاع بين علي ومعاوية . (١) ثم استؤنفت بعد أن استقرت الأحوال بقيام الدولة الأموية عام ٤١هـ/ ٦٦١م وهو المعروف بعام الجماعة ، لإجماع المسلمين على خليفة واحد ، وهو معاوية ابن أبي سفيان ( ٤٠ — ٦٠هـ/ ٦٦٠ — ٦٨٠ م ) (٢) .

وفي العهد الأموي بدأ الفتح الحقيقي لبلاد المغرب ، فقد عقد معاوية لعقبة بن نافع الفهري ولاية أفريقية عام ٥٠ هـ / ٦٧٠ م . وابتنى عقبة مدينة القيروان عام ٥١ هـ/ ٦٧١ م وجعلها مركزا وقاعدة لعملياته الحربية وإمداداته .(٣) اكتسح عقبة شمالي أفريقية ووصل إلى شاطىء الأطلسي، ولشدة بأسه ظفر بلقب « قاهر الروم والبربر » (٤) . ولما خلفه أبو المهاجر دينار على ولاية أفريقية ، اعتمد الوالي الجديد على السياسة واللين والموادعة، فهادن البربر حتى لا يتعرض لخطر عدوين في وقت معا . ولذلك انضمت إليه جموع البربر البرانس وزعيمهم يومئذ كسيله الأوروبي . اعتنق كسيله وقبيلته الإسلام وزحفوا مع أبي المهاجر وفتحوا تلمسان (٥) .

---

(١) انظر الطبري جـ ٥ ص ٩٨ — ١٤٥

(٢) الطبري جـ ٥ ص ١٥٢ ومابليها . جـ ٦ ص ٢٧ — ٥٢ ، ٨٣ - ٨٧ ، ٩١ . ٩٧

(٣) ابن عذارى جـ ١ ص ١٤ . ١٥ ، اليعقوبي : كتاب البلدان ص ١٠٥ - ١١١ ، مؤنس : فجر الأندلس ص ٣٩ - ٤٠ ، أ . ج . Deanesly, p.

(٤) العبادى ص ٣٣ ومابليها . ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٦٢ . ابن الأثير جـ ٣ ص ١٩٩ - ٢٠٠ . ابن عذارى جـ ١ ص ١٦ ، راجع الفصل الثالث .

(٥) ابن عبد الحكم ص ٢٦٥ ؛ Pirenne, H., Mohammed & Charlemagne, pp. 160-4

غير أن عقبة عاد لولاية المغرب مرة أخرى فى عام ٦٢ هـ / ٦٨٢م . جاء وهو يشتعل حماسة للفتح والبلاء . ولكنه أخطأ التقدير . يوم انحرف عن سياسة سلفه . وأخذ البربر بالقهر وعاملهم بالقوة ، اعتقادا منه ، أنهم لايخضعون إلا للقوة . فقبض على كسيله كما قبض على أبى المهاجر وأوثقه بالحديد، ووصل فى زحفه إلى ساحل المحيط الأطلسى (١) ، ثم عاد مغترا بنصره ، فلم يأخذ الحيطة ، ومن ثم أحدق به الروم والبربر وقتلوه ، كما استشهد أبو المهاجر فى المعركة ، وكان للبحرية البيزنطية أثرها الحاسم فى هذا النصر (٢)

سأل المسلمون الخليفة عبد الملك بن مروان ( ٦٥ — ٨٦ هـ / ٦٨٥ — ٧٠٥ م ) أن يعمل على تخليص أفريقية ومن بها من المسلمين من يد كسيله، الذى كان قد دخل القيروان ٦٤ هـ ، فأجاب الخليفة ، لايصلح لطلب دم عقبة من الروم والبربر إلا من هو مثله دينا وعقلا (٣) ، واستقر الرأى على تولية زهير بن قيس البلوى ٦٩ هـ / ٦٨٨ م ، ونجح زهير فى القضاء على كسيله وقتله فى وقعة ممس أو ممش ، وفى عودة زهير قضى عليه الروم بسبب تفوقهم البحرى (٤) .

---

(١) راجع الفصل الثالث

(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٧٢ ؛ ابن الأثير ج ٤ ص ٤٧ ، عمر فروخ : العرب والإسلام و الحوض الغربى من البحر المتوسط ص ٦٥

(٣) البيان المغرب ج ١ ص ١٧ — ١٩

(٤) البيان المغرب ج ١ ص ١٩ — ٢١ ، ابن عبد الحكم ص ٢٧٢ . ابن الأثير ج ٤ ص ٤٧

خلفه حسان بن النعمان الغسانى (٧٨ — ٨٦ هـ / ٦٩٧ — ٧٠٥ م) وقال له الخليفة عبد الملك بن مروان : إنى قد أطلقت يدك فى أموال مصر فأعط من معك ومن ورد عليك ، وأعط الناس ، واخرج إلى بلاد أفريقية وعلى بركة الله وعونه (١) . سار حسان على سياسة أبى المهاجر دينار فى اصطناع البربر ، لمحاربة الروم ، وهم العدو المشترك ، ودمر قرطاجنة (٢) حتى يحرم أسطول الروم من هذه القاعدة ، فهرب من كان بها من الروم إلى صقلية والأندلس (٣) ، غير أن خطراً واجه حسان من عدو صعب المراس ، هو « الكاهنة » زعيمة البربر البتر ، وهى امرأة يهودية لها قوة روحية ونفوذ كبير على البربر ، تخبرهم بأشياء من الغيب ، فسميت الكاهنة ، ومعقلها جبل أوراس وتتحكم فى كل شمالى أفريقية ، ويقال إن حساناً سأل أهل القيروان عمن بقى من أعظم ملوك أفريقية ، وذلك بعد قضائه على قرطاجنة ، ليسير إليه فيبيده أو يسلم ، فدلوه على الكاهنة بجبل أوراس وقالوا له : وجميع من بأفريقية من الروم منها خائفون . وجميع البربر لها مطيعون ، فإن قتلتها ، دان المغرب كله ولم يبق لك مضاد ولا معاند » (٤)

التقى بها حسان فى « وادى سكمتانه » الذى عرف بوادى العذارى ،

---

(١) البيان المغرب جـ ١ ص ٣٢

(٢) يسميها أهل تونس ( المعلقة ) انظر المرجع السابق ص ٢٣

(٣) البيان المغرب جـ ١ ص ٢٤

(٤) البيان المغرب جـ ١ ص ٢٥

فهزمته ، (١) بعد أن هدمت مدينة « باغية » وأخرجت منها الروم حتى لا يتحصن بها حسان ، فارتد حسان إلى برقة وانتظر فيها بأمر الخليفة ، وأقام حسان ببرقة خمس سنوات ، حيث أقام قصوراً ، ولا يزال مكان إقامته يعرف إلى الآن بقصور حسان (٢) .

وخلال هذه الفترة تحكمت الكاهنة في جميع بلاد المغرب ، فلما رأت إبطاء العرب عنها قالت للبربر : إن العرب إنما يطلبون من أفريقية المدائن والذهب والفضة . ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعى ! فلا نرى لكم إلا خراب بلاد أفريقية كلها ، حتى ييأس منها العرب ، فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر ! (٣) .

وكانت هذه سقطة وقعت فيها الكاهنة ، فإنها بعد أن وجهت قومها للتدمير والتخريب ، أثارت البربر البرانس والروم ، فاستغاثوا بحسان . انتهز حسان الفرصة ، واشترط على البربر الذين انضموا إليه . أن « يعطوه من قبائلهم اثنى عشر ألف مقاتل يجاهدون مع العرب (٤) » ، فأجابوه

---

(١) كانت الكاهنة قد أسرت ثمانين رجلا من أعيان أصحاب حسان ، وأحسنت معاملتهم وأعادتهم إليه باستثناء خالد بن يزيد ؛ فقد استدنته منها وقالت له : ما رأيت في الرجال أجمل منك ولا أشجع ، وأنا أريد أن أرضعك ، فتكون أخا لولدي ــ وكان لها ابنان أحدهما بربري والآخر يوناني ... ثم قالت له « نحن جماعة البربر لنا رضاع ، إذا فعلناه نتوارث به » . فعمدت إلى دقيق الشعير ؛ فلتته بزيت وجعلته على ثدييها ، ودعت ولديها وقالت : كلا معه على ثديي ! ففعلا ، فقالت : قد صرتم إخوة . ( البيان ج ١ ص ٢٧ )

(٢) البيان المغرب ج ١ ص ٣٥ ــ ٣٦ ؛ ابن عبد الحكم ص ٢٦٩ ؛ ابن الأثير ج ٤ ص ١٥٤ ؛ البلاذري ج ١ ص ٢٧٠ ، العرب والإسلام ص ٦٩ .

(٣) البيان المغرب ج ١ ص ٢٦ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٩ ، العبادي ص ٣٦ ــ ٣٧ ، ابن الأثير ج ٤ ص ١٤٧ ــ ١٥٤ ــ ١٥٥ .

وأسلموا على يديه ، وانتصر حسان على الكاهنة وقتلها ، وأخرج البربر مع العرب لقتال الروم « ومن كفر من البربر » (١) ، ثم انصرف حسان إلى القيروان ، بعد أن حسن إسلام البربر واستقامت له طاعتهم ، كان ذلك فى شهر رمضان سنة ٨٢ هـ / ٧٠١ م ، ولذلك يعتبر حسان الفاتح الحقيقى للمغرب ، فقد نظم الفتوح وصالح على الخراج ودون الدواوين . (٢).

ولما ولى موسى بن نصير أفريقية عام ٨٩ هـ / ٧٠٨ م سار على النظم التى وضعها حسان ، واقتفى أثره وسياسته فى اصطناع البربر ، وسوى بينهم وبين العرب فى المعاملة . واستأنف موسى عمليات الفتح ونجح فى إتمام فتح شمالى أفريقية حتى وصل إلى طنجة (٣) واستعمل عليها مولاه طارق ابن زياد .

وكانت سبته (Ceubta) قد صمدت أمامه بسبب قلاعها الحصينة ، غير أن تطور الأحداث قد أدى إلى ارتمائها فى أحضان العرب وإلى تسهيل مهمة عبورهم إلى أسبانيا ، هذه المدينة تتبع بيزنطة اسميا ، لكنها اعتمدت على مملكة القوط الغربيين عبر الزقاق (٤) .

وهكذا تم فتح شمالى أفريقية ، وهذا هو الفتح الكامل الحقيقى ، وهو

(١) البيان المغرب ص ٢٩

(٢) ابن عذارى جـ ١ ص ٣٠ — ٣١ ، ٣٣ — ٣٤

(٣) نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٧

(٤) ابن عذارى جـ ٢ ص ٩ ، العبادى ص ٤٣ ، دولة القوط الغربيين للمؤلف ص ١٢١ Dozy. Op. Cit. T. II, PP. 33 – 35 ; Scott, OP. Cit. p. 221

ليس من قبل الاحتلال أو الاستعمار ، لأن هذه النعوت ليست لها صفة الدوام أو الاستمرار أو التركيز ، هذا هو الفتح الحربي والمعنوي إلى أبعد الحدود ، فإن لغة الفاتح ودينه وعادته وثقافته ، حلت محل اللغة والدين والعادات التي كانت عليها البلاد المفتوحة ، بمعنى آخر ، هذا هو التعريب الصحيح ، فقد أضحى البربر عدة العرب في الفتوح ونشر الإسلام ، بل إن الجيش الذي عبر به طارق إلى الأندلس ، كان خليطاً من العرب والبربر ، وربما كان البربر العنصر الغالب فيه (١).

غير أن ساحل أفريقية الشمالي ، كان منذ أقدم العصور ، نقطة وثوب على أوروبا ، كما هو في نفس الوقت مطمع للوثوب عليه من الجانب الآخر من البحر (٢) ، فقد غزته روما قديما منذ عصور ما قبل الميلاد . وفي القرن الخامس الميلادي أعد ألاريك القوطي الجرماني ، ومخرب روما ، مشروع الغزو الأفريقي للحصول على غلات أفريقية . لولا موته الفجائي (٣) ، وهكذا فعل الوندال يوم عبروا الزقاق عام ٤٢٩ م . وأسسوا لهم مملكة في شمالي أفريقية . عمرت نحو قرن من الزمان (٤) . ومن بعدهم القوط الغربيون وهم في مملكتهم بأسبانيا .

---

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٢٢١ ؛ المبادي ص ٣٧ — ٣٨ . ابن عبد الحكم ص ٢٤٧.
Risler, J.C., La Civilization Arab, pp. 36-46 ; H. G. T. I, p. 444

(٢) Bury, J., Op. Cit., p. 80

(٣) انظر : Moss, OP. Cit., p. 46 ; Lot, Op. Cit. p. 77 ; Hodgkin, T., Italy & Her Invaders, Vol. I. pp. 806-809 , Bradley, Pp. 87-81

(٤) انظر : شمالي أفريقية والوندال المؤلف ؛ Oman, Op. Cit., p. 253
Leclercq, Op. Cit, P. 363 ; Watils, Op. Cit. P. 17

ووثب هانيبال العتيق من شمال أفريقية ودمر أسبانيا الرومانية ، كما ضرب إيطاليا . وها هم أولاء العرب المسلمون يتهيئون لغزو أوروبا الجنوبية من هذا الساحل ، وذلك فى نهاية القرن الأول البحرى ومطلع القرن الثامن الميلادى .

والمتواتر فى الكتب العربية والأجنبية . أن كونت يوليان (Juliann) حاكم سبتة قد استعدى العرب على القوط بسبب اعتداء لوذريق ، ملك القوط المغتصب ، على عفاف ابنته (١) ، وأنه هو الذى زين للعرب فتح أسبانيا (٢) ويقال إن أبناء الملك المخلوع وتيزا Wetiza ، وهو المعروف فى الكتب العربية باسم غيطشة (٣) قد اتصلوا بيوليان . واتفقوا معه على أن يتصل بالعرب ، للاستعانة بهم ضد المغتصب لوذريق (٤).

والراجح أن العلج « يوليان » (٥) أدرك أن العرب قد صاروا قوة لا يمكن الوقوف أمامها ، ورأى من الحكمة وبعد النظر أن يصطنع هذه

---

(١) هناك بعض الشك فى قصة اعتداء لوذريق على ابنة يوليان ، ويقول قلة من المؤرخين إنها أسطورة .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١١٦

(٣) ذكره ابن القوطية باسم غيطشة ، وسماه القلقشندى غطشة ، وفى غيرهما غيطشة ( ابن القوطية ص ٢٨–٢٩ ، صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٤١ ، ابن خلدون ج ١ ص ٣٦٥ ، ابن الأثير ج ٤ ص ١٢١ – ١٢٣)

(٤) نفح الطيب ج ١ ص ٢٣١ – ٢٣٢ ، ٢٤٩ ؛ أخبار مجموعة ص ٥ ، ابن عذارى ج ٢ ص ٩ ، مؤنس : فجر الأندلس ص ٥٧ – ٦٦
Scott, I. pp. 217 – 219 ; De Marlès p. 62

(٥) ابن عذارى ج ٢ ص ٦

القوة الجديدة الفتية ليحتفظ بولايته فى سبته . ومن ناحية أخرى ليدرك ثأره من حادث الاعتداء على ابنته (١) ، يضاف إلى ذلك ، صلته الوثيقة بالأسرة المالكة القديمة التى أزالها لوذريق. كذلك اتصل بالعرب انتقاماً لعرضه ونصرة للأسرة المخلوعة .

والذى لاشك فيه أن العرب جاءوا إلى أسبانيا بنية الفتح لابنية إمداد غيرهم . فلم يكن الغزو المأجور من شأن العرب . ولم تجر بذلك عادة فى فتوحهم السابقة . ووقائع الفتح تثبت هذا بما لايقبل التأويل ، ولعل أصدق دليل على ذلك تلك الحملة البحرية التى أرسلها أبو المهاجر دينار والى أفريقيا فى عام ٥٦ هـ/٦٧٥ م . لغزو شواطىء أسبانية . حيث تصدى لها أسطول القوط (٢) وتلك الحملة البحرية التى أرسلها موسى بن نصير لغزو جزيرة ميورقة عام ٨٩ هـ - ٧٠٨م بقيادة ابنه عبدالله (٣).

وأياكانت الأسباب . فالثابت أن يوليان اتصل بطارق بن زياد والى مرطانية من قبل موسى بن نصير . فأوصله طارق بدوره عام ٩١ هـ/ ٧١٠م إلى موسى . فاستشار موسى الخليفة الوليد بن عبد الملك (٤) . فأشار الوليد بأن يكون حذرا فى مشروعه . ومما جاء فى كتاب الخليفة « خضها بالسرايا

---

(١) ابن عذارى جـ ٢ ص ٦ ؛ العبادى ص ٤٨ ؛ العرب والإسلام ص ٧٦ — ٨٠

(٢) العبادى ص ٥٢ ؛ Direnne, H., Mohammed Charlemagne P. 156, Do De Marlés PP. 64 - 66. Deanesly, P. 108. Diehb, P. 580, Leclercq. P. 862

(٣) ابن الأثير جـ ٤ ص ٢٢١ ، انظر مايلى

(٤) اختلفت الأقوال فى طريقة استشارة موسى للخليفة ، فهناك من يقول إنه كتب إليه يستشيره ، وهناك من يذكر أنه شخص بنفسه ( ابن عذارى جـ ٢ ص ٦ )

ولا تغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال ، راجعه موسى : « ليس ببحر زخار . وإنما هو خليج يتبين للناظر ماخلفه »(١)

وبموافقة الوليد . أرسل موسى سرية بقيادة رجل من مواليه البربر ، هو طريف بن مالك . ويكنى أبازرعة . وتتكون السرية من مائة فارس وأربعمائة راجل ، وقدم يوليان السفن اللازمة لنقل هذه القوة عبر الزقاق . نزلت القوة الإسلامية فى رمضان عام ٩١ هـ / ٧١٠م على الشاطئ الأسبانى ، فى المكان المعروف اليوم ، باسم رأس طريف Tarifa ، أو جزيرة طريف ، نسبة إليه(٢) . وعادت الحملة غانمة ، يقول الحميرى : « فأصاب سبياً لم ير موسى ولا أصحابه مثله حسناً ، ومالا جسيما وأمتعة »(٣) .

اطمأن موسى بن نصير إلى جانب يوليان(٤) ، واستوثق من حال أسبانيا القوطية ، وأرسل جيشاً كبيراً مؤلفاً من اثنى عشر ألف مقاتل ، أكثرهم من البربر(٥) ، واختار لقيادة هذا الجيش مولاه طارق بن زياد ،

---

(١) الروض المعطار ص ١٢٧ ، ابن عذارى جـ ٢ ص ٦ ، نفح الطيب جـ ١ ص ١١٨

(٢) الروض المعطار ص ١٢٧ ، ابن عذارى جـ ٢ ص ٦ . تقويم البلدان ص ١٦٥

(٣) الروض المعطار ص ١٢٧ . العبادى ص ٤٩ ، نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٦
De Maries, PP. 66 - 68 Levi - Provencal, op. 8-9 ; Scott, p. 224

(٤) ذكر المقرى أن يوليان « عاود القدوم على موسى بن نصير محركا فى الاقتحام على أهل الأندلس » ، وشجعه بالنصر الذى ظفر به طريف . (نفح الطيب جـ ١ ص ١١٩ )

(٥) نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٧

وكان موسى قد بلى قدرته وكفايته فى الحروب السابقة[١]. نزل طارق بجيشه . فيما يسمى الآن « جبل طارق » ، نسبة إليه ، ويسميه العامة : « جبل الفتح »[٢] .

وكان لوذريق فى ذلك الوقت يحارب البشكنس Basques والفرنجة Franks فى الشمال ، فلما علم بنزول العرب ، أسرع نحو الجنوب .

وفى يوم الأحد ، لليلتين بقيتا من شهر رمضان عام ٩٢هـ / ١٩ يوليو عام ٧١١ م ، التقى طارق بجيش القوط الغربيين الذى كان يفوق الجيش الإسلامى من حيث العدد[٣] ، التقى الجيشان فى وادى نهر لكه Lakko أو فحص شريش Xeres أو Jepez De la Frontera[٤] ، كانت روح الجيش القوطى المعنوية منحطة ، بسبب كثرة ما فيه من العبيد والأرقاء ، كما كان به نفر من الأسرة المالكة القديمة وأنصارها ، ويقال إن لوذريق ، اتصل بأبناء غيطشه ، ودعاهم لمناصرته ضد العرب ، فى هذا الوقت العصيب ، فقدم هؤلاء ، ولكنهم أضمروا الغدر به ، واتصلوا بطارق ، قبيل الوقعة ، وأعلموه ، أن لوذريقا إنما كان كلباً من كلاب أبيهم وأتباعه ، وطلبوا منه ، أن « يمضى لهم ضياع أبيهم بالأندلس ، وكانت ثلاث آلاف ضيعة ، سميت

---

(١) المبادى ص ٤٩ De Marles, pp. 67 - 68.

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ١٣ ، نفح الطيب ج ١ ص ١٠٧ ، الروض المعطار ص ١٢١

(٣) بلغ جيش القوط نحو أربعين ألف مقاتل ( نفح الطيب ج ١ ص ١٠٨ )

(٤) الروض المعطار ص ١٠٢ ، ١٦٩ — ١٧٠ ، تقويم البلدان ص ١٦٥ ، أخبار مجموعة ص ٨ ، مؤنس : فجر الأندلس ص ٧٣ ،

Levi - Provencal p.8; Pirenne, Moh. & Charl., p. 155

بعد ذلك صفايا الملوك ، فلما أصبحوا ، انحازوا بمن معهم إلى طارق ، فكانوا سبب الفتح »(١).

ثم إن وجود عدد كبير من كبار أنصار غيطشة ، فضلا عن بعض أقربائه بجيش لوذريق ، كان من بين أسباب هزيمة القوط ، فقد كان هناك الأسقف أوباس Uppas أحد إخوة غيطشة ، وسيسبرت Sisebert أسقف طليطلة المعزول ، وهو من أقرباء الملك المخلوع . ترك هذا الفريق مواقعه فى أثناء القتال ، فدارت الدائرة على القوط (٢) .

استولى المسلمون على أشبيلية Seville وقرطبة Cordova وطليطلة العاصمة Toletum ، غير أن النصر النهائى لم يكن قد تم بعد ، إذ جمع لوذريق فلول جيشه وعاد يهدد طليطلة التى اتخذها العرب عاصمة لهم ، وحينئذ طلب طارق نجدة من موسى ، فأنجده بجيش استولى به على عدة مدن مثل مارده Marida وغيرها عام ٧١٣م(٣) .

لحق موسى بطارق ، واشترك معه فى فتح بقية أسبانيا ، وليس حقاً ما قيل إنه حقد على طارق وأراد أن يقاسمه شرف النصر والفتح . يقول المقرى « وكتب طارق إلى موسى بن نصير بالفتح وبالغنائم . فحركته

---

(١) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٩

(٢) ابن القوطية ص ٣٢ ــ ٣٤ ، العرب والإسلام ص ٨١ وما بعدها ،

Watts, P. 16 ; Dozy, II, pp. 33 - 35 ; Leclercq, p. 369

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٨ ، الروض المعطار ص ١٨ ــ ٢٢ ، ١٥٣ ــ ١٥٨ ؛ ١٧٥ ــ ١٧٧ . ابن القوطية ص ٣٢ ــ ٣٥

الغيرة . وكتب إلى طارق يتوعده إن توغل بغير إذنه . ويأمره ألا يتجاوز مكانه »(١) . والواقع أن أبا عبد الرحمن موسى بن نصير شعر بالمسئولية والتبعية . وخشى من اندفاع الجيش الإسلامى ، معتزاً بنصره ، حتى لا تنقطع عليه خطوط الرجعة(٢) . ويؤيد ذلك ما ذكره ابن عذارى من أن موسى « إنما فعل ذلك به — أى أمر طارقاً بالتريث حتى يقدم — لتقدمه دون رأيه ، وهو مولاه ، وعلى توغله بالمسلمين وتغريره بهم »(٣).

حدث بعد ذلك ، أن ثارت المدن الكبرى ضد السيادة العربية الإسلامية الجديدة . مثل أشبيلية وطليطلة وغيرهما ، فاضطر العرب إلى فتحها من جديد(٤).

أما أبناء الأسرة المالكة القديمة . وأسرة يوليان . فقد استمالهم العرب وأرضوهم بالأموال والقصور والإقطاعات ، فقد اتصل أبناء غيطشة بطارق بعد الفتح ، فأوصلهم إلى موسى بن نصير ، وهذا أوصلهم بدوره إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك بدمشق ، حيث تلقاهم بالترحاب والإكرام ، وأنفذ لهم عهد طارق فى ضياع والدهم ؛ وعقد لكل واحد منهم سجلا بضياعه . ومما ورد فى هذه السجلات :

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٨ ، ١٢٦ ؛ ابن عذارى ج ٢ ص ٢٣ — ٢٤ ؛ ابن القوطية ص ٣٥

(٢) العبادى ص ٥٠ — ٥١ ؛ أخبار مجموعة ص ١٥ — ١٨
De Marlès PP. 97 - 100 Lane-Poole, St., The Moors in Spain. pp. 23-27

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣

(٤) ابن عذارى ج٢ ص ٢٢

« ألا يقوموا إلى داخل عليهم ولا إلى خارج منهم »(١) . عادوا إلى الأندلس ؛ وتسلموا ضياعهم . ومن سلالتهم سارة المعروفة بالقوطية . وهى جدة المؤرخ أبى بكر محمد بن عمر المعروف بابن القوطية(٢).

كذلك أرضى المسلمون النبيل القوطى « ثيوديمر Theudemer » حاكم مورسية Murcia ؛ وهو الذى دافع بشجاعة عن بلاده ؛ فأكبر فيه العرب شجاعته ؛ وأقره موسى على البقاء فى حكومة إقليمة ؛ مع تبعيته للمسلمين . وظل على ذلك حتى مات . وحينئذ . ضم العرب « أرض تدمير » — كما كانوا يسمونه ؛ أو « مملكة تدمير » (٣) . ولتدمير هذا كتاب صلح ، كتبه له عبد العزيز بن موسى بن نصير ؛ خلال ولايته على الأندلس . حدد فيه حقوقه والتزاماته . ونسخة هذا الكتاب :

---

(١) ابن القوطية ص ٣٠ ، ٦٠ — ٦١

(٢) أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم الأندلسى الأشبيلى الأصل ، القرطبى مولدا ، صاحب كتاب « تاريخ افتتاح الأندلس » ، نسب إلى جدته سارة القوطية ، وبها اشتهر ، وهذه الجدة هى ابنة وامبا Wamba أو « وبه » كما تكتبها المراجع العربية ، ووامبا هو ابن غيطشة ملك أسبانيا ، ووفدت هذه الابنة على هشام بن عبد الملك متظلمة من عمها أرطباس بن غيطشة ، فتزوجها بالشام عيسى بن مزاحم ، من موالى عمر بن عبد العزيز ، وسار معها إلى الأندلس حيث طالت حياتها إلى أيام عبد الرحمن الداخل الأموى وغلب اسمها على ذريتها ، حتى عرفوا بها ( انظر : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٥ ، ٣١ — ٣٢ ؛ نفح الطيب ج ١ ص ١٢٥ ، شكيب أرسلان : غزوات العرب ص ٢٠ — ٣١ ( عن ابن خلكان ) .

(٣) الروض المعطار ص ١٨١ — ١٨٣ ؛ فجر الأندلس ص ١١٢ — ١١٤ ، صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٣٠ ، أبو الفداء : تقويم البلدان ص ١٣٤ ، ابن عذارى ج ٢ ص ١٦ — ١٧ ؛ دولة القوط الغربيين للمؤلف ص ١٢٩ ؛ Lévi - Prov., T.I, PP. 81 - 2

« بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن عبدوش(١) .

« إنه نزل على الصلح ؛ وأن له عهد الله وذمته ، وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ألا يقدم له ولا لأحد من أصحابه ، ولا يؤخر ، ولا ينزع من ملكه ، وأنهم لا يقتلون ولا يسبون ، ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا تحرق كنائسهم ، ولا ينزع عن كنائسه ما يعبد . وذلك ما أدى الذي اشترطنا عليه . وأنه صالح على سبع مدائن : أريولة وبلنتية ولقنت ومولة وبلانة ولورقة وألة(٢) . ولا يأوى لنا آبقاً ولا يأوى لنا عدواً ، ولا يخيف لنا آمناً ، ولا يكتم خبر عدو علمه . وأن عليه وعلى أصحابه ديناراً كل سنة وأربعة أمداد قمح(٣) وأربعة أمداد شعير ، وأربعة أقساط طلاء وأربعة أقساط خل ، وقسطى عسل وقسطى زيت ، وعلى العبد نصف ذلك ، وكتب في رجب سنة ٩٤ من الهجرة (٤) :

---

(١) يقال إن تدمير هـذا هو ابن إرجوبادو Ergobados أحـد كبار قواد غيطشة ، وعبدوش أو غندوش هو تحريف كلمة إرجوبادو ، ويجوز أن يقرأ غوبادوش أوجوبادوش ( فجر الأندلس ص ١١٢ ، Lévi - Prov. I, P P. 32 - 33

(٢) Orihuela, Baltana, Alicante, Mula, Villena, Lorca & Elle.

(٣) المدياوى رطلا وثلثا بالبغدادى — الرطل البغدادى يساوى ١٣٠ درهما — ويساوى رطلين بالمصرى ، ويعتبر أقل من الربع المصرى ، وهو عبارة عن ملء كفي الإنسان المعتدل بالحبوب إذا مدهما ، ومن هنا جاءت التسمية بالمد ، وقد جرب الفيروز أبادى ، صاحب القاموس المحيط ، ذلك فوجده صحيحا . ( انظر القاموس المحيط ، وانظر ابن مماتى ص ٢٤١ )

(٤) الروض المعطار ص ٦٢ — ٦٣ ، المغرب في حلى المغرب ( تحقيق شوقى ضيف ) ص ٢٤٣ — ٢٤٤ — والمخطوطة ، جـ ٤ ورقة ١٠٣

« شهد على ذلك عثمان بن أبى عبدة القرشى وحبيب بن عبيدة الفهرى . وعبد الله بن ميسرة الفهمى وأبو قائم الهذلى »(١) .

وتدمير هذه هى التى أطلق عليها اسم « مصر » لكثرة شبهها بها فى الخصب والزراعة(٢) . ويقال إن هذه التسمية حدثت زمن ولاية أبى الخطار فى عام ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م . حين كثر أهل الشـــام عنده ولم تحتملهم قرطبة ففرقهم فى البلاد . وأنزل أهل دمشق إلبيره(٣) وسماها دمشق لشبهها بها ، وأنزل أهل حمص أشبيلية وسماها حمص ، وأهل قنسرين جيان (٤) ، وسماها قنسرين وأهل الأردن ريه(٥) ومالقة وسماها الأردن ، وأهل فلسطين شذونه(٦) وهى شريش (٧) وسماها فلسطين ، وأهل مصر تدمير وسماها مصر (٨) .

---

(١) هذه التكملة عن فجر الأندلس ص ١١٥ .

(٢) نفح الطيب حـ ١ ص ١٥٥ ، ابن عبد الحكم ص ٢٨٠ ، Lane - Poole, op. Cit. P. 25; De Marlès, PP. 69 - 73, Albert de Circourt, Histoire des Mores Mudejares et des Morisques ou des Arabes d'Espagne T. I, PP. 1-7 .

(٣) Elvira

(٤) Jaén

(٥) هذا الاسم أطلقه المسلمون فى أسبانيا على منطقة مالقة ، ومالقة هى عاصمة هـذه المنطقة ، ويحتمل أن كلمة ريه محرفة عن العاصمة اللاتينية Regio.

(٦) Sidona

(٧) Jerez De la Frontera وهى من كور شذونه .

(٨) نفح الطيب حـ ١ ص ١١٠ ، ابن عذارى حـ ٢ ص ٤٨ ــ ٤٩ ، أعمـال الأعـلام ص ٧ ، ابن القوطية ص ١٩٣

وتم فتح أسبانيا فى خلال أربع سنوات من ٩١ هـ — ٩٥هـ / ٧١٠ — ٧١٤م ، وأضحت أسبانيا الإسلامية جزءاً من إمارة المغرب ، والمعروف أن ولاة المغرب ، هم الذين تولوا أمر الفتح ، كما أن ولاية المغرب نفسها ، كانت فى كثير من الأحيان تابعة لولاية مصر ، وكان هذا الشطر من العالم الإسلامى واسع الرقعة ، يكاد يكون إمبراطورية قائمة بذاتها ، غير أن أسبانيا الإسلامية أخذت تكون شخصيتها تدريجيا وتستقل بشئونها ، حتى إنه خلال عهد الإمارة (٩٥ — ١٣٨ هـ / ٧١٤ — ٧٥٥ م) ، صار المسلمون بها يختارون الوالى عليهم ، أو يختاره عامل مصر وأفريقية أو عامل أفريقية وما على الخليفة إلا أن يوافق (١) .

فمثلا ، عن ولى إمرة الأندلس باختيار أهلها ، أيوب بن حبيب (٩٧ هـ / ٩٨ هـ) ، وعبد الرحمن الغافقى فى ذى الحجة ١٠٣ هـ ، ويحيى بن سلمة الكلبى بعد وفاة عنبسة سنة ١٠٧ هـ ومحمد بن عبدالله الأشجعى الذى مكث فى الولاية شهرين سنة ١١١ هـ ، وثعلبة بن سلامة العاملى الذى ولاه أهل الشام بالأندلس عام ١٢٤ هـ ، ويوسف بن عبد الرحمن الفهرى (١٢٩ — ١٣٨ هـ) . ومن الولاة الذين تولوا أمر الأندلس ، بأمر عامل أفريقية أو عامل مصر وأفريقية : الحر بن عبد الرحمن الثقفى سنة ٩٩ هـ ، وعنبسة بن سحيم الكلبى فى صفر ١٠٣ هـ وأبو الخطار حسام بن ضرار من قبل حنظلة ابن صفوان عامل أفريقية سنة ١٢٥ هـ ، وعقبة بن الحجاج السلولى الذى

---

(١) عبادى ص ٥٨ ، ٦٢ ، Wahl. op. Cit. P. 47ss. Albert. op. Cit., P. 276 sqq

ولاه عبيد الله بن الحبحاب عامل مصر وأفريقية فى شوال عام ١٢١ هـ ، وهكذا ... (١).

* * *

على أن السيادة الإسلامية فى هذه البقعة من أوربا ، لم تكن منبسطة على جميع أجزائها ، فقد بقيت الأقاليم المتطرفة التى لم يعن العرب بفتحها بعيداً عن السيادة الإسلامية الفعلية ، وذلك لفحولتها وبرودتها ووعورة مسالكها ، فكانت ولاية أشتوريا Asturias قد احتفظت باستقلالها تحت حكم سادة من القوط الغربيين . وهؤلاء السادة يعتز ملوك أسبانيا المتأخرون بالانتساب إليهم، ويفخرون بأنهم من سلالتهم ، وحتى فى العصر الحاضر كانت الأسر النبيلة فى أسبانيا تفخر ببقاء عنصرها القوطى ، وإن لم يكن هذا صحيحا فى جميع الأحوال .

حقيقة أن العرب المسلمين لم يقضوا على القوط الغربيين ، سادة أسبانيا السابقين ، ولم يطردوهم كما طرد الإمبراطور جستنيان أشقاءهم القوط الشرقيين من إيطاليا قبل ذلك بما يقرب من قرنين ، بل ظل القوط الغربيون خاضعين لسلطان المسلمين ، كما خضعت بقية أسبانيا المسيحية ، واندمج القوط مع السكان الأصليين حتى صار العنصران شعباً واحداً ، ويمكن القول إنه منذ دخول العرب أسبانيا ، صار تاريخ القوط هو التاريخ القومى لأسبانيا (٢).

---

(١) انظر ابن عذارى ج ٢ ص ٣٠ — ٥٢ ، نفح الطيب ج١ ص ١١٠ ، أعمال الأعلام ص ٦ — ٧ ، العبادى ص ٦٢

(٢) دولة القوط الغربيين للمؤلف ص ١٢٨ — ١٢٩

وكانت ولاية أشتوريا ، التى بقيت بمعزل من سلطان المسلمين ؛ النواة التى نمت حولها قوة المقاومة المسيحية الوطنية فى أسبانيا ، حتى اتسعت رقعة المنطقة المسيحية تدريجيا ، فشملت جليقية Galicia (١) ثم اندمجت جليقية وأشتوريا فيما عرف باسم مملكة قشتالة وليون فى فجر القرن العاشر الميلادى ؛ كما قامت مملكتا نافار وأرجون فى منطقة الحدود عند سفح جبال البرانس .

(١) يطلق العرب على سكان جليقية اسم الجلالقة نسبة إلى الإقليم ، وهؤلاء الجلالقة ليسوا سوى السويف Suevi الجرمان الذين دخلوا أسبانيا فى مطلع القرن الخامس الميلادى واقتسموا البلاد مع غيرهم من العناصر الجرمانية ، واندمجوا مع السكان الأصليين ( انظر الروض المعطار ص ٦٦ – ٦٧ ، Ir ge, op. Cit. Vo. I, P. 185, Courcelle, op. Cit., P. 8, Leclercq, op. Cit., PP. 213 – 216

# الفصل السادس

## كيف بسط المسلمون نفوذهم في فرنسا

تفكير موسى بن نصير في عبور البرانس — السمح وفتح سبتمانيا (جوثيا) عام ٧٢١ م — أربونه قاعدة العمليات الحربية الاسلامية في أرض الفرنجة — عنبسة وحوض الرون واقترابه من باريس. عذرة الفهري ومساعدة بعض الفرنجة له — مبالغة المراجع اللاتينية وتحيزها — الغافقي ووادي الجارون — بلاط الشهداء (٧٣٢ م) — البروفنسيون يساعدون المسلمين — تغير الأحوال في الشرق بقيام الخلافة العباسية وفي الغرب بقيام الكارولنجيين — بين أبي جعفر المنصور وبين القصير — شارلمان وأحلامه الامبراطورية — اجتماع بادربورن ٧٧٧ م — كارثة رونسفال ٧٧٨ م — أغنية رولاند — صقر قريش والكارولنجيون ـ قصة الحماية الرمزية على القدس — قلعة فراكسينيتوم وامتداد الغزو الاسلامي الى سافوى — التحكم في معابر الألب — غزوات مجاهد العامري .

جاءت محاولة العرب فتح فرنسا ، من أهم أحداث عهد الإمارة الإسلامية ، فى أسبانيا ( ٩٥ — ١٣٨ ﻫ / ٧١٤ — ٧٥٥ م ) ، وقد فكر موسى بن نصير فى عبور البرانس [ البرت [١] ] والاندفاع فى غربى أوربا وبسط السيادة الإسلامية على فرنسا . ويطلق العرب على فرنسا اسم « الأرض الكبيرة » ، كذلك كان من أهداف ابن نصير الاتجاه شرقاً بعد إتمام فتح فرنسا ، والاستيلاء على روما أو القسطنطينية ، وأمنية المسلمين فى فتح القسطنطينية ، معقل الروم ، أمنية قديمة ملحة ، فقد تكررت المحاولات لفتحها من جهة المشرق ، غير أن مناعة أسوارها ، وموقعها الحصين ، حالا دون الاستيلاء عليها [٢] .

خشى الخليفة الوليد بن عبد الملك من أن يغتر موسى بنصره ، فيغرر بالمسلمين فى أرض واسعة ، وطريق وعر ، لم يقطعه فاتح من قبل . فلم يحدث أن اخترق أوربا جيش موحد من أقصى الغرب فى شبه جزيرة أيبريا إلى

---

(١) عبرت المراجع العربية عن جبال البرانس باسم جبال البرت ( راجع تقويم البلدان ص ١٦٩ )

(٢) نفح الطيب حـ ١ ص ١٠٨ ، ابن الأثير حـ ٥ ص ١١ ، العبادى ص ٥٣ ، العدوى : الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم ص ٦٥ — ٧٠ ، أسد رستم: الروم حـ ١ ص ٢٩٢ — ٢٩٦ ، أومان : الإمبراطورية البيزنطية — ترجمة بدر — ص ١٤٥ — ١٤٨ ، C. Med H. Vol. IV P. 3 Vassilies, of Cit. P. 235 .

شاطيء البحر الأسود ، دفعة واحدة ، ومن ثم استدعى موسى ومولاه طارقاً إلى المشرق(١) .

واستخلف موسى على الأندلس ابنه عبد العزيز (٩٥ هـ/ ٧١٣م) وترك معه حبيب بن أبي عبيدة بن أخت عقبة بن نافع « وزيراً له ، ومعيناً » ، اتخذ عبد العزيز أشبيلية قاعدة للإمارة ، وفتح الجزء الجنوبي الشرقي من من أسبانيا . وتذكر المراجع أنه تزوج من أرملة لوذريق ، وهي أيله أو أيلونا التي كنيت بأم عاصم ، Egilone حظيت عنده هذه الزوجة ، حتى أغرته بأن يأخذ أصحابه بالسجود له ، فرفض لأن ذلك يخالف الإسلام فما زالت به حتى فتح باباً قصيراً لمجلسه ، فكان الداخل عليه من هذا الباب يضطر إلى طأطأة رأسه ، حتى يصير كالراكع ، فرضيت بذلك . ثم أغرته بعمل تاج من ذهب ، وأخيراً ثار عليه المسلمون وقتلوه عام ٩٧ هـ/ ٧١٦م ، إذ دخل عليه زياد بن عذرة البلوي في مسجد أشبيلية وعلاه بالسيف قائلا : « قد حقت عليك يا ابن الفاعلة » ، ويقال إن الخليفة سليمان بن عبد الملك بعث إلى الجند في قتله ، فقتلوه (٢) .

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٩ ، ٢٩ — ٣٠ ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٤ ، ابن عذارى جـ ٢ ص ٢٩ — ٣٠ ، ابن القوطيـــة ص ٣٦ ، ٢١٣ — ٢١٧ ، العبادى ص ٥٣ ؛ De Marles, PP. 110 - 111 ; Scott. I. P P. 254 - 56.

(٢) ابن عذارى جـ ٢ ص ٣٠ — ٣٢ ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٦٣ ، ابن الأثير جـ ٥ ص ٨ — ٩ ، أخبار مجموعة ص ٣٠ — ٣١؛ ابن عبد الحكم ص ٢٨٥ — ٢٨٦ ، ابن القوطية ص ٣٧ — ٣٨ ، ١٧٩ — ١٨٢ ، فجر الأندلس ص ١٢٩ — ١٣٣ ، Levi - Prov T. I. PP. 33 - 4 ;

ظلت فكرة عبور البرانس إلى الأرض الكبيرة ، تراود قادة المسلمين في أسبانيا ، حتى كانت ولاية السمح بن مالك الخولاني عام ١٠٠ هـ / ٧١٩م وكان مثل الخليفة عمر بن عبد العزيز ، والسمح من أفاضل عرب أفريقية ، ومن خيرة الولاة الذين تولوا أمر الأندلس(١) . وبولايته ، عاد الحماس إلى الجند الإسلامي ، وكان قد فتر على أثر استدعاء موسى بن نصير وطارق بن زياد ، وما لحق بهما في دار الخلافة (٢) .

والسمح هو الذي نقل العاصمة الإسلامية في أسبانيا إلى قرطبة ، بعد أن كانت في طليطلة — عاصمة القوط القديمة — ثم أشبيلية — زمن عبد العزيز بن موسى — ، واستمرت قرطبة عاصمة الأندلس حتى نهاية الدولة الأموية في الأندلس ، وتقع هذه المدينة على الضفة الشمالية لنهر الوادي الكبير Guadalquivir (٣) .

حقق السمح الفكرة التي دارت برأس موسى بن نصير من قبل ، وقام على رأس جيشه في عام ٧٢١م وفتح إقليم سبتمانيا Septemania ، وهي منطقة ساحلية تمتد من البرانس غرباً إلى مصب نهر الرون شرقاً ، وتتصل بما يعرف اليوم باسم الرفييرا الإيطالية(٤) . ثم هي تطل على البحر الأبيض

---

(١) ابن الأثير جـ ٥ ، ٢٢ Levi-Provencal; T. I, pp. 80 – 81

(٢) ابن القوطية ص ٣٦ ، ١٥٩ — ١٦١

(٣) انظر الروض المعطار ص ١٥٣ — ١٥٨

(٤) فجر الأندلس ص ٢٤٩

جنوبي فرنسا ، وعرفت بهذا الاسم لاشتمالها على سبع مدن أو سبعة أقسام إدارية(١) . كذلك عرفت منطقة سبتمانيا باسم « جوتيا » Gothia نسبة إلى القوط . إذ كانت من بقايا مملكة الغربيين . وكان يتحكم فيها يومئذ جماعة من نبلاء القوط . وعاصمتها أربونة Narbonne (٢) .

استولى السمح على هذه العاصمة بعد حصار دام شهراً . وذلك عام ٧٢١ م . وغنم المسلمون الكثير من الأموال والتحف ، ويرجع أغلب هذه الكنوز والتحف إلى رجال الدين الذين هربوا من أسبانيا ، عقب الفتح الإسلامي لها . فقد حملوها معهم وأودعوها المؤسسات الدينية في هذه المدينة وغيرها (٣) . وساعد على سقوط أربونة في يد المسلمين ؛ أنها مفتوحة من جهة البحر ؛ فتيسر وصول الإمدادات إلى القوة المحاصرة من أسبانيا .

اتخذ السمح أربونة قاعدة لعملياته الحربية في فرنسا ؛ ودعم حصونها وشحنها بالحاميات . ولا يزال يوجد بهذه المدينة شارع ينسب إلى السمح يعرف باسم شارع السمح Rue de Zama (٤) . وكذلك أقام السمح الحاميات في المدن المجاورة(٥) .

---

(١) راجع ماسبق .

(٢) انظر الروض المعطار ص ١١–١٢ ؛ تقويم البلدان ص ١٤٧

(٣) Scott, I; p. 276

(٤) أرسلان ، غزوات العرب ص ٦٣–٦٤

(٥) العرب والإسلام ص ١١–١٣ [illegible] Pirenne, p. [illegible] ; Lane-Poole, op. cit. p. [illegible]

تتبع السمح مجرى الجارون واتجه غرباً ، وفتح جميع ما صادفه من المدن والحصون مثل بيزيى Beziers وماجلون Maguelonne . وهذه المدينة الأخيرة عرفت باسم « ثغر المسلمين » Part Sarrasin(١) . ثم فتح قرقشونة Carcassonne وسار حتى وصل إلى طولوشة Toulouse عاصمة أكويتانيا . غير أن طولوشة قاومت الحصار الذى ضربه السمح حولها . كما نصب حولها المنجنيقات . ظلت هذه المدينة تقاوم حتى وصل الدوق أود Eudes الفرنجى . حاكم أكويتانيا(٢) . على رأس جيش ضخم . وأخذ السمح يشد من أزر رجاله ، ويقرأ قوله تعالى : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » .

وقعت معركة عنيفة ، أصيب فيها السمح بطعنة قضت عليه أواخر عام ١٠٢ هـ / ٧٢١ م (٣) ؛ ففت ذلك عضد الجند ، وحينئذ ارتدوا عن

---

(١) Deanesly, p. 296

(٢) الدوق أود حاكم أكويتانيا من سلالة الفرنجة الميروفنجيين ملوك فرنسا ، وكان شبه مستقل بدوقيته أما ملوك الفرنجة المعاصرون لهذه الفترة التى تم فيها فتح أسبانيا وفتح جنوبى فرنسا منهم :

شلدبرت الثالث Childebert III ( ٦٩٤ـ٧١١ م ) وحكم فى نستريا ، داجوبرت الثالث Dagobert III ( ٧١١ـ٧١٥ م ) وحكم فى نستريا ، شلبريك الثانى Chilperic II ( ٧١٥ـ٧١٨ م ) فى نستريا ثم فى كل فرنسا ( ٧١٩ـ٧٢١ ) ، تيرى الرابع Theirry IV ( ٧٢٠ـ٧٣٧ م ) على كل فرنسا ، شلدريك الثالث Childeric III ( ٧٤٣ـ٧٥١ م ) وهو آخر ملوك الميروفنيين .

انظر ) Pirenne. P. 156 Deanesly. P. 283 ; H. G. T. I. P. 468

(٣) نفح الطيب ( الطبعة الجديدة ) ج ١ ص ٢١٩ ، ابن عذارى ج ٢ ص ٣٤ـ٣٥

طولوشة . وكان رجال الدين المسيحيون قد أثاروا حماس مواطنيهم ضد المسلمين ، ويقال إنهم حجبوا مواطنيهم بالتعاويذ والأحجبة التى باركها البابا ، وليس صحيحاً ما ذكره بعض المسيحيين من أن أحداً لم يقتل ممن يحمل تلك الأحجبة (١) .

جاءت وقعة طولوشة ، أول نكسة للعرب فى أوربا ، فعادت فلول الجيش الإسلامى بقيادة عبد الرحمن الغافقى الأزدى إلى قاعدة أربونة ، وكان استيلاء المسلمين على طولوشة يمكنهم من التحـــكم فى وادى نهر الجارون وفى الحدود الشمالية لمقاطعة غشقونيا Gascony (٢) .

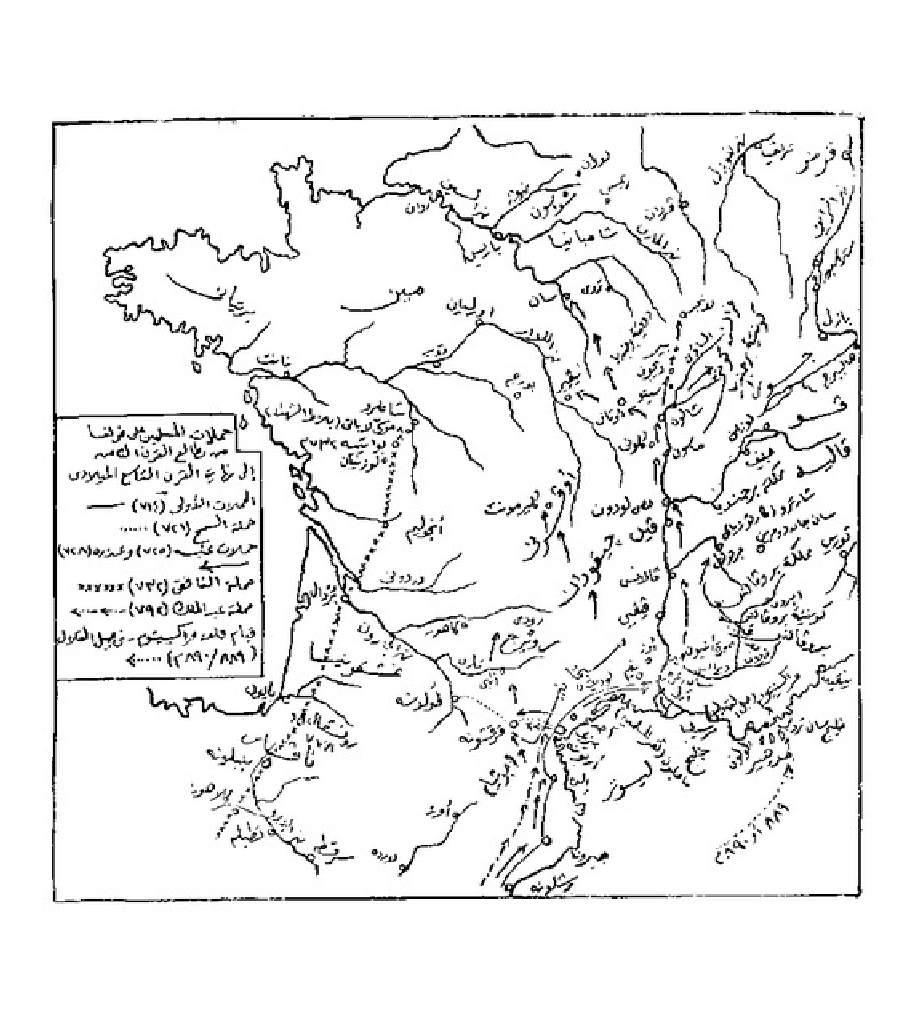
خلف السمح على إمارة أسبانيا ، عنبسة بن سحيم الكلبى من قبل يزيد بن أبى مسلم عامل أفريقية . عام ١٠٣ هـ / ٧٢١ م ، وواصل أمر الغزو فى فرنسا الجنوبية ، غير أنه لم يسر فى الاتجاه الذى سلكه السمح ، بل سار على الساحل حتى وصل إلى نهر ردونة Rhodonus ( الرون ) ، وأعاد الاستيلاء على بعض البلاد مثل قرقشونة ، وهذه صالحه أهلها على نصف أعمالها ، وعلى جميع من فيها من أسرى المسلمين ، وتعهدوا بدفع الجزية والالتزام بأحكام أهل الذمة ، من محاربة من حاربه المسلمون ومسالمة من سالموه . ثم أخذ منها عنبسة بعض الرهائن ، وأرسلها إلى برشلونة (٣) .

---

(١) Scott, P. 277

(٢) Deanesly P. 286

(٣) نفح الطيب ( الطبعة الجديدة ) حـ ١ ص ٢١٩ — ٢٢٠ ؛ ابن الأثير حـ ٥ ص ٤٥ ؛ Levi .. Provencal, I pp. 58 .. 59


حملات المسلمين على فرنسا
من طالع القرن الثامن
إلى نهاية القرن التاسع الميلادي
حملة السمح (٧٢١)
حملة الغافقي (٧٣٢)
حملة عبد الملك (٧٩٣)
قيام قلعة فراكسينتوم
(٨٨٩/٨٩٠م)

واجتاح العرب بعد ذلك مقاطعات نيم Nimes و پى Puy وكليرمونت Clermont (١)، ولما اقتربوا من دير موناستيى Monastier فى منطقة فالى Valey ، جمع رئيس الرهبان ، وهو القديس شافر St. Chaffre ، رهبانه وأمرهم بالفرار بنفائسهم إلى الغابات المجاورة ، وظل هو بالدير على أمل هداية الغزاة . أولعله يكون فى تضحيته بنفسه خلاص لرعيته ، وأن يسكن الغضب الإلهى الذى حل بسبب أخطاء البشرية . فلما وصل العرب إلى الدير ، لم يجدوا به سوى هذا القديس ، فضربوه وتركوه . فمات بعد قليل ، ويحتفل بعيد هذا القديس فى ١٩ أكتوبر من كل سنة (٢).

استمر عنبسة فى زحفه الظافر ، وأغار على منطقة دوفينى Dauphine وعاصمتها جرنوبل ، كذلك أغار على برجنديا ، وعلق بعض المعاصرين على هذه الغزوة الكاسحة ، بأن الله قذف فى قلوب الكفار الرعب . فلم يتصد أحد منهم للمسلمين إلا لطلب الأمان (٣).

اجتاح العرب بعد ذلك مدينة أوزه Uzes وفيين Vienne ، ونواحى فالنسى ووصلوا إلى مدينة ليون Lyon ، ويسميها العرب حصن لودون، (٤)

---

(١) ارتبطت مدينة كليرمونت بالحروب الصليبية منذ أواخر القرن الحادى عشر حين عقد البابا أربان الثانى فيها المجمع المشهور عام ١٠٩٥ م وهو المجمع الذى تقررت فيه الدعوة فى الحروب الصليبية .

(٢) أرسلان : غزوات العرب ص ٧٦ـ٧٧ ، Demarles, PP. 127..130

(٣) أرسلان ص ٧٧ ( عن رينو )

(٤) Lévi ·Provencal, T. I, P. 54

وكذلك زحفوا على مدينة ماسون Macon وشالون Chalon ، والأخيرة على نهر انساءون (١). وأخضعوا بعد ذلك مدينة بون Bon ، وتقع على بعد ٣٨ كم إلى الجنوب الشرقى من ويجون ، ووصلوا فى تقدمهم إلى مدينة أوتان Outun فى أعالى الرون ، وغنموا الكثير من كنوز الكنائس والأديرة ، وبعثوا بسراياهم إلى جهات اللور ونيفير Nevers ثم كونتية برجنديا التى عرفت فيما بعد باسم فرانش كونتى France Conte (٢)، ولا تزال آثار عربية وأسماء عربية توجد إلى اليوم فى فرانش كونتى (٣) .

لم يجد المسلمون مقاومة إلا فى مدينة سانس Sens ، الواقعة على بعد ثلاثين كيلو متراً جنوبى باريس ، ومدينة سانس عاصمة إقليم يونه Yonnd ، وفيها تصدى إيبون Ebbon أسقف المدينة ، للزحف الإسلامى ، واستعد له من قبل ، فحصن المدينة وحشد مواطنيه ، فهبوا معه لحماية مدينتهم ، ونجحوا فى وقف الزحف العربى (٤) .

ويبدو أن عنبسة بن سحيم الكلبى ، أدرك بعد هذا التقدم الظافر، الذى جعله يقترب من باريس ، أنه توغل فى قلب فرنسا أكثر مما ينبغى ، فخشى ألا يستطيع تأمين خطوط عودته ، ثم إنه سمع فى ذلك الوقت بانبعاث العصبية فى أسبانيا، ووقوع الخلاف بين العرب والبربر. ولو لم تجتمع هذه

---

(١) فجر الأندلس ص ٢٤٧

(٢) Brouke, P. 95

(٣) أرسلان ٧٩

(٤) فجر الأندلس ص ٢٤٧ ؛ أرسلان ص ٧٩ — ٨٠

الأحوال فى ذلك الوقت ، لما انصرف عن فتوحه الموفقة فى غالة ، بعد أن أدرك هذا النصر العظيم (١) .

لم يكن عنبسة حذراً فى طريق عودته ، فداهمته جموع كبيرة من الفرنجة والتحم معها فى وقعة أصيب فيها بجراح بالغة ، توفى على أثرها فى شعبان ١٠٧هـ/ ديسمبر ٧٢٥م (٢) ، فعادت فلول الجيش الإسلامى بقيادة عذرة بن عبد الله الفهرى إلى أربونة (٣) .

وقد خلف عذرة الفهرى عنبسة فى ولاية الأندلس، قدمه أهل الأندلس عليهم حتى جاء الوالى المعين من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك وظل عذرة فى ولاية الأندلس سنتين وثلاثة أشهر (شوال ١٠٧هـ — ربيع أول ١١٠هـ / فبراير ـ مارس ٧٢٦ ـ يونيه / يوليه ٧٢٨م)(٤) .

واصل عذرة جهاد سلفه فى بلاد غالة . وبعد أن جاءته الأمداد من الأندلس . اقتحم سبتمانيه مرة أخرى . ودخل حوض الرون . وغزا

---

(١) فجر الأندلس ص ٢٤٧ .. ٢٤٨

(٢) فجر الأثير حـ٥ ص ٥٤ ؛ ابن عذارى حـ ٢ ص٣٦ ؛ فجر الأندلس ص ٢٥٤

(٣) تشير المراجع الأجنبية إلى عذرة هذا باسم Hodera أو Hudeyra ( راجع do .. 127 .pp ,De Marlès ؛ نفح الطيب حـ ١ ص ١٠٩ ، ابن عذارى حـ ٢ ص ٣٧ ؛ العبادى ص ٥٦ ؛ فجر الأندلس ص ٢٥٥ ؛ المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ٦٧ ؛ العرب والإسلام ص ١١٧ — ١٢٠

(٤) كان الوالى المعين على الأندلس من قبل الخليفة هشام : يحيى بن سلمة الكلبي ( انظر ابن عذارى حـ ٢ ص ٣٧ ؛ أعمال الأعلام ص ٦ ؛ العرب والإسلام ص ١٢١ )

الألبيين Les Allbegeois واقتحم إقليم روبرج Le Rouergue وجيفودان Gevaudan وليفليه Levelay واحتل حصن روكبريف Roqueprive فى مقاطعة رودس Rhodes . وفى هذه المنطقة انضم إليه عدد كبير من أهلها وزحفوا معه . فاتسع مجال الغزو والهجوم (١) .

وقد بالغ رينو Rein aud فى وصف تخريب العرب واعتداءاتهم على الكنائس والأديرة . والثابت المعروف أن هدف المسلمين لم يكن حرق الكنائس والأديرة ، لأنه بمقارنة المسلمين بالشعوب التى كانت تسود غالة فى تلك الحقبة ، من فرنجة وقوط غربيين وشرقيين وبرجنديين ومن إليهم يتبين أن المسلمين كانوا أعظمهم حضارة وأبعدهم عن النهب والتخريب . هذا وقد أشارت النصوص التى وردت بالمراجع اللاتينية إلى أن الذين خربوا هذه الأماكن وغيرها هم الوند Uandes والوندال Uandali والجندال Gandali . فجاء مؤرخو الكنيسة وقالوا إن المراد بهذه الألفاظ هم المسلمون وتابعهم رينو وغيره من المؤرخين المحدثين . مما يدل على التعسف وعدم الدقة . ولاسيما أن هذه التسميات بعينها . أطلقت بعد ذلك على المجرمين الذين خربوا هذه النواحي زمن شارل مارتل وبيبين وشارلمان . ولو أن رينو عاد بعد ذلك وتشكك فى أن المسلمين هم الذين قاموا بهذا التخريب (٢)

---

(١) أرسلان ص ٧٣ — ٧٧ ( عن رينو ) ، فجر الأندلس ص ٢٥٧ — ٢٥٨ ؛ العرب والإسلام ص ١٢٠ — ١٢١

(٢) من هذه المراجع : Lecointe, P.. Annales Ecclesiastica Francoum, IV, PP. 728 sqq., 795, sqq.; Mabillon, Acta Sanctorum Benedictini, II, PP. 627, Sqq. ( عن فجر الأندلس ص ٢٥٨ — ٥٩ )

بل إن الفرنجة أنفسهم . بقيادة عاهلهم الأكبر وهو قارله (شارل مارتل) نهبوا الكنائس واستولوا على كنوزها وخربوها فيما بعد وقعة تور (١) .

* * *

وقف أمر الغزو عند هذا الحد . حتى ولى الأندلس عبد الرحمن ابن عبدالله الغافقى (١١٢-١١٤ هـ / ٧٣٠-٧٣٢م) . وكانت ولايته الأندلس من قبل والى أفريقية عبيد الله بن الحجاب . والغافقى هو الذى كان قد ولى أمر الجيش الإسلامى بعد ما حاقت الهزيمة بالسمح بن مالك الخولانى فى وقعة طولوشة عام ١٠٣هـ/ ٧٢١م ونجح فى الانسحاب الأمين (٢) .

والغافقى معروف بالشجاعة وقوة الشكيمة وحسن القيادة . وربما كان أقدر قائد عسكرى عرفته الأندلس فى عصر الولاة ، غير أن الظروف لم تتكافأ مع عبقريته الحربية ، وكانت وقعة طولوشة قد تركت أثراً شديداً فى نفسه ، فعلمته الحذر والحيطة ، كما أشعلت الحماس فى قلبه للثأر لما أصاب المسلمين من هزيمة (٣) .

---

(١) Scott, 1,P. 811 ، انظر ما يلى ، وانظر العرب والإسلام ص ١٣٣ ـ ١٣٤

(٢) تولى أمر الأندلس بعد عنوة فى الفترة ـ مابين وفاته ١١٠ هـ / ٧٢٨ م إلى ولاية الغافقى عام ١١٢ هـ / ٧٣٠ م خمسة ولاة هم : يحى بن سلمة الكلبى ثم حذيفة بن الأحوص القيسى ثم عثمان بن أبى نسعة الخثعمى ، ثم الهيثم بن عبيد الكلابى ثم محمد بن عبد الله الأشجعى الذى ولى شهرين خلال عام ١١١ هـ ( ابن عذارى جـ ٢ ص ٣٧ ـ ٣٨ ، ابن القوطية ص ٣٩ ، ١٣٩ ، أعمال الأعلام ص ٦ ، نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٩ )

(٣) العبادى ص ٥٦ ، فجر الأندلس ص ٢٦١ ـ ٢٦٣ ، Scott, I, ; PP. 392 .. 6

استعد استعداداً كبيراً لغزو فرنسا . وأعلن الدعوة للجهاد الإسلامى فى سبيل الله . وأعلن هذه الدعوة فى أفريقية ، كما أعلنها فى الأندلس ، فتدفق عليه المتطوعون من كل ناحية ، وتجمع لديه عدد ضخم من القوات (١) وبدأ تحركه بعبور جبال ألبرت فى أوائل سنة ١١٤هـ / ٧٣٢م .

وفى الأرض الكبيرة ، استعد أود Eudes دوق أقطانية (أكويتانيا) للقاء العرب . وكان هذا الدوق خلال السنوات العشر الأخيرة السابقة لوقعة بلاط الشهداء (٧٢١ - ٧٣٢م) قد دأب على حماية دوقيته بشتى الوسائل . منها إثارة الخلاف بين العرب والبربر فى أسبانيا ، ومنها عقد زيجة سياسية مع الزعيم البربرى عثمان بن أبى نسعة Neza - ويسميه الفرنج تسمية محرفة هى مونوزة Munuza (٢) الذى ولى الأندلس فترة قصيرة تقدر بنحو خمسة شهور أو ستة خلال عام ١١٠ هـ ؛ وهو مشهور بالبسالة والنجدة فى الحروب ، غير أن أصحابه حقدوا عليه ، فسعوا إلى الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ / ٧٢٤ — ٧٤٣ م) فعزله ، وولى بعد عزله حكم منطقة البرانس ، وكان يعرف بأمير الثغر ، والمقصود بالثغر مدينة الباب ، الواقعة فى أحد ممرات جبال البرانس ، ويظن أنها مدينة بى سردا Puy Cerda أو مدينة شرطانية Cerd ana أو Cerrit ania غربى

---

(١) قيل إن القوات التى تجمعت للغافقى بلغت مابين ٧٠ إلى مائة ألف مقاتل ( فجر الأندلس ص ٢٦٣ )

(٢) Deanesly, P. 286 ؛ أرسلان ص ٨٦ حاشية ٢ العرب والإسلام ص ١٢٧ — ١٢٨

إقليم روسيون Rousillon قرب بى سرده . وهذه تابعة لأسبانيا ، وفى شمالها حصن يظن أنه كان مقرا لأمير الباب من قبل المسلمين (١)

كان ابن أبى نسعة ، قد أسر ابنة الدوق أود فى إحـــدى غزواته ، واسمها نيمورانس Numerance أو منين Minine أو لامبيجى Lampégie ، وقـــد تزوجها وهادن الدوق وأمنه من غارات المسلمين ويقال إنه كان لايفارقها ولا يرى الدنيا إلا بها ، وذلك لفرط جمالها (٢) ، وتشبه هذه الزيجة زيجة عبد العزيز بن موسى بن نصـــير من أرملة لوذريق ، على أنه يغلب على رواية زواج ابن أبى نسعة من ابنة أود أنها موضوعة (٣)

ولذلك ، عندما صدر أمر عبد الرحمن الغافقى لأمير الثغر بمحاربة الدوق ، حاول ابن أبى نسعة أن يؤجل الحرب لارتباطه بالدوق بالمصاهرة والعهد الذى بينهما ، عرف عبد الرحمن زواجه من ابنة الدوق وأفهمه بأن العهد الذى عقده معه دون علمه لا يلزمه ، وعليه أن يتحرك للجهاد دون مراجعة . فلم يسع ابن أبى نسعة إلا أن نبه صهره للخطر الذى يوشك أن يداهمه ، وأظهر عصيانه ، وحينئذ أرسل الغافقى جيشا بقيادة ابن زيان ، للقبض على أمير الثغر ، الذى هرب مع أنصاره وزوجته إلى الجبال ، تتبعه الجيش وقبض عليه وقتله واحتز رأسه وأرسله إلى عبد الرحمن (٤) . وكذلك

---

(١) أرسلان ص ٨٨ حاشية ٥ ، Dozy, I ; Deanesly, P. 286

(٢) أرسلان ص ٨٨ حاشية ٥

(٣) انظر العرب والإسلام ص ١٢٥ ، ١٢٧ ـ ١٢٨ ؛ Lévi Prov. I. PP. 60 .. 1

(٤) Deanesly, P. 286

إليه زوجة أنفتيل ، ويقال إن عبد الرحمن الغافقي صاح عندما رآها ، وقد هاله جمالها : « والله ما كنت أظن أن يوجد مثل هذا الصيد في جبال ألبرت » وأرسلها هدية إلى الخليفة هشام بدمشق حيث تزوجها (١)

كان القضاء على أبي نسعة وثورته في عام ٧٣١ م (٢) ومن ثم تحرك الغافقي لغزو فرنسا . وعبر جبال ألبرت في أوائل صيف عام ٧٣٢ م من ممرات رونسفالة (٣) . واتجه شرقا . في جنوبي غالة ، ليضلل الفرنجة عن وجهته الحقيقية . وهي دوقية أكويتانيا . وأخضع مدينة أرل Arelatum التي خرجت عن طاعة المسلمين وتوقفت عن دفع الجزية (٤) وبعد أن تم له ذلك وأمن ظهره . اتجه نحو الغرب لمداهمة دوقية أقطانيا . واجتاح في طريقه غشقونيا Gascony والتقى بالدوق عند التقاء الجرون بنهر دوردني Dordogne . وانتصر انتصارا كبيرا على الدوق . وكان عدد قتلى الفرنجة في هذه الوقعة أكثر من أن يحصى (٥) . حتى قال المؤرخ إيزيدور الباجي Isidoro Pacense : إن الله تعالى وحده هو القادر على إحصائهم . (٦)

---

(١) أرسلان ص ٨٨ — ٨٩ ؛ انظر فجر الأندلس ص ٦٨ ، ١٠٦ ، ٢٥٠ — ٢٥٢

(٢) Deanesly, P. 286 ; De Marlés PP. 160 ... 186

(٣) انظر ما يلي

(٤) فجر الأندلس ص ٢٦٥ ; Albert, PP. 8 .. 17

(٥) Scott, I, P. 207

(٦) عبارة إيزيدور : " Deus Numerum morientum Vel Pereuntium recognoscat. "

( عن فجر الأندلس ص ٢٦٦ حاشية ١ )

تقهقر الدوق عن عاصمته بردال Bordeoux . ومضى الغافقى فى طريقه متتبعا مجرى نهر الجارون . واكتسح فى طريقه جميع ما صادفه من عقبات. حتى استولى على بردال بعد مقاومة قصيرة (١) ودخلها ونهبها (٢) . واندفع المسلمون شمالا فى السهل المتسع الذى يحده شمالا نهر اللوار وجنوبا نهر الجارون . ووصلوا إلى مدينة بوايتيه ؛ ونهبوا كنيسة القديس هليرى St. Hilary . ثم استعدوا لنهب كنيسة القديس مارتن St. Martin فى تور Touro (٣) . ثانى مدن الدوقية . بعد العاصمة بردال (٤)

ولما بدا عجز الدوق أود واضحا ، استصرخ بقارله ( شارل مارتل ) حاجب قصر الميروفنجين . وكان قارله ابن بيبن هرستال صاحب الأمر والنهى فى دولة الفرنجة الميروفنجيين ، الذين ضعفوا فى ذلك الوقت . إن ضعفهم بدأ منذ وفاة الملك داجوبرت الأول Dagobert I ( ٦٢٩ — ٦٣٩ م ) حتى اشتهر الملوك الذين خلفوه باسم « الملوك الضعفاء » . أما ملك الفرنجة (٥) المعاصر فى ذلك الوقت فهو تيرى الرابع Thiery Iv ( ٧٢٠ — ٧٣٧ م ) .

---

(١) Scott, I. P. 207

(٢) فجر الأندلس ص ٢٦٦ ؛ De Marlés, P. 139 ; Levi - Provencal, I. PP. 60 - 61

(٣) Dennesiy P. 256

(٤) فجر الأندلس ص ٦٦

(٥) Mott & Dee , Middle Ages, PP. 28 - 32 ; راجع ما سبق عن الفرنجة Scott. I, PP. 299 - 303,

إلى قارله الندا. . وكان من قبل لا يلتفت جديا لحركات العرب في جنوب فرنسا ، نظرا للخلاف الذى بينه وبين دوق أكويتانيا ومطامع شارل في الدوقية ، وقد أورد المقرى نصا . لتعليل تردد شارل قبل هذا التاريخ ، قال :

« اجتمعت الفرنجة إلى ملكها الأعظم قارله ، وهذه سمة لملكهم . فقالت له : ما هذا الخزى الباقى فى الأعقاب ! كنا نسمع بالعرب . ونخافهم من مطلع الشمس ، حتى أتوا من مغربها ، واستولوا على بلاد الأندلس ، وعظيم ما فيها من العدة والعدد ، بجمعهم القليل وقلة عدتهم ، وكونهم لا دروع لهم »

فأجابهم بما معناه :

« الرأى عندى ألا تعترضوهم فى خرجتهم هذه ، فإنهم كالسيل يحمل ما يصادفه ، وهم فى إقبال أمرهم ، ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد ، وقلوب تغنى عن حصانة الدروع . ولكن أمهلوهم حتى تمتلىء أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ، ويتنافسوا فى الرئاسة ويستعين بعضهم على بعض ، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر .. »

قال المقرى : « فكان والله كذلك بالفتنة التى طرأت بين الشاميين والبلديين (١) ، والبربر والعرب ، والمضرية واليمنية ، وصار بعض

---

(١) المقصود بالبلديين العرب القدماء الذين جاءوا من المدينة بصفة خاصة ومن الحجاز بصفة عامة وأسهموا فى الفتح الأول ، واستقروا فى المناطق الخصبة الجنوبية من أسبانيا ، لأنهم السابقون فى الفتح والاستقرار ، وعرفوا بالبلديين تمييزا لهم عن الهجرات التى طرأت على الأندلس بعد ذلك ( العبادى ص ١٥٨ ، فجر الأندلس ص ٣٥٦ )

المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الأعداء » (١)

أدرك شارل مارتل أن خطر المسلمين أصبح مباشراً على مملكة الفرنجة بعد أن تقدموا هذا التقدم فى فرنسا . واجتاحوا معظم أكويتانيا . وأدرك حاجب قصر الفرنجة كذلك أن العرب سوف لا يقفون عند حد إخضاع دوقية أكويتانيا . لذلك استجاب إلى نداء الدوق، وأنهى حروبه ضد الفريزيين Frisii والسكسون والبافاريين .

كان الجيش الإسلامى يختلف عن جيش شارل من حيث السلاح والزى والفن الحربى (٢) . والتقى الفريقان فى المعركة المشهورة بين مدينتى تور وبواتييه . على مسافة ٧٠ كم جنوبى نهر السين . كان عبد الرحمن الغافقى قد حاصر تور واستولى عليها ودخلها عنوة على مشهد من جيش أعدائه (٣) .

استمرت المعركة ثلاثة أيام أو سبعة . ورغم تفوق جيش الفرنجة من حيث العدد إلا أن الروح المعنوية فى الجيش الإسلامى تفوق نظيرتها عند الفرنجة، أحسن العرب البلاء فى القتال . لولا وقوع أمر أدى إلى هزيمتهم، ذلك أن دوق أكويتانيا عرف نقطة ضعف فى الجيش الإسلامى ، وعمل على استغلالها ، وهى شدة حرص العرب على الغنائم التى ظفروا بها ،

---

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ١٢٦

(٢) انظر : تاكيتوس والعرب الجرمانية (ترجمة الوقف) ص ٥٠ ـ ٥٢ ، ٦٠ ـ ٦١ ، العبادي ص ٥٧ ـ ٥٨

(٣) أرسلان ص ٩٠ ؛ Dr. Mazl : PP. 110 _ 142

وحملوها معهم ووضعوها وراء خطوطهم(١) أراد الدوق أود أن يشغل المسلمين بغنائمهم ، وكانوا مثقلين بها ، لعل ذلك يخل بنظامهم فى أثناء القتال فقام بحركة التفاف سريعة وهاجم مؤخرة الجيش العربى حيث توجد الغنائم ، ولقد كان ما أراد الدوق ، فقد اختل نظام الجيش الإسلامى ، بأن تراجع جانب منه لإنقاذ الغنائم ، بينما بقى الجانب الآخر يقاتل .

حقيقة ، فكر عبدالرحمن الغافقى فى أمر الغنائم من قبل أن يقوم الدوق بحيلته، ففى أول المعركة، أوشك أن يأمر جيشه بتركها ، لكنه خشى بطش الجيش وتقاعسه وغضبه . فأذن له فى حفظها وهو كاره . فلما رأى عبدالرحمن وقوع الخلل بسبب حركة الدوق أود ، حاول أن يصلح الأمر ؛ فتعرض للقتال أكثر مما يجب . وقتل فى المعركة . وذلك فى رمضان ١١٤ هـ / أكتوبر ٧٣٢ م (٢) .

وبذلك أمسى الجيش الإسلامى من غير قائد . ففت هذا فى عضد الجند وأخذه أعداؤه من كل جانب حتى قتل عدد كبير من المسلمين ، وعادت فلوله مستترة تحت جنح الظلام فى غير نظام ، تريد النجاة . ولما أصبح شارل مارتل . لم يجد أمامه جيشاً يقاتله . فاكتفى بذلك ولم يطارد الجيش المنهزم

---

(١) Scott. I, PP. 304 .. 305

(٢) العبادى ص ٥٩ ، نفح الطيب جـ ١ ص ٢٢٠ ( الطبعة الجديدة ) ، العرب والإسلام ص ١٢٨ — ١٣٤ ، أرسلان ص ٩١ ، فجر الأندلس ص ٢٧٤ — ٢٧٥
Deanesly P. 286 ; Lane Poole. op, Git PP. 29..30. Pirenne. A History of Europe. P. 64 ; Lévi Provencal. I. PP. 61-62. Pirenne Moh. & chal. P. 156.

إذ خشى أن تكون مكيدة مدبرة لجره إلى كين ، على عادة العرب ولذلك اكتفى بهذا النصر وعاد إلى بلاده .

هذه هى وقعة «بلاط الشهداء» وسميت كذلك لكثرة من استشهد فيها من المسلمين . ومكانها هو المعروف اليوم باسم Moussais - la. Bataille والمقصود بلفظة «بلاط» فى مصطلح مسلمى الأندلس : قصر أو حصن حوله حدائق تابعة له ، وهذه الكلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية بلاتيوم Palatum ، وعلى هذا ، فبلاط الشهداء معناها : قصر الشهداء مما يفهم منه أن مكان الموقعة كان إلى جوار قصر أو حصن كبير (١) .

وقد بالغ المسيحيون فى تقدير عدد القتلى من المسلمين ، حتى أوصلهم فشر Fisher مثلا ، إلى ٣٧٥ ألف ، نقلا عن بولس الشماس (٢) . وهذا بطبيعة الحال غير معقول . فليس من اليسير وقتذاك حشد مثل هذا العدد أو ما يقاربه ، على كثرة الحروب القائمة فى ذلك الوقت ، فضلا عن صعوبة التموين والمواصلات .

على أن وقعة بلاط الشهداء تعتبر فاصلة فى التاريخ العام ، من وجهة النظر الأوربية . فقد ترتب عليها تغيير مجرى التاريخ إلى حد كبير . وقد عرض أكثر من مؤرخ لهذه الوقعة . فقال جيبون Gibbon إنه لو انتصر العرب فى تور بواتييه لتلى القرآن وفسر فى أكسفورد وكمبردج . أما فشر Fisher

---

(٢) فجر الأندلس ص ٢٧١

(١) فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ( ترجمة زيادة والباز ) ص ٦٧ .

فقد قارن بين انتصار الفرنجة هذا على العرب وبين انتصار البيزنطيين على المسلمين عام ٧١٧ — ٧١٨ م وذكر أنه لو دخل العرب القسطنطينية لوجدوا بين مسيحى شرق أوربا ، مجالا للدعوة الإسلامية ، وذلك بالقياس إلى نجاح العثمانيين فى القرن الخامس عشر ، ولذلك يسهل تخيل نجاح المسلمين الدينى قبل العثمانيين بسبعة قرون . حين كانت الشعوب البلقانية والروسية لا تفقه من المسيحية إلا نزراً يسيراً . ولا تدرى من النظم والمعتقدات الدينية إلا قليلا . على عكس غرب أوربا حيث اصطدم المسلمون بقوة مسيحية منظمة أركانها على شيء كثير من تراث الإمبراطورية الرومانية وجبروتها القديم . ولو تم لهم النصر فرضاً فى تور . لحال بينهم وبين فتح فرنسا وتحويلها إلى الإسلام ،عقبات دونها عقبات (١) .

لم تحل هذه الصدمة دون إعادة الكرة على فرنسا ، إذ إن الهزيمة وحدها لم تكن لتوقف العرب عند هذا الحد ، بل كانت لهم بعد كرات أعقبها النصر والفتح . غير أن أهمية وقعة تور ترجع إلى أن العرب ارتدوا عن فرنسا ولم يحاولوا إخضاعها إخضاعاً تاما ، فضلا عن أن الأحداث فى هذا الجزء الغربى من العالم الإسلامى ارتبطت إلى حد كبير بالأحداث التى تقع فى مركز الخلافة فى شرقيه (٢) .

---

(١) شمر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ( ترجمة زيدة والباز ) ص ٦٦ — ٦٧ ؛

(٢) العبادى ص ٦٠ .

أسرع والى أفريقية عبيدة بن عبد الرحمن وأرسل مددا بقيادة عبد الملك بن قطن الفهرى ، خلفا لعبد الرحمن الغافقى ، ثم بعث بخبر الفاجعة إلى الخليفة الأموى هشام (١٠٥ — ١٢٥هـ ٧٢٤ — ٧٤٣ م ) ومافعله ، فأمره الخليفة بغزو فرنسا وأخـــذها بالسيوف من كل جانب ، توجه عبد الملك أول الأمر إلى نواحى شمالى الأندلس وهاجم قطالونيا ، وقاعدتها برشلونة ، وأرغون ونبره ( نافار ) ، ثم عبر البرتات ، واتجه إلى لانجدوك Lunguedoc — وهذه المنطقة عبارة عن كونتية تولوز وماركة جوثيا أوسبتمانيه — وحصن المعاقل التى لاتزال بأيدى المسلمين . وكانت سبتمانيه فى ذلك الوقت فى فوضى واضطراب بسبب الحروب المتوالية وهزيمة المسلمين فى بلاط الشهداء ، وحاول بعض زعمائها انتهاز فرصة هذه الاضطرابات وتوزيع البلاد فيما بينهم ، بعد أن تلاشى أمر الدوق أود ، وأدى ذلك إلى صراع بينهم مما جعل بعضهم يرتمى فى أحضان المسلمين خشية وقوعهم تحت سلطة قارله أو سلطة الدوق أود (١) .

والواقع أن أهالى جنوبى فرنسا ، رغم انتصارات قارله على المسلمين ، كانوا يكرهون الفرنجة لأنهم برابرة فى نظرهم ، على حين أن أهالى جنوبى فرنسا تشبعوا بالحضارة الرومانية . وكان هناك خلاف جوهرى بين جنوب فرنسا وشمالها ، فبينما تسود الجنوب حضارة البحر الأبيض اللاتينية والبيزنطية تسود الصبغة الجرمانية شمالى فرنسا (٢) ، وهذا سر عدم ولاء

---

(١) فجر الأندلس ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .

(٢) Deanesly. P. 286

بروفانس والمواطنين فيها للفرنجة الجرمان ، وفضلا عن ذلك ، فإن قارله ، عندما استرجع أملاك الكنائس والأديرة التي كانت بحوزة المسلمين ، لم يردها على أهلها ، بل وزعها على رجاله ، وأكثر من ذلك ، لم تسلم كنوز الكنائس من نهب قارله وجنوده (١) . مما أغضب القساوسة وعامة الناس (٢) .

ويفسر هذا تحالف مورون Mauront ، الذى اتخذ لقب « دوق مرسيليا » مع المسلمين ، وكذلك أسقف أوكسير Oukser وغيرهما ، وكان دوق مرسيليا يتحكم فى أغلب إقليم بروفانس (٣) .

اتفق دوق مرسيليا مع يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والى أربونة (٤) وزحفا معاً وعبرا نهر ردونه (الرون) واستوليا على أرل Orelatum عام ٧٣٥ م (٥) ، ثم حاصرت الجيوش المتحالفة مدينة فرتا Fretta ، وهى المعروفة اليوم باسم سان ريمى St. Remi ، ثم تقدمت هذه الجيوش

---

(١) Scott. I. P. 311

(٢) فجر الأندلس ص ٢٧٧ .

(٣) Deanesly. P. 286

(٤) صار يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والياعلى الأندلس فيا بعد ( ١٢٩ — ١٣٧ هـ / ٧٤٦ — ٧٥٤ ) وفى عهده كثرت الثورات والاضطرابات ( انظر ابن عذارى ج ٢ ص ٥٢ — ٥٦ ، فجر الأندلس ص ٢٢٠ وما بعدها ) .

(٥) Pirenne Moh. Ch. P. 156

واستولت على أفينيون Avenionun ، وهى التى يسميها العرب «صخرة أبنيون» (١) ، وتعرف اليوم باسم أفنيون Avignon (٢) .

وصل المسلمون إلى نهر ديرانس Durance ، أحد فروع الرون ، وهو الذى تقع عليه مدينة أفنيون ، عند نقطة اتصاله بالرون ، وظل المسلمون يتحكمون فى بروفانس أربع سنوات ، لم يجرؤ خلالها أحد على منازعتهم السلطان فيها (٣) .

أما شارله ، فقد زحف عام ٧٣٣م واستولى على لودون ( ليون ) Lyons (٤) ، وكان المسلمون قد تخلوا عنها بعد وقعة بلاط الشهداء كما تخلوا عن برجنديا . وفى عام ٧٣٥ م ، توفى الدوق أود ، ووافق شارله على أن يخلف هينود Hunaud ، أحد أبناء الدوق ، أباه فى منصب الدوقية ، مع تبعيته لشارل ، فأقسم هينود يمين الولاء له على النحو الإقطاعى ، إذ صار هينود فصلا أو تابعا Vassus لسيد الفرنجة ، علما بأن نظام التبعية الإقطاعية فى أوربا لم يكن قد نضج بعد (٥) .

اطمأن عبد الملك بن قطن الفهرى إلى نجاح قائده يوسف الفهرى ، فانصرف إلى تدعيم سلطان المسلمين فى إمارات جبال البرانس ، لكنه

---

(١) أرشيبالد لويس ص ١٩٩ ؛ Scott. I. P. 388

(٢) Pirenne op. cit. P. 156

(٣) فجر الأندلس ص ٢٧٨ ، المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ٦٨ .

(٤) Scott.I. P. 800

(٥) Deanesly. P. 286

هزم ، فولى الخليفة - مكانه - عقبة بن الحجاج السلولى عام ١١٦ هـ ، ٧٣٤ م ، والسلولى كما وصفه ابن عذارى « صاحب بأس ونجدة ونكاية للعدو وشدة ، وكان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه دين الإسلام ويقبح له عبادة الأصنام ، فيذكر أنه أسلم على يديه ألف رجل » (١) .

لم يجد عقبة بن الحجاج السلولى ، فى تصرفات سلفه عبد الملك بن قطن الفهرى ، مايؤخذ عليه ، فعهد إليه بقيادة الخيالة وأرسله إلى الثغر ، وأخذ يعد العدة لعبور البرانس (٢) . واشتعل حماس المسلمين للثأر لوقعة بلاط الشهداء ، وحصنوا ما بأيديهم من مدن غالة ، فى لانجدوك Languedoc حتى ضفاف الرون ، وشحنوها بالمقاتلة ، ثم اجتاحوا منطقة دوفينى Dauphine شمالى بروفانس وضربوا مدينـــة سان بول تروا شاتو : St. Paul - Trois - Chateautx ، واستولوا عليها كما استولوا على مدينة دونزير Donzère وتابعوا زحفهم نحو الشمال ، واستولوا على فالانس Valence على نهر الرون ، واستعادوا ليون وبرجنديا (٣) .

استعد شارل مارتل لاسترداد ليون وبروفانس وأفنيون ، وتعتبر الأخيرة مفتاح وادى الرون ، كذلك اعتزم الاستيلاء على مرسيليا ، فإلى جانب الأهداف السياسية التى حملت شارل مارتل على قتال العرب ،

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٤١ .

(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٩٣ ، أرسلان ص ٩١ - ٩٢ .

(٣) نفح الطيب ج١ ص ٢٢٠ (الطبعة الجديدة) ، مؤنس : فجر الأندلس ٢٨٠ - ٢٨١ ، أرسلان ص ١٠٤ ، Lévi Provençal I.P. 63

فهناك العامل الاقتصادى ، إذ كان تحكم المسلمين فى فرنسا الجنوبية ، يؤدى إلى ضيق اقتصادى شديد لبلاد غرب أوربا (١) .

تقدم شارل مارتل مع ابنه هلدبراند Hildbrand عام ٧٣٧ م ، وحاصر أفنيون حتى اقتحمها بعد أن استمات المسلمون فى الدفاع عنها ، ثم حاصر أربونة ، معقل العرب فى جنوبى فرنسا ، وأميرها يومئذ الهيثم ، Athima ، لكنه عجز عن فتحها ، إذ أسرع عقبة السلولى وأرسل جيشاً عن طريق البحر ، نجدة لأربونة ، فقد كانت المواصلات البحرية هى الوسيلة الأمينة بين مسلمى الأندلس وجنوبى فرنسا ، نظراً لخطورة الطرق البرية عبر البرانس ؛ غير أنه بوصول هذه النجدة ، باغتها شارل قبل أن تتهيأ للقتال وقضى عليها ، بحيث لم ينج منها إلا القليل ، الذى فر إلى أربونة أو عاد إلى البحر . صمدت أربونة للحصار حتى اضطر شارل إلى الرحيل عنها لتجدد ثورات الفريزيين والسكسون .

وقبل أن يرحل شارل ، خرب القلاع فى نيم Nimes وآجد Agde وبيزيى Bezies وماجلون Magallona ، وتعرف هذه المدينة الأخيرة باسم « ثغر المسلمين » إذ كانت مرسى أميناً للسفن الإسلامية القادمة من أسبانيا وأفريقية ، فكان تخريبه لها بقصد حرمان المسلمين من الإمدادات التى تصل عن طريقها (٢) .

---

(١) Deanesly .P. 287

(٢) مؤنس : فجر الأندلس ص ٢٨١ — ٢٨٤ ، أرشيبالد لويس ص ١١٨ ،
Deane., P. 287; Scot'.I. P. 311; Pirenne, op. cit' PP. 156 – 7

وخلال تلك الفترة ( ٧٣٢ – ٧٣٩ ) ثار موروندوق مرسيليا مرتين ضد الفرنجة ( ٨٣٨ ، ٨٣٩ م ) وجدد حلفه مع المسلمين الذين ساعدوه واضطر شارل مارتل أن يطلب المساعدة من ليتبراند Liutprand ملك اللومبادر . ولما تجددت الثورات المحلية فى جنوبى فرنسا عام ٨٤١ م تولى هلد براند ، وأخوه بيبين ( الذى عرف بالقصير ) قمعها ، وذلك قبيل وفاة شارل بشهور ( توفى شارل ٧٤١ م )(١) .

وبينما تلك الأحداث تجرى فى حوض البحر الأبيض الغربى ، كانت الدعوة العباسية تثير القلاقل فى المشرق الإسلامى ، وشغلت بها الخلافة الأموية فى أواخر عهدها ، فلم تتمكن من بذل العناية الواجبة بهذا القسم البعيد من العالم الإسلامى فى الغرب ، حتى كان أمر هذا القسم موكولا لأمراء أفريقية والأندلس وإمكانياتهم ، وإذا أضفنا إلى ذلك ثورة الخوارج فى أفريقية ، التى سببت الكثير من المتاعب للخلافة الأموية بعد عام ٧٤٠م ثم ثورة البربر ضد العرب فى أسبانيا وتكرارها عام ٧٤٠ ، ٧٤٢ م وقيام بعض القبائل العربية بالفتن فى أسبانيا عام ٧٤٥ ، ٧٤٦ م ، كل ذلك يفسر ما تتابع من بعض الهزائم فى فرنسا ، مما أثر على الروح المعنوية فى مسلمى الأندلس . ومن ناحية أخرى تنبه العالم الغربى إلى ما يكتنفه من خطر المسلمين .

وجاء ختام هذه الحوادث فى قيام الخلافة العباسية عام ١٣٢ هـ – ٧٥٠م وانتقال العاصمة الإسلامية أو مركز العالم الإسلامى من دمشق إلى بغداد

---

(١) Pirenne, P. 157; Deanesly, P. 287; Scott, P. 311

وذلك كله أدى إلى انقسام العالم الإسلامى(١) .

وبالمثل ، حدث تغير فى العالم الغربى ، فقد زالت الدولة الميروفنجية وقامت الدولة الكارولنجية ، إذ حدث بعد وفاة شارل مارتل فى أكتوبر من عام ٧٤١ م ، أن قسم النفوذ والسلطان فى مملكة الفرنجة بين أبناء شارل الثلاثة وهم : كارلومان Carloman وبيبين القصير وابن غير شرعى هو جريفو Grifo . وساعدت الظروف بيبين القصير حتى انفرد بالنفوذ عام ٧٤٧ م ، مع وجود ملك ميروفنجى ضعيف هو شلدريك الثالث Childeric III (٧٤٣ - ٧٥١م) . وفى زمن بيبين القصير - وعرف كذلك باسم بيبين الثالث - انتهى حكم الميروفنجيين وقامت أسرة جديدة هى الأسرة الكارولنجية بفضل دهاء بيبين القصير وقوته وتأييد البابوية له .

أرسل بيبين القصير فى عام ٧٥٠ م ، بعثة إلى البابا زكريا Zacharias مؤلفة من برخارد Berchard أسقف فرزبرج Wirzburg وفولراد Fulrad مقدم دير سانت دينس ، واستفتت البعثة البابا فى « أيهما أجدر بحمل صولجان الملك ؟ شلدريك الذى يتولى ولا يحكم ، أم بيبين الذى دعم ورعى جميع شئون المملكة ؟ » .

أجاب البابا : « باسم بطرس الحوارى ، أن بيبين هو الملك (٢) » . وتم

---

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٤٣ وما بعدها . المقرى و الآداب السلطانية ص ١٢٣ — ١٢٤ ، الطبرى ج ٩ ص ١٢٣ وما بعدها ، العبادى ص ٦٠ — ٦١ ، Deanesly, P. 294

(٢) انظر ماسبق (ص ٢٣) .

Lavisse, I, PP. 270-79; Funk Brentano P. 291; Deanesly, P. 291.

تتويج بيبين ملكا على الفرنجة فى كتدرائية سواسون Soissons على يد المبشر الإنجليزى بونيفاس Boniface ، وذلك فى خريف عام ٧٥١ م (١٣٣ هـ) ، ثم أعاد البابا تتويجه بنفسه بعد ذلك بثلاثة أعوام ، كما توج معه ولديه : شارل (شارلمان) وكارلومان ، ومنحه لقب « بطريق الرومان » .

ومن ثم تدعم مركز بيبين القانونى ، وصار باستطاعته أن يتدخل فى شئون إيطاليا ، وأن يقارن بالحكام الأقوياء فيها وفى القسطنطينية وأسبانيا الإسلامية وحتى بغداد ، بل صار بيبين أقوى ملك فى غربى أوربا ، ويتمتع بتأييد البابوية ورجال الدين . وكانت البابوية فى حاجة إلى مساعدة الفرنجة ضد اللومبارد فى إيطاليا(١) .

الخلاصة : أن الوضع السياسى فى منتصف القرن الثامن الميلادى وخلال النصف الأول من القرن الثانى الهجرى ، قد تبلور فى وجود ثلاث قوى عالمية هى : الإمبراطورية الإسلامية ( الأمويون ثم العباسيون) والإمبراطورية البيزنطية ، ثم دولة الفرنجة الكارولنجيين .

• • •

وخلال تلك الأحوال المضطربة فى العالم الإسلامى ، مشرقه ومغربه ، قام المسيحيون فى مدن سبتمانيا ، بمساعدة الجيش الفرنجى ، تحت قيادة قوطى يسمى أنسمندس Ancemundus وطردوا العرب من سبتمانيا ومدنها

---

(١) فشر ص ٨٢ ، Gibbons Deanesly, P. 201; Vol. V, P. 337.

عام ٧٥٢ م ، واستعاد الفرنجة أغلب مدنها مثل نيم وآجد وبزيى وما جلوت (١) .

أما أربونة ، وهى آخر حصن قوى للمسلمين ، فقد حاصرها الفرنجة وطال حصارها لمناعتها ، وتمكن المسلمون خلال الحصار من قتل القائد القوطى فى كمين ، وصادف ذلك وقوع مجاعة فى جنوبى فرنسا عطلت حركات الجيوش ، وبقيت أربونة ممتنعة على أعدائها ، ولاسيما أن بيبين ملك الفرنجة ، شغل فى إخماد بعض الثورات التى قامت فى بلاده (٢) .

كما أن أسبانيا فى ذلك الوقت شغلت بدخول عبد الرحمن الداخل الأموى وتأسيس الدولة الأموية فيها ، وبعد أن استتب الأمر لعبد الرحمن الأموى عام ١٤٠ هـ - ٧٥٨ م (٣) ، التفت إلى مدينة أربونة المحاصرة ، وأرسل لها مددا بقيادة الأمير سليمان الأموى ، ويرجح أن اسم هذا الأمير هو : أبو سليمان حبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان (٤) ، ولكن عصابات المسيحيين المنتشرة فى جبال البرانس قضت على هذا المدد (٥) .

---

(١) Pirenne. Moh. & charl. P. 157 ; Deansely, P. 294

(٢) فجر الأندلس ص ٢٨٨ _ ٢٨٩ ، Deanesly, P. 294

(٣) انظر : المقريزى : المقفى ج ٤ ورقة ٥٣ _ ٥٥ ، أخبار مجموعة ص ٤٦–٥٦ ، ابن عذارى ج ٢ ص ٦٠ — ٧٠ ، أعمال الأعلام ص ٧ — ٩ ، نفح الطيب ج ١ ص ١٥٤ — ١٥٥ ، ابن القوطية ص ٤٥ وما بعدها .

(٤) فجر الأندلس ص ٢٩٠ حـ ١ .

(٥) فجر الأندلس ص ٢٩٠ ،

Lévi-Prov., I. PP. 12-14. 95-103 Scott. I, PP, 391-7 ; Lane-Poole. op. cit., PP. 60-63.

ولما طال حصار أربونة ، تآمر السكان المسيحيون بها ضد المسلمين وعولوا على خيانتهم والإيقاع بهم ، فاتفقوا سرا مع بيبين القصير ، على تسليمه المدينة بشرط أن يتركهم أحراراً فى مدينتهم مستقبلا . وقاموا على الحامية الإسلامية فى أربونة فأجهزوا عليها ، وافتحموا أبواب المدينة وفتحوها لجيوش الفرنجة فدخلتها عام ٧٥٩ م . وبذلك قضى على الحكومة الإسلامية فى أربونة . بعد أن ظلت بها نحو أربعين سنة (٧٢١ - ٧٥٩)(١)

كان فتح الفرنجة لسبتمانيا قد أقلق دوق أكويتانيا ، إذ أضحى بيبين فى وضع يمكنه من فرض حكمه المباشر على الدوقية ، التى طالما طمع فيها الفرنجة ، وتذرع بيبين لذلك بأن الدوق كان يظاهر جريفو Grifo منافس بيبين ، فضلا عن أن الدوق صادر أملاك الكنائس الفرنجية فى دوقيته (٢) .

ولذا تفرغ بيبين لدوقية أكويتانيا فى الفترة ما بين ٧٦٠ ، ٧٦٣ م ، وأرسل لها الجيوش لغزوها فى كل سنة ، واتخذ من قلعة بورج Bourges قاعدة لغاراته عليها . وأخيراً اندفع الفرنجة فى عام ٧٦٦ ، إلى وادى الجارون وأخضعوا الدوقية ، ودبر بيبين مقتل الدوق فى عام ٧٦٨ م . وهى السنة التى مات فيها بيبين نفسه ، وبهذا الفتح قويت مملكة الفرنجة حتى اعتبرت أن جبال البرانس هى الحد الطبيعى لبلادها (٣)

---

(١) فجر الأندلس ص ٢٩٠ - ٢٩١ ، أرسلان ص ١١٢ - ١١٣ ( عن رينو ) ، أرشيبالد ص ١١٩ .

(٢) Deanesly, P.294

(٣) Ibid, P. 295

أما موقف المسلمين ، بعد سقوط سبتمانيا ؛ فكان ضعيفاً إذ دأب الفرنجة على إثارة الفتن بين زعماء المسلمين الطامحين ، وتشجيع الطامعين منهم على الاستقلال بالولاية التي يحكمها ، كما اتصلوا بالمسيحيين في أسبانيا : في قطالونيا وأرغون Aragon (١) ونافار ، وشجعوهم على توحيد كلمتهم ضد المسلمين ، وكانت الأحوال ملائمة بسبب موقف الخلافة العباسية من الأمويين الذين اغتصبوا الحكم في أسبانيا .

* * *

كان المنصور قد فشل في هزيمة عبد الرحمن الداخل ـ صقر قريش ـ ، حين أرسل أسطولا بقيادة العلاء بن مغيث اليحصبي عام ١٤٦هـ / ٧٦٣م ، ونزلت قوات العباسيين بباجه Beja(٢) ، والتقت بجيش عبد الرحمن الداخل قرب أشبيلة ؛ وانتصر عبد الرحمن وقتل العلاء وكثير من جيشه ؛ وبعث عبد الرحمن ببعض رءوس القتلى إلى القيروان ومكة ؛ حيث ألقيت فيهما سراً ؛ وعلق بطاقة بأسماء كبار القتلى في آذان الرءوس التي ألقيت ؛ فلما رآها المنصور في مكة ؛ وكان يحج في تلك السنة ؛ ارتاع وعلق بقوله : « ما هذا إلا شيطان والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر » (٣) .

---

(١) أرغون Aragon هي غير أرجونة Arajona : الأولى إقليم والأخرى مدينة ، بالأندلس ( انظر الروض المعطار ص ١٢ ) .

(٢) تقع هذه المدينة جنوبي البرتغال ، وكانت تسمى زمن الرومان باسم : Pax Ilulia ( الروض المعطار ص ٣٦ — ٣٧ )

(٣) ابن خلدون جـ ٤ ص ١٢٠ ـ ١٢٤ ، نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٦ ، أعمال الأعلام ص ٩ ، أخبار مجموعة ص ١١٨ ، ابن عذارى جـ ٢ ص ٧٧ — ٧٩ ، ابن القوطية ص ٥٧ — ٥٨ ، Scott, I. PP. 398-9

كذلك بات كل من العباسيين فى بغداد ، والأمويين فى قرطبة ، يتربصون الدوائر ، كل بصاحبه ، ولم يرأيهما حرجاً فى التحالف مع المسيحيين ضد بعضهما البعض ، ومن ثم قامت علاقات بين بلاطى قرطبة وبيزنطة من ناحية ، وبين بلاطى بغداد والفرنجة من ناحية أخرى. وجاءت بعثة فرنجية من قبل بيبين القصير إلى بغداد عام ١٤٨هـ/٧٦٥م ، حيث مكث أعضاؤها ثلاث سنوات ، عادوا بعدها محملين بالهدايا ، ومعهم رسل الخليفة المنصور . عادت البعثة عن طريق مرسيليا إلى متز Metz باللورين حيث قضى أعضاء السفارة الإسلامية الشتاء ، وبالغ بيبين فى إكرامهم وأنزلهم بقصر سل Sels على ضفاف اللوار ، ثم عادوا عن طريق مرسيليا (١) .

ومات بيبين فجأة فى عام ٧٦٨م على أثر مرض لم يمهله طويلا ، فلم تكن هناك فرصة للصراع بين ولديه : شارلمان Charlemagne وكارلومان Carloman . وحكم الأخوان ، كل فى عاصمته ، الأول فى نويون Noyon والثانى فى سواسون Soissons ، وكانت المدن الهامة فى نصيب شارلمان ، وهو الأكبر ، هى : أكس Aix التى لم تكن كبيرة فى ذلك الوقت ونويون وروان Rouen وتور Tours ومن مدن أخيه الهامة : سواسون وريمز Rheims وترير Trier وباريس وأورليان (٢).

ثم شاءت الأقدار أن يموت كارلومان عام ٧٧١م ، فضم شارلمان أملاك

---

(١) أرسلان ص ١١٨ — ١١٩ ، ديفيز : شارلمان ( ترجمة الباز ) ص ٢٩٥ ،
Pirenne. ; Deanesly. P. 294 ; Moh. & Ch., P. 160

(٢) Deanesly. P. 322-3 ; Funk-Brentano p. 302 ; Lavisse I PP. 280-81

أخيه ، وظلت دولة الفرنجة موحدة غير مقسمة نحو ثلاثة وأربعين عاما وهكذا خلا الجو لما سوف يقوم به شارلمان ، وبرهن على أنه جدير بما اتفق له من حظ (١).

وكانت علاقة شارلمان بالعباسيين استمراراً للود الذى قام بين أبيه بيبين وبين الخلافة العباسية من قبل ، عاصر شرلمان ستة من خلفاء بنى العباس هم : المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٤-٧٧٥م) والمهدى (١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٥-٧٨٥م) والهادى (١٦٩-١٧٠هـ/٧٨٥-٧٨٦م) والرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م) والأمين (١٩٣-١٩٨هـ/٨٠٩-٨١٣م) ، وأخيراً أوائل عهد الخليفة عبد الله المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م).

وفى زمن شارلمان قل خطر المسلمين على فرنسا منذ طردهم من سبتمانيا ومنذ إخضاع الفرنجة لدوقية أكويتانيا ، وهذا فضلا عن عنصر الضعف العام فى الجبهة الإسلامية الكبرى ، وهو الانقسام القائم بين شطرى العالم الإسلامى فى المشرق والمغرب .

ومع هذا ظل الطريق أمام الزحف الإسلامى مفتوحاً بين فرنسا وأسبانيا . وذلك من حصن سرقسطة الواقعة على نهر إبره Ebro . وكذلك من المعاقل الإسلامية فى برشلونة ووشقة Huesca ومع أن مملكة أشتوريا المسيحية الصغيرة موالية للفرنجة ، إلا أنها ضعيفة بحيث تعجز عن إشغال القوات الإسلامية .

---

(١) قتيبر ( ترجمة زيادة و نبارز ) ص ٨٣ .
H. G. T. I P. 360 ; Lavisse T. pp. 280-81 Moll & Dec pp. 33-8 ;

رغب شارلمان فى التدخل فى أسبانيا بدافع الحماس الدينى حماية المسيحيين بها ، وبدافع الحلم الإمبراطورى الذى يداعبه فى تكوين إمبراطورية واسعة تعيد ذكرى الإمبراطورية الرومانية القديمة عظمة واتساعاً (١)

تذرع ملك الفرنجة بحق العباسيين فى أسبانيا وتشجع بالعلاقات الودية التى ربطت أسرته بالخلافة العباسية (٢) ؛ وجاءته الفرصة حين هرب بعض الموتوريين من «صقر قريش(٣) »؛ والذين كما يصفهم المرحوم الأستاذ الثبت العبادى « صغرت نفوسهم ؛ فأصبحوا لا يهمهم إلا تحقيق مصــــلحتهم الشخصية» (٤) ، اتصل هؤلاء بالمنصور على أن يكونوا هم واسطة الاتصال بينه وبين شارلمان ، لتدبير غزو الأندلس (٥) .

---

(١) Lévi-prov. op. Cit. pp. 118-120 ; Scott. I P. 406

(٢) De Marles. PP. 238-5 ; Lavisse I pp. 303-4 Deanesly. PP. 350-1

(٣) كان المنصور هو الذى نعته بهذا اللقب ، فقد ذكر أن أبا جعفر المنصور قال يوماً لبعض جلسائه : أخبرونى من صقر قريش من الملوك ؟ قالوا : ذلك أمير المؤمنين الذى راض الملوك وسكن الزلازل وأباد الأعداء وحسم الأدواء ، قال : ماقلتم شيئا . قالوا : فمعاوية ؟ قال : لا ؛ قالوا : فعبد الملك بن مروان ، قال : ماقلتم شيئا . قالوا : فمن يا أمير المؤمنين ؟ قال : صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية ، الذى عبر البحر وقطع القفر ودخل بلدا أعجمياً ، منفردا بنفسه ، فمصر الأمصار وجند الأجناد ودون الدواوين ونال ملكا بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره وشــدة شكيمته . إن معاوية نهض بمركب حمله عمر وعثمان عليه ، وذللا له صعبه ، وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها ، وأمير المؤمنين ، بطلب عترته واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه مؤيد بأمره ، مستصحب لعزمه ، وطد الخلافة بالأندلس وافتتح الثغور وقتل المارقين وأذل الجبابرة الثائرين . فقال الجميع : صدقت والله يا أمير المؤمنين » . ( أعمال الأعلام ص٩ — ١٠ ؛ ابن عذارى جـ ٤ ص ٨٨ — ٨٩ ؛ (انظر كذلك : Dozy I. PP. 63 382 )

(٤) تاريخ الأندلس ص ١٠٧

(٥) Scott I; P. 408

هرب أولئك المتآمرون بزعامة سليمان بن يقظان بن العربى أمير برشلونة فى عام ١٦١هـ/٧٧٧م ومعه أبو ثور صاحب وشقة(١) وتوجهوا إلى مدينة بادربورن Baderborn فى سكسونيا حيث كان شارلمان يحتفل بانتصاره على السكسون (٢)، رحب بهم شارلمان، واتفقوا معه على أن يسلموا له بعض المدن فى شمالى أسبانيا، يقول ابن الأثير : «واستدعى سليمان قارله ملك الافرنج ووعده بتسليم البلد» (٣). وتوجد صورة لاجتماع بادربورن نقلها صاحب الحلل السندسية (٤).

ولكى يجعل المتآمرون لعملهم صفة شرعية، اتفقوا مع شارلمان على أن يدخل الاندلس بوصفه حليفاً لبنى العباس(٥)، والمعروف عن ابن العربى هذا أنه حالف من قبل بيبين القصير أبا شرلمان، وبتشجيعه ووعوده ثار ضد عبد الرحمن الداخل لكى يستقل ببرشلونة، واستولى على سرقسطة (٦).

---

(١) دائغيز شارلمان ص ٢٩٦

(٢) Scott I P. 304 ; Dozy I :p. 377

(٣) تاريخ الكامل جـ ٦ ص ٢٢ — ٢٣

(٤) جـ ٢ ص ١٣٣

(٥) انظر مايلى

(٦) أخبار مجموعة ص ١١٠ — ١١٢ ؛ ابن القوطية ص ٥٥ — ٥٦، ابن عذارى جـ ٢ ص ٨٤، ابن الأثير جـ ٦ ص ٢٢ — ٢٣ ؛ العبادى ص ٨١، أرسلان : غزوات العرب ص ١١٦ — ١١٧، ١٢٠ — ١٢١، الحلل السندسية جـ ٢ ص ١٣١ — ١٣٢

Lévi-Prov., I. PP. 121-2

ويضاف إلى حزب المتآمرين كذلك أبو الأسود بن يوسف الفهرى، فقد خرج على عبد الرحمن وفشل فى ثورته ، إذ تمكن صقر قريش من القبض عليه وسجنه ، لكن أبا الأسود فر من سجنه بعد أن ادعى العمى ، وكان عبد الرحمن الداخل قد قضى على أبيه يوسف الفهرى والى الأندلس من قبل (١) .

وأيا كانت البواعث التى حملت المتآمرين على الاتصال بشارلمان ، فإن الدعوة جاءته فى الوقت المناسب ، إذ انتهى من إخضاع السكسون فى شمالى ألمانيا ؛ ولم يبق أمامه إلا أن يتوجه لتحقيق أحلامه الإمبراطورية (٢)

كانت الخطة التى دبرها شارلمان مع المتآمرين هى : أن يعبر عبدالرحمن ابن حبيب الفهرى المعروف بالصقلبى (٣) إلى أفريقية ؛ حيث يعد جيشاً ؛ ويعود به لينزل فى مقاطعة تدمير ؛ ويقوم سليمان بن يقظان أمير برشلونة بتمهيد الطريق أمام جيوش الفرنجة إلى سرقسطة .

حشد شارلمان جيشاً جراراً فى ربيع ٧٧٨م ؛ جمعه من البافاريين واللومبارديين والاستراسيين والبرجنديين وأهل سبتمانيا ؛ وسارت المؤامرة فى طريق تنفيذها ؛ غير أن تحديد الوقت فى ذلك الزمان ؛ لم يكن من الدقة بحيث توجه الضربة فى وقتها المقدور ؛ ويرجع ذلك إلى صعوبة المواصلات

---

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٥٢ — ٥٥ ، ٧٢ — ٧٥

(٢) Dozy, I. P. 376 ; Deanesly, P. 321

(٣) سمى بالصقلبى لأنه كما وصفه ابن عذارى وابن الأثير : كان طويلا أشقر أزرق أمعر — أى قليل الشعر — ( البيان ج ٢ ص ٨٣ ، تاريخ الكامل ج ٦ ص ٢١ )

وبطء الاتصال . عاد ابن حبيب إلى الأندلس بالجيش الذى جمعه من أفريقية ونزل فى تدمير ؛ فنهض إليه عبد الرحمن الداخل وقضى عليه ؛ ولم يستطع ابن العربى أن ينجده ؛ معتذراً بأنه لا يستطيع أن يبرح مكانه حتى تصل جيوش شارلمان ؛ وبعد أن فرغ عبد الرحمن الداخل من القضاء على جيش ابن حبيب ؛ توجه فى الحال إلى سليمان وقضى عليه كذلك (١) .

قسم شارلمان جيشه إلى قسمين جنوبى وشمالى ؛ فأما الجنوبى فقد دخل أسبانيا عن طريق سبتمانيا وتوجه رأساً إلى برشلونة ؛ وأما القسم الشمالى ؛ ويقوده شارلمان بنفسه ؛ فقد دخل عن طريق ممرات جبال البرانس الوعرة (٢) ؛ ويحتمل أنه دخل عن طريق ممر رونسفال Roncevalles ولما لم تجد جيوش شارلمان العون المفروض ؛ تقدم الفرنجة إلى مملكة نافار المسيحية وعاصمتها بنبلونه Panpeluna (٣) ؛ غير أن هذه المملكة المسيحية وغيرها من القبائل المسيحية المنتشرة فى تلك المناطق النائية من شمالى أسبانيا لم تقدم المساعدة المنتظرة لشارلمان ؛ ونفرت من أن يتحكم فيها الفرنجة (٤) ولذلك اضطر شارلمان إلى حصار العاصمة بنبلونه ؛ ولم يفتحها إلا بعد قتال شديد (٥) . ولما توجه إلى سرقسطة التى بالقسم الجنوبى من جيشه ؛

---

(١) العبادى ص ٨٢ Lane-poole. Op. Cit. P.33; Berthelot Op. Cit. PP. 310-311

(٢) Lévi Prov. I; PP. 123 - 24

(٣) تبعد مدينة بنبلونه عن سرقسطة بنحو ١٢٥ ميلا ، وأهلها كما يصفهم الحميرى « جماعة لصوص ، وأكثرهم متكلمون بالبشقية لا يفهمون » ( الروض المعطار ص ٥٥ - ٥٦ )

(٤) غزوات العرب ص ١٢١ ؛ الحلل السندسية ج ٢ ص ١٣١ - ١٣٢

(٥) المراجع السابقة

وفوجئ شارلمان بأن المتحكم فى سرقسطة لم يكن من أعوانه ؛ بل إن صاحب الأمر فيها يومئذ هو الحسين بن يحيى الأنصارى ؛ ورغم أنه من الخوارج على عبد الرحمن الداخل ؛ إلا أنه اعتصم داخل المدينة ودافع عنها دفاع الأبطال ؛ ولم يكن هدف المتآمرين أنفسهم فى الواقع إلا أن يساعدهم شارلمان على الاستقلال بالولايات التى يطمعون فيها (١) فضلا عن أن خيانة سليمان لم تؤد إلى شىء ؛ إذ كان يصارع منافساً له على زعامة الحزب المناصر للعباسيين (٢) .

يقول دوزى Dozy : عند ما وصل شارلمان بجيشه ؛ لم يستطع ابن العربى أن يتغلب على نفور المسلمين من قبول دخول ملك فرنسا مدينتهم ؛ وكافح الحسين بن يحيى الأنصارى كفاح المستميت ؛ ولما شعر ابن العربى أنه لم يستطع أن يوفى بوعده لملك الفرنجة توجه إليه وارتمى فى أحضانه ؛ حتى لا يظن أنه خدعه (٣) .

وهكذا امتنعت سرقسطة على شرلمان ؛ فضرب عليها الحصار ؛ وخف عبد الرحمن الداخل لنجدتها ؛ ولما يئس شارلمان من وعود العباسيين ترك سرقسطة وسار نحو الجنوب واستولى على وشقه Huesca ؛ وصاحبها أبو ثور ثم استولى على برشلونة وجيرونا Gerona (٤) .

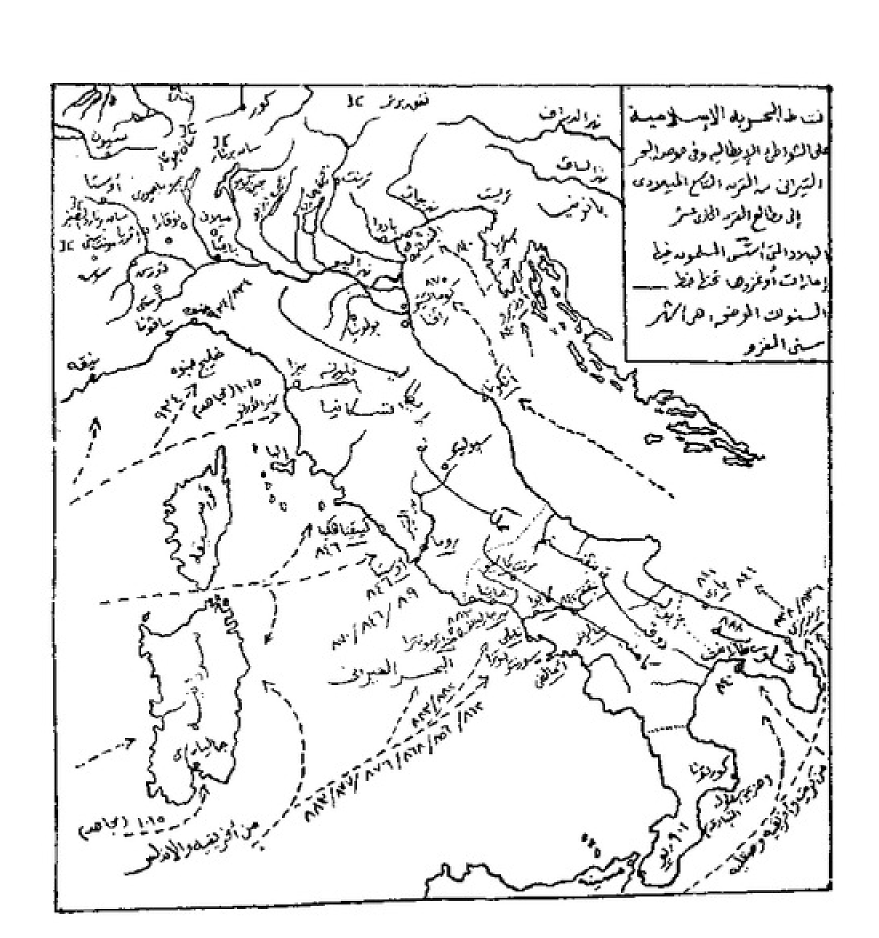
---

(١) المراجع السابقة

(٢) Scott P. 407

(٣) Lévi Prov. Les Musulmans de l'Espagne I. P. 379

(٤) العبادى ص ٨٢ ; Scott. I. pp. 406 - 7 ; De Marlès p. 175 ;
الروض المعطار ص ١٩٤ — ١٩٥ Lévi Prov. op. Cit. pp. Deanesly . p. 362
11 - 129 .


نشاط البحرية الإسلامية
على الشواطئ الإيطالية وفي حوض البحر
التيراني من القرن التاسع الميلادي
إلى مطالع القرن الحادي عشر
السنوات الموضحة هي تاريخ
سني الغزو
روما
البحر التيراني
توسكانيا
من إفريقية والأندلس

فى ذلك الوقت علم شارلمان بتجدد ثورات السكسون؛ فقد انتهز هؤلاء فرصة انشغاله فى المشروع الأسبانى؛ وثاروا بقيادة زعيمهم الوطنى فيتكيند wittekind واستولوا على مدينة دتز Deutz المقابلة لمدينة كولونيا على نهر الراين (١) . ومن أجل هذه التطورات ؛ اضطر شارلمان إلى الانسحاب من أسبانيا ؛ بعد أن فشل مشروعه ؛ وفى طريق عودته دمر أسوار بنبلونة لأنه عجز عن الاحتفاظ بها كنقطة ارتكاز له فيما وراء البرانس (٢) .

أثار عمله هذا قبائل البشكنش Basques فى نافار ؛ ولما كانت هذه القبائل المسيحية عاجزة عن مناجزة ملك الفرنجة فى حرب صريحة مكشوفة ولاسيما وأن شارلمان يمتلك فرقة فرسان قوية ؛ رغم أن الخيل البشمية ـ كما يصفها الحميرى ـ وأصلب الدواب حافرا لخشونة بلادهم (٣) . لذلك ترقب البشكنش مروره داخل ممرات البرانس الضيقة ؛ عندما عاد يجر أذيال الخيبة من الطريق الشمالى إلى أقطانيا ( أكويتانيا ) ؛ ولم تكن هذه القبائل المتفرقة فى تلك المناطق الوعرة ، تطمع فى شىء أكثر من المغانم والمؤن التى يحملها جيش شارلمان العابر ؛ ولم تكن مدفوعة بروح وطنية أو نحوها (٤) .

وقف البشكنش فى صياصى الجبال ، فى كمين قرب ممر رونسفال أو

---

(١) Dozy. I. P. 379

(٢) Scott. I .P. 408 ; Deanesly. P. 351

(٣) الروض المعطار ٥٥ ــ ٥٦

(٤) العبادى ص ٨١ — ٨٢ ؛ Dozy. I. P. 380

وادى رونسفال Valley of Roncevalles ؛ وكان صقر قريش قد أمدهم بالسلاح وبعض الرجال ، وقدر بعض مؤرخى اللاتين أن عدد المسلمين الذين اشتركوا فى هذه الوقعة يبلغ نحو ٣٠ ألف مقاتل (١) . انتظرت هذه القوات المتحالفة ، حتى مرت مقدمة جيش شارلمان ، وكان هذا الممر ضيقاً مظلماً لتكاثف الغابات فيه وسط الجبال ؛ ويقود المؤخرة ثلاثة من أبرز قادة شارلمان هم :

السنجال إجنهارد Egginhard (٢) وأنسلم Anselm كونت مقاطعة بلاتين Platine ورولاند Roland حاكم مقاطعة بريتانى Brittany (٣) .

---

(١) يرجح أن عدد المسلمين كان كبيرا ، إذ يحتمل أن المسلمين الذين اشتركوا مع البشكنش فى مهاجمة جيش الفرنجة ، لم يقتصروا على العدد الرسمى الذى قدمه صقر قريش ، فهناك المتطوعون المجاهدون ، ثم إن « أغنية رولان » رغم صفتها الأدبية ، أشارت كثيرا إلى المسلمين المقاتلين ( انظر ما يلى )

(٢) السنجال ترجمة لكلمة الفرنسية Sénéschal وأصلها اللاتينى : Seneschalus ، ومعناها النائب أو الوكيل أو الكفيل ، على حد الاصطلاح العربى فى تلك العصور ( انظر المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٩٨٥ حاشية ٥ )

(٣) مقاطعة بريتانى أو مارك بريتانى March of Brittany فى شمالى غربى فرنسا ، أنشأه الفرنجة بمقتضى تنظيماتهم عام ٧٧٨ م ، وعين عليه كونت رولاند حاكما ؛ ويشبه هذا التنظيم ما وقع فى الدولة البيزنطية حين أنشأت الثيود Themes وهى مناطق عسكرية إدارية على الحدود . ويضم بلد بريتانى كونتيتى : نانت Nantes ، رن Rennes . وسكان هذه المنطقة من الكلت Celts القدماء ، ويعرفون كذلك باسم البريطانيين نسبة إلى شبه جزيرة بريتانى التى يقيمون فيها ، وقد ظلوا على عدائهم وكراهيتهم للفرنجة الجرمان ، ولم يخضعوا لسلطانهم طواعية واختياراً ، ولذا كثرت ثوراتهم وجردت عليهم أكثر من حملة لإجبارهم على الخضوع ودفع الجزية ، من ذلك حملة بقيادة السنجال أدولف Adulf فى عام ٧٨٦م ، وحملة أخرى عام ٧٩٩ م ، ولم تثبت سيادة الفرنجة على هـــذه المنطقة فى وقت ما ( انظر Deanesly PP 352 — Ir-Brooke, PP. 65 100; Pirenne, A Hist. of Europe, P. 81; De Marlés, PP. 231 — 38, Lane - Poole, P. 36. )

انقض المسلمون والبشكنس على المؤخرة وأبادوها عن آخرها، بعد أن أبدت شجاعة فائقة واستماتة فى القتال، وتقدر هذه المؤخرة بنصف جيش شارلمان؛ حاقت هذه الكارثة بجيش شارلمان فى يوم ١٥ أغسطس من سنة ٧٧٨ م (١). ولم يعلم شارلمان بها إلا مؤخرا، إذ كانت المسافة بين مقدمة الجيش ومؤخرته نحو ثمانية أميال، ومن بين القتلى الفارس رولاند، الحبيب إلى سيده، فلما علم بمصرعه، حزن عليه أشد الحزن (٢).

لم تذكر الحوليات الملكية Royal Annals شيئا عن هذه الفاجعة، وتغاضت عن تسجيلها أو تسجيل ما وقع فيها، غير أن جميع المعاصرين، كانوا يعرفون أسماء القتلى، كما يقول أحد مؤرخى القرن التاسع الميلادى، وكل ما ورد فى الحوليات الملكية عن حوادث عام ٧٧٨ م عبارة مقتضبة هى:

« فى هذه السنة، توجه السيد شارل إلى أسبانيا، حيث لقى مأساة كبرى » (٣).

وأهمية هذه الوقعة من الناحيتين الحربية والسياسية، بعيدة المدى، فقد كانت مأساة حربية من غير شك؛ ومن الناحية السياسية، بددت حلم

---

(١) Dozy, I, P. 380 ; Scott, I, P. 407

(٢) Levi - Provençal PP. 124 - 25 ; العبادى ص ٨٣

(٣) Deanesly. P. 352

شرلمان فى إزالة السيادة الإسلامية عن أسبانيا وتكوين إمبراطورية على النسق الرومانى ، تعيد ذكرى تلك الإمبراطورية العتيدة .

أما الأهمية الأدبية فقد طغت على ما عداها ، إذ ارتبطت هذه الوقعة بشخصية أقدر أبطال شارلمان ، وهو كونت رولاند ، الذى دافع ببطولة حتى مات وهو يردد اسم سيده شارلمان بعبارات أخاذة .

فقد كتبت ملحمة أو أغنية فى القرن الحادى عشر الميلادى ، عرفت باسم « أغنية رولاند » The Song of Roland ؛ وهى من نوع الملاحم أو أغانى البطولة Chansons de Geste التى تدور حول الأعمال الكبيرة التى ارتبطت بشخصيات بارزة ، لتصبح أناشيد وأزاهير يتغنى بها الناس على مر الأجيال . كتب هذه الملحمة الشاعر النورمانى تيرولد Turold ، ويعدها الفرنسيون أول أنشودة حماسية فى الأدب الفرنسى . ولها أكثر من ترجمة باللغات المختلفة ، منها ترجمة سكوت ما نكريف Scott - Mancrieff التى ظهرت فى لندن عام ١٩٢٠ م .

وتصف الملحمة المجتمع الفرنسى والتفكير الفرنسى فى العصر الإقطاعى وهو القرن الحادى عشر ، رغم أن أصول حوادثها ترجع إلى نهاية القرن الثامن الميلادى ، من ذلك قول الشاعر على لسان تيربن Turpen رئيس الأساقفة الذى اشترك فى الوقعة :

« فى حوليات الفرنجة ، سجل :

« ما أورع الولاء لمليكنا ! (١)

(١) « What Vassalage he had, Our Emperer »

ومما جاء على لسان تيربن كذلك ، مشيراً إلى المسلمين الذين اشتركوا في الموقعة ؛ ومخاطباً مواطنيه يشد من عزائمهم :

« المعركة الوشيكة الوقوع ، أنتم لها .

« إنكم ترون المسلمين بأعينكم .

« صلوا وتضرعوا لنيل المغفرة .

« من أجل طهارة أرواحكم سوف أتضرع . . . الخ . . .

وأشارت الملحمة إلى رولاند :

« إن كونت رولاند يتبختر في الميدان .

« ممسكاً بدندال (١) .

« لقد أوقع بالمسلمين أفدح الخسائر .

« تراهم واحداً فوق واحد ، صرعى كالأكوام . الخ . . .

وأخيراً تصور الأغنية كيف انتهت حياة رولاند ، وقد اضطجع إلى جـــذع شجرة الصنوبر ورفع يديه إلى السماء ، فأرسل الله إليه الملائكة والقديس ، فحملت روحه إلى الجنة ، ويقابل شارلمان بعد ذلك أود Aude أرملة رولاند ويعزيها ، ويعدها بتزويجها من ابن لويس ، فتأبى الحياة دون رولاند ، وتسقط ميتة على أقدام شارلمان ، وهنا يستبد الحزن بشارلمان ،

---

(١) دندال Dunedal هو اسم سيف رولاند

فتمتلئ عيناه بالدموع ويعبث بلحيته الناصعة البياض ، فتتساقط شعرات منها .

أما حقيقة الوقائع التاريخية ، وما دار فيها من قتال فلم تشر الأغنية بدقة إلى ذلك ، بل طغت عليها الصفة الأسطورية وتمجيد شارلمان دون سند من الواقع التاريخي ، بل فيها كثير من الخطأ التاريخي ، منذ ذلك ، إن شارلمان مكث في أسبانيا سبع سنوات لإخضاعها ، ودانت له جميع شبه الجزيرة ماعدا سرقسطة ، وهكذا (١) . والخليفة العباسي المعاصر لهذه الوقعة هو المهدي .

* * *

ترك شارلمان فكرة محاربة المسلمين دون تقرير حاسم أو نتيجة ، والتفت إلى أطراف مملكته الشرقية ، حيث طالت حروبه وتكررت مع السكسون (٢) ، كما التفت إلى تقوية سلطانه على أقطانيا ( أكوتيانيا ) لحمايتها

---

(١) عن حملة شارلمان إلى أسبانيا ، وأغنية رولاند انظر :

Stephenson. C. Mediaeval History. PP. 278 - 278 ; Evans J. : Life in Medieval France, PP. 88, 50 ; Basset. R. , Les Documents Arabes sur l'Expédition de Charlemagne en Espagne ( La Revue Historique, T. Lxxxiv, 1904, PP. 286 - 295 ) ; Barrau - Dihigo , Deux traditions Musulmanes Sur l'Expédition de Charlemagne en Espagne ( Paris. 1925 ) , PP. 165 - 179 ; Calmette, J. , Charlemagne, Sa vie et Son œuvre ( Paris, 1945 ) . ; Halphen, L. Charlemagne et L'Empire Carolingien ( Paris, 1947, PP. 87 - 88 .

ديفز : شارلمان ( ترجمة الباز ) ص ٢٨٥ — ٢٨٦

(٢) Lavisse, I, PP. 245 - 40 ; Berthelot, P. 315; Funk - Brentano PP. 313- 16

من تجدد غارات المسلمين عليها ، وقد أصبحت هذه الغارات محتملة بعد فشله الذريع فى حملة على أسبانيا ، فعين ابنه لويس ملكاً على أكويتانيا ، وعمره يومئذ سنة واحدة ، وهو من مواليد أكويتانيا ، أنجبته أمه خلال اشتباك أبيه مع المسلمين فى أسبانيا ، ونظراً لصغر سنه ، عين له أبوه وصيين هما : أرنولد Arnold وميجناريوس Meginaruis (١) .

أما المسلمون فى ذلك الوقت ، فقد قويت روحهم المعنوية ، ولذا قاموا بغارة سريعة خاطفة على أكويتانيا فى عام ٧٨٥ م ، (٢) وسار عبد الرحمن الداخل نحو سرقسطة ، وقبل وصوله إليها كان ابن العربى قد قتل على يد الحسين بن يحى الأنصارى الذى اعتقد أن ابن العربى متهم فى دينه وولائه ؛ بعد أن رافق شارلمان فى تقهقر ، ثم عاد ، وأعلن الحسين خضوعه وطاعته وولاءه لصقر قريش ، ولما خرج عليه بعد ذلك انتهى أمره بالقتل (٣) .

ومع انتصار عبد الرحمن الداخل ورجحان كفته ، رأى أن من حسن السياسة ، أن يقيم علاقات ودية مع شارلمان ، بعد أن عجم عوده وعرف قوته وإمكانياته ، فدعاه إلى عقد معاهدة عدم اعتداء ، حتى يأمن كل منهما جانب الآخر ، وزاد عبد الرحمن فى تودده ، فطلب المصاهرة مع شارلمان تدعيما للرابطة بينهما ، فلم يسع شارلمان ، وكان حصيفا ، إلا أن

---

(١) Deanesly, pp. 352 - 3 ; Dozy I, pp. 380 .. 381

(٢) المراجع السابقة .

(٣) ابن عذارى ج٢ ص ٨ ؛ Dozy, pp. 380 - 1

يستجيب إلى السلم مع صقر قريش . وأن يبعد عن نفسه ذلك الحلم الإمبراطورى فى فتح أسبانيا ، وتمت المعاهدة والمسالمة ، ولكن المصاهرة لم تتم (١) . يقول المقرى مشيرا إلى هذه العلاقة الودية الجديدة :

« وخاطب عبد الرحمن قارله ، وكان من طغاة الافرنج ، بعد أن تمرس به ، فأصابه صلب المكسر تام الرجولية ، فمال معه إلى المداورة ، ودعاه إلى المصاهرة والسلم ، فأجابه للسلم ولم تتم المصاهرة » (٢) .

توفى عبد الرحمن الداخل فى ربيع الآخر ١٧٢ هـ / أكتوبر ٧٨٨ م (٣) ، وخلفه ابنه هشام ( ١٧٢ — ١٨٠ هـ / ٧٨٨ — ٧٩٦ م ) . وكان هشام بماردة Mérida ، يقوم بأمرها ، قبل أن يخلف أباه ، وقد اختار له أبوه هذا العمل ، لكى يتمرس فى ميادين الحرب والجهاد ، وأن يكون أبداً مستعداً لمواجهة المخاطر ، ونجح هشام خلال ولايته لهذه المنطقة الشمالية فى تقليم أظفار الإمارات المسيحية : جليقية وليون ونافار ، إذ كان كثير الغزو لها (٤) .

---

(١) العبادى ص ٨٣ ، Pirenne, Moh. & Charl., p. 160

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٥

(٣) عن مقدرة عبد الرحمن الداخل وصفاته وعلمه وشعره وعدله وحروبه وانتصاراته ، انظر : أعمال الأعلام ص ١٠ — ١١ ؛ ابن عذارى ج ٢ ص ٨٦ — ٩٠ ؛ ابن الأثير ج ٦ ص ٤٠ ، p. 66. Lane — poole. ; Dozy I, pp. 207 sqq

(٤) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٧ ، أخبار مجموعة ص ١٢٠ — ١٢٤ ؛ الروض المعطار ص ١٧٥ — ١٧٧ ، العبادى ص ١٨٧

وتصفه المراجع ، بأنه شاب كفء متحمس للدين (١) ، « وبمنزلة عمر ابن عبد العزيز فى قومه بالأندلس » (٢) أراد أن يشغل الأمة عن الفتن الداخلية عن طريق الجهاد ، وهذا فى نظره أجمع شيء للكلمة ، وهدفه كذلك استرجاع ماضاع من البلاد على يد شارلمان وأبيه من قبل ، ولاسيما وأن الفرنجة احتلوا فى الفترة مابين ٧٨٥ ، ٧٩٠ م كثيراً من الأراضى الأسبانية الشمالية حتى وصلوا إلى نحو ٣٠٠ ميل فى الأراضى الأسبانية (٣) وشجعه على الجهاد ، وصرف الأمة إليه ، أن القالة فى عهده كثرت ، بأن المسلمين لايقدرون إلا على قتال بعضهم بعضا ؛ بل أفتى الفقهاء بأنه لايجب دفع الخراج لأمراء لايعرفون إلا أن يقاتلوا أمة محمد (ص) وحدها ، وضربوا الأمثال فى خدمة الإسلام بخلفاء بغداد الذين لم يفتروا عن غزو القسطنطينية وقرع بلاد الروم (٤) .

أعلن هشام الجهاد وأمر الناس كافة أن ينفروا إلى الجهاد ، وأن تكون وجهتهم جبال البرانس ، ومن لم يقدر على الجهاد بنفسه ، وجب عليه الجهاد بماله ، وقرئ منشور الأمير على منابر الجوامع ؛ فنفر الناس من كل فج ، وتجمع تحت إمرته نحو مائة ألف مقاتل .

---

(١) Deanesly. p. 353

(٢) ومن دلائل حزمه ودينه وعقله وعدله ، أنه لما بنى القنطرة العظمى بقرطبة ، وأنفق فيها أموالا طائلة ، عنق الناس : إنما بناها لصيده ونزهته . فلما بلغه ذلك ، أقسم ألا يجوز عليها إلا لغزو فى سبيل الله أو مصلحة .

( أعمال الأعلام ص ١٢ ، ابن عذارى جـ ٢ ص ٩٨ — ٩٩ ، نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٧ — ١٥٨ )

(٣) Deanesly. p. 353 ، انظر ما يلى

(٤) العبادى ص ٨٧ — ٨٨

قسم القوة إلى قسمين : قسم بقيادته شخصياً توجه به إلى جليقية لمحاربة ثوارها فهزمهم وشتت شملهم [١] ، أما القسم الآخر من الجيش ، فوجهه بقيادة وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث إلى قطالونيا ، ومنها استعد لاجتياح فرنسا ، وكان شرلمان فى ذلك الوقت مشغولا على ضفاف الدانوب فى حربه ضد الأفار ، كما أن معظم جيش أكويتانيا ، كان مشغولا مع ابنه لويس فى إيطاليا .

دخل عبد الملك فرنسا عام ١٧٧ هـ / ٧٩٢ م ووصل إلى أربونة ، فأحرق ضواحيها وغنم منها ، وسار إلى قرقشونة ، فانبرى إليه وليام دوق طولوشة ( تولوز ) وكان وليام ينوب عن لويس ملك أكويتانيا فى رعاية مملكته ، استنفر وليام المسيحيين ، فاستجاب له أمراء البلاد وأقبلوا عليه من كل جانب ، والتقوا بالمسلمين فى منطقة فيلديني Villedaigne فيما بين قرقشونة وأربونة ، وذلك على ضفاف نهر أنبيو Onbieu ، وكانت المعركة حامية ، انتصر فيها المسلمون وأصيب الفرنجة بخسائر فادحة ، وأبدى وليام دوق تولوز شجاعة رفعته إلى مصاف الأبطال ، وجعلته فى مرتبة رولاند ، حتى صار موضوعا لأساطير العصور الوسطى [٢] . ويقال إن عبد الملك أوغل فى أرض الفرنجة ، حتى وطىء أرض بريطانية ( Brittany ) وهزمهم [٣] .

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٤٤ ، المبادى ص ٨٨

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٨ ، ابن القوطية ص ٦٥ ، ابن الأثير ج ٦ ص ٤٨ ، ابن عذارى ج ٢ ص ٩٥ ، أعمال الأعلام ص ١١ — ١٢ ، Scott, I. P. 429

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٨

اكتفى المسلمون بما أصابوا من مغانم ، ومن هذه المغانم ما أوقف على مسجد قرطبة العظيم (١) . وانتقم الفرنجة وغزوا البرانس فى غارة سريعة عام ٧٩٦ م وغنموا وعادوا (٢) .

* * *

وبعد وفاة هشام عام ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م ، تولى ابنه الحكم ( ١٨٠ — ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ — ٨٢٢ م ) ، ووقعت انقسامات فى أول عهده ، بين مسلمى الأندلس ونازعه عماه عبد الله وسليمان ، فضلا عن حكام المدن الشمالية وأرسل بعض زعماء المسلمين الناقمين على الحكم إلى شارلمان ، وكذلك إلى ابنه لويس ، يطلبون مساعدتهم ، ووقعت مفاوضات بين حزب الناقمين وبين الفرنجة فى إكس لاشابل Aix - La - Chapelle وفى هرستال Heristal ، وذلك عام ١٨١ هـ / ٧٩٧ م (٣) .

وكذلك ثار بهلول بن مروان المعروف بأبى الحجاج فى وشقة Huesca واستولى على سرقسطة ، وبعث رسولا من قبله إلى طولوشة عاصمة أكويتانيا

---

(١) يقال إن خمس الغنائم ، وهو حق الأمير ، بلغ نحو ٤٥ ألف مثقال ذهب أكمل به هشام مسجد قرطبة ، وكان أبوه بدأه من قبل ولم يتمه ، علما بأن صقر قريش بنى هذا الجامع من غنائم الحروب والجهاد ، ولذا زادت حرمة جامع قرطبة فى نظر المسلمين ، وتذكر المراجع أن عبد الرحمن الداخل وضع أساس الجامع على تراب جلبه من جليقية ومن جنوبى فرنسا أى من مسافة نحو ٢٠٠ مرحلة ، وقد حمل الأسرى المسيحيون هذا التراب على ظهورهم ، نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٨ ، ٢١٢ وما يليها ، ابن الأثير جـ ٦ ص ٤٨ ابن القوطية ص ٦٥ ، غزوات العرب ص ١٢٧ — ١٢٨ ( الروض المعطار ص ١٥٣ — ١٥٦ . Deanesly .P.353

(٢) Deanesly p. 353

(٣) Ibid

يطلب التحالف مع لويس بن شارلمان ضد خصومه من المسلمين فى أسبانيا فقدم عليه عبد الله عم الحكم ، وكان متوجها إلى الفرنجة (١) . وبعد ذلك بسنتين أى فى عام ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م ، أعلن حكم وشقة وضع المدينة تحت سيادة شارلمان ، غير أن الوعود الأخرى الغامضة التى بذلها الناقمون على السيادة الأموية فى الأندلس ، من ناحية الولاء والعون لملك الفرنجة ، لم يثق بها شارلمان (٢) .

وبدا لشارلمان مصداق حدثه عندما جاءت جيوش الفرنجة ، منتهزة فرصة انشغال الحكم بقتال عميه (٣) ، وضربت حصارها على مدينة برشلونة ، وقد امتنع بها حاكمها زادون ، كما تسميه المراجع الأجنبية ، ولعل اسمه سعدون ، وقام حاكم برشلونة بما ينبغى عليه من الدفاع المستميت ولما كان شارلمان ، مشغولا فى ذلك الوقت ، وهو عام ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م ، بتتويجه إمبراطورا فى روما (٤) ، تولى ابنه لويس وونيام كونت تولوز ، أمر حصار برشلونة ، بمساعدة مسيحى أسبانيا .

قسم الفرنجة قواتهم إلى ثلاثة أقسام ، أحدها لحصار المدينة ، والثانى للمرابطة فى المناطق التى تتدفق منها النجدات الإسلامية من قرطبة ، والثالث بقيادة لويس بن شارلمان ، ويعتصم بأعالى جبال البرنس لشن الهجمات الخاطفة على المسلمين . ولذلك تحمل أمير برشلونة وحده عبء

---

(١) ابن الأثير جـ ٦ ص ٥٧ ، ابن عذارى جـ ٢ ص ١٠٣

(٢) Deanesly, P. 353

(٣) ابن عذارى جـ ٢ ص ١٠٥ ، أعمال الأعلام ص ١٥ ، ابن الأثير جـ ٦ ص ٥٣

(٤) أنظر Boyce, PP. 44-60

الدفاع عنها، ولم تتمكن الإمدادات الإسلامية من الوصول إليه، أو كما يقول بن الأثير . «وتأخرت عساكر المسلمين عنها»(١)، وكان ألفونس( Alfonss ) ملك جليقية يساعد الفرنجة(٢).

ولما لم تستطع حامية برشلونة وحدها مقاومة هذه القوات المتحالفة، سقطت المدينة في يد الفرنجة عام ١٨٥ هـ/ ٨٠١ م، ودخلتها جيوشهم عنوة وغنموا منها الكثير من الأسلحة ولاسيما الدروع والخوذ والخيول، وأرسل لويس جزءا من الغنائم إلى أبيه شارلمان (٣).

والمعروف أن برشلونة ظلت بين المسلمين ما يقرب من قرن، وذلك منذ فتحها المسلمون أول مرة عام ٩٥ هـ/ ٧١٣ م زمن موسى بن نصير، وسموها برشنونة Barshinon ؛ ولكن غلب عليها اسم برسلونة (بالسين)، ومنذ استيلاء الفرنجة عليها ٧ م ١٨٥ م هـ/ ٨٠١ م، ظلت تحت حكمهم، حتى استقل أمراؤها عام ٨٨٨ م عندما ضعفت سلالة شارلمان، وانفلتت السلطة من أيديهم (٤).

---

(١) ابن الأثير . الكامل جـ ٦ ص ٥٣ — ٥٤

(٢) كان ألفونسو الثانى قد استنجد بشارلمان أكثر من مرة ضد المسلمين فى أسبانيا، وفى البعثة الثالثة التى أرسلها إلى ملك الفرنجة، وهو فى هرستال ٧ م ٧٩٨ م، بعث معها هدايا من بينها بعض الأسرى المسلمين والأسلحة والبغال وكان غنمها من المسلمين فى لشبونة ( Deansly p. 354)

(٣) نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٩، ابن الأثير جـ ٦ ص ٥٣ — ٥٤، ٦٠، أخبار مجموعة ص ١٢٤ ومابعدها، ابن عذارى جـ ٢ ص ١٠٣ — ١٠٥، غزوات العرب ص ١٣٠ — ١٣٢، Lévi—Provencal' T. I PP. 173—80; Deanesly, p. 351; De Marlès, P. 269 Lane — Poole P. 74 .

(٤) الحلل السندسية جـ ٢ ص ٢١٦ — ٢١٧

وباستيلاء الفرنجة على برشلونة عاصمة إقليم قطالونيا ، زادت مساحة «المارك الأسبانى» Spanish March أو المقاطعة الأسبانية أو النبد الأسبانى Limes Hispanicus ، إلى النصف . وكان الفرنجة ، عندما اتسعت أملاكهم فى أسبانيا تدريجيا ، فما وراء البرانس خلال الفترة التى تبدأ من عام ٧٨٥ م ، كونوا من هذه الممتلكات نبدا أو مقاطعة سموه المارك الأسبانى ، بحسب تنظيماتهم الإدارية عند مناطق الخطر فى الأطراف ؛ وذلك عام ٧٩٥ م بفضل جهود لويس بن شارلمان ، وأقام لويس فى هذه المنطقة بعض الحصون وشحنها بالمقاتلة ، تحت إشراف اثنين من الأكناد Caunts هما : بوريل Barrel وروستينج Rostaing ، واستعان لويس بالمسيحيين اللاجئين وبعض المسلمين الفارين والخارجين على سلطان الدولة الإسلامية بالأندلس ، وكون منهم فرقة لحراســـة المنطقة الأسبانية ، وبذلك تمكن الفرنجة من تدعيم سيادتهم فى هذه البقعة الأسبانية ، حتى اقتربت أملاكهم من أملاك مملكة جليقة المسيحية ، وملكها المعاصر زمن شارلمان وابنه لويس هو ألفونسو الثانى ( الأذفونش ) . وعند نهاية حكم شارلمان ضم المارك الأسبانى إلى مملكة أكويتانيا ، كما ضم مارك تولوز . ولما كان وليام أمير تولوز قد ساهم بنصيب موفور فى فتح برشلونة ، فقد جعلت له السيادة العليا على صغار الحكام الذين شاركوه فى حكومة هذه المناطق . ومات وليام كونت تولوز فى عام ٨١٢م ، وصارت أعماله العظيمة يتغنى بها .

أضحى المارك الأسبانى ، يعرف فيما بعد باسم إقليم قطالونيا Catalenia كما أضحى قاعدة مسيحية فى الركن الشمالى الشرقى لأسبانيا الإسلامية ، ونواة حية نمت حولها قوة المقاومة المسيحية خلال الحروب المستمرة

والمتقطعة ، وهى التى شنها المسيحيون وحلفاؤهم فى أسبانيا لإعادة فتح البلاد ، وهى الحركة التى عرفت بحركة الاسترداد المسيحى Chrestian Recanquista (١) .

وقد وصف الحميرى . برشلونة فى زمنه ( القرن التاسع الهجرى والخامس عشر الميلادى ) بقوله :

« برشلونة مدينة للروم ، بينها وبين طركونه ( Tarragne ) خمسون ميلا . . . وبرشلونة على البحر . . . ويسكن برشلونة ملك إفرنجة ، وهى دار ملكهم ، وله مراكب تسافر وتغزو ، وللأفرنج شوكة لاتطاق . . . وبرشلونة كثيرة الحنطة والحبوب والعسل ، واليهود بها يعدلون النصارى كثرة . . . وصاحب برشلونة اليوم راى مند ( Ray mond ) ابن بلنقير : ( Fils de Belengeur ) ابن بريل ( Fils de Barrel ) » (٢) .

تكررت غزوات الفرنجة على أسبانيا الإسلامية فى الفترة ما بين ٨٠٩ ، ١٨٣ م وذلك بعد أن أصبحت لهم تلك القاعدة فيما وراء البرانس ، ولكنهم استولوا على مملكة نافار المسيحية ، انتقاما من موقفها السابق من حملة شارلمان

---

(١) حقيقة احتل المسلمون برشلونة بعد ذلك أكثر من مرة ، لكن سيادتهم عليها لم تثبت ، فقد أعيد سلطان عليها عام ٢٤٢ هـ / ٨٥٦ م ، ثم استولى المنصور بن أبى عامر عليها عام ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م ، وفى عام ٩٨٧ م استولى عليها كونت بوريل ، وفى عام ١١٣٧ م انضمت إلى مملكة أرغونة ( انظر الحلل السندسية جـ ٢ ص ٢١٢ ، Lévi-Provencall I pp. 180-181 ; Deanesly p. 354 ;

(٢) الروض المعطار ٤٢ — ٤٣

وكارثة رونسفال عام ٧٧٨ م ، غير أن الحكومة التي أقامها لويس بن شارلمان في بنلونة ، عاصمة نافار ، كانت ضعيفة ، وفشل لويس في بسط سلطانه على وشقة ، التي كان حاكمها من قبل قد وضعها تحت سيادة شارلمان ومع ذلك نجح الفرنجة في الاستيلاء على جزء البلبار (١) .

الخلاصة : صار للفرنجة في أسبانيا مقاطعتان كبيرتان هما : قطالونيا وغشقونيا Gascony ، بجانب جزر البليار .

° ° °

على أن علاقات الود التي قامت بين بني العباس وبين الفرنجة الكارولنجيين ، وتبادل السفارات بينهم منذ انتزاع عبد الرحمن الداخل أسبانيا من سلطة العباسيين ، وتلك التي قامت بين أموى الأندلس وبين الإمبراطورية البيزنطية ، كرد على تلك العلاقات العباسية الكارولنجية ، أدى ذلك إلى مبالغة مؤرخي الفرنجة حتى زعموا لشارلمان حماية على الأراضي المقدسة ، منحها إياه الرشيد .

والذي لا شك فيه أن بين العباسيين والكارولنجيين علاقات ودية ، إذ اقتضت مصالح العباسيين مسالمة الفرنجة ، على بعدهم ، ولكن لقربهم من أسبانيا التي اقتطعها الأمويون من أملاك الخلافة العباسية ، وكذلك لسبب العداء التقليدي بين البيزنطيين والمسلمين ، ورغبة الخليفة العباسي في تقوية جبهة ضدهم وذلك بمحالفة الفرنجة منافس البيزنطيين والذين يخالفونهم في المذهب الديني فضلا عن الرغبة في القضاء

---

(١) Deanesly p. 364

على نفوذ البيزنطيين المعنوى بين مسلمى الشام والجزيرة. أما مصالحة الفرنجة فى محالفة العباسيين فتتلخص أولا فى تحقيق الحلم الإمبراطورى لشارلمان بمد نفوذه على أسبانيا ، والتذرع بأنه يعمل حليفاً للعباسيين ليكون له حق شرعى فى التدخل فى أسبانيا، ثم إذا كان قد فشل فى هذا التدخل عام ٧٧٨ م، حيث تعرض لكارثة رونسفال(١) فإنه أراد أن ينتقم لما أصابه فى ذلك العام ؛ ثم هو بعد ذلك حليف للكنيسة والبابوية ، والفرنجة دائما يعتبرون أنفسهم خدام العقيدة المسيحية والعاملين على نشرها وتقويتها ، سواء أكانوا تحت حكومة الميروفنجيين أم حكومة الكارولنجيين فهم يريدون تقوية الجبهة المسيحية فى أسبانيا ضد المسلمين وتسهيل طرق الحج إلى الأراضى المقدسة فى المشرق ، وحرصت البابوية حليفة الفرنجة ، منذ خطر اللومبارد فى القرن ٦ م وتقاعد بيزنطة عن حمايتها ، على أن تقوى صلتها ببطاركة المشرق فى الأسكندرية وأنطاكية ليقفوا بجانبها فى صراعها مع بطريرك القسطنطينية على الزعامة الروحية فى العالم المسيحى .

لهذه الأهداف ، جرى تبادل السفارات بين بلاط العباسيين وبلاط الفرنجة ، فأرسل شارلمان سفارة فى عام ٧٩٧ م إلى الرشيد لعقد حلف مع العباسيين ضد الأمويين بالأندلس وضد البيزنطيين ، والعمل على تسهيل طرق الحج ، واجتازت البعثة القدس ودرست أحوال المسيحيين به ؛ رحب الرشيد بهذه البعثة ووعد بتنفيذ مطالب شارلمان ، ورد السفارة فى عام ٨٠١ م ، وأخرى عام ٨١٠ م

وترتب على حسن التفاهم أن شجع الخليفة هارون الرشيد ، إمبراطور

---

(١) راجع ماسبق

الفرنجة على تقديم بعض هدايا للقدس وإقامة بعض المؤسسات الخيرية فى القدس مثل : المكتبة والمستشفى والأوقاف التى أوقفها عليها ؛ وشعر المسيحيون الأرثوذكس بالقدس بقوة شارلمان الكاثوليكى وأهمية الاستناد إليه فبعثوا له برموز تشريفية تقديراً منهم له .

على أن الروايات الغربية بالغت فى تقدير ما ترتب على هذه العلاقات من نتائج إذ زعمت أن الرشيد منح شارلمان حق حماية الأماكن المقدسة ، وأن شارلمان يتمتع بهذه الحماية ، وأنه قام نفسه بالحج إلى الأراضى المقدسة ثم زعمت هذه الأساطير كذلك أن شارلمان ، بمقتضى هذا الحق ، يعتبر أول صليبى ؛ وأرجع بعض الكتاب المحدثين بعض أصول حرب القرم التى نشبت فى القرن التاسع عشر إلى ذلك النزاع الذى شجر بين رهبان الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية ، فى أيهما أحق بحراسة بعض الأماكن المقدسة المسيحية ببيت المقدس ، وهذا النزاع استمد أصوله من هذه الحماية الأسطورية التى أذاعها الفرنجة ؛ وإلى هذه الأسطورة استند الفرنجة المتأخرون فى ادعاء حقوق تاريخية لهم على الشام .

تلك هى خلاصة ما ورد بصدد الحماية الفرنجية على الأماكن المقدسة ولاشك أن اينهارد فى سيرة شارلمان لم يرد إلا تفخيم أمر سيده شارلمان كما أن كتابات سانت جال St. Gall أسطورية لايعتمد عليها ، فضلا عن عدم دقة الحوليات الملكية فى تسجيل الأحداث ، بدليل أنها لم تذكر شيئاً عن كارثة رونسفال ؛ ثم إن الرشيد كان منتصراً على البيزنطيين ، ولا يوجد دليل على أن مسيحى الشام والجزيرة كانوا خطراً يذكر على

سلامة الدولة الإسلامية فى ذلك الوقت ؛ هذا وقد تخلى العباسيون عن فكرة استرجاع الأندلس منذ عهد المنصور الذى أدرك استحالة هذا الأمر .

ومن ثم ، فنظرية الحماية على الأراضى المقدسة ، وهم أسطورى ، تناقله الكتاب جيلا بعد جيل ، حتى غدا كالحقيقة التاريخية ، ولكن أسطورية هذه الحماية ، لاتنفى وجود علاقات ودية بين بنى العباس والفرنجة كما لاتنفى قيام شارلمان ببعض الأعمال الخيرية فى القدس وتطلع مسيحى القدس إليه ، أما مسألة إهداء مفاتيح قبر المسيح من قبل بطريرك القدس إلى شارلمان ، فلا أهمية سياسية لها ، وهى لا تعدو أن تكون رمز تشريف وتبريك (١) .

* * *

---

(١) راجع فى موضوع الحماية الفرنجية على الأماكن المقدسة وما تفرع عنها ، والعلاقات العباسية الكارولنجية :

— الدكتور عبد العزيز الدورى : العصر العباسى الأول ص ١٤٩ ، ١٥٦ ، فقد أورد مناقشة علمية دقيقة فى هذه المسألة .

الدكتور حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الأبيض ( المجلة التاريخية م ٤ سنة ١٩٥١ ص ١٥٥ — ١٦٤ ) ، اعتمد على ما كتبه الدورى .

— دبفيز : شارلمان ( ترجمة الباز ) — الملاحق ص ٣٠١ — ٣٠٤

— فشر : غزوات العرب فى العصر الحديث ( ترجمة هاشم والضبع ) ص ٢١٧ — ٢٢٧ ؛

— أرسلان : غزوات العرب ص ١٣٢ — ١٣٣ .

Runciman. S., A History of the Crusades. Vol. I; PP. 28 - 29; Charlemagne & Palestine ( In English Historical Review, Vol. I, pp. 606 sqq. ; Pironne, H, Mohammad & Charlemagne, PP 160 —167 ; Deanesly, of Cit. P. 862; Joranson The Alleged Frankish Protectorate in Palestine ) ( A. H. R. 1927 PP. 241 — 6 ; Eginhard Vie be Charlem agne ( ed. Halphen Paris 1947 ) ; Buckler F. W. Harun l'Rashid & Charles the Great, PP. 4-29.

أما عن علاقة الأمويين فى الأندلس بالبيزنطيين والتى تعتبر ردا على العلاقات العباسية الفرنجية ، فقد وضحت زمن عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ / ٨٢١ — ٨٥٢ م) ، وعاصره من أباطرة بيزنطة ثلاثة هم : ميخائيل الثانى من الأسرة العمورية ، وهو المعروف بالألكن أو التمتام ؛ M. the Stammerer (٨٢٠—٨٢٩ م) وثيوفلس Theophilus (٨٢٩ — ٨٤٢ م) وميخائيل الثالث ، المنعوت بالسكير[١] (٨٤٢ — ٨٦٧ م) ؛ والمعاصرون للأوسط من خلفاء بنى العباس أربعة هم : المأمون (١٩٨ — ٢١٨ هـ / ٨١٣ — ٨٣٣ م) والمعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ — ٨٤٢ م) والواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ / ٨٤٢ — ٨٤٧ م) والمتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ / ٨٤٧ — ٨٦١ م) .

أرسل ثيوفلس ، وتذكره المراجع العربية باسم ترفيل أوتيوفيل أو توفلس ، سفارة إلى عبد الرحمن الأوسط عام ٢٢٥ هـ / ٨٣٩ — ٨٤٠م ، ورسوله هو قراطيوس Kartiyus ترجمان البلاط البيزنطى ، وحمل الرسول الرومى هدية إلى عبد الرحمن الأوسط ، ولخص المقرى هدف وسبب هذه السفارة فى أن توفلس « يطلب مواصلته — أى مواصلة عبد الرحمن ويرغبه فى ملك سلفه بالمشرق ، من أجل ما ضيق به المأمون والمعتصم ، حتى أنه ذكرهما له فى كتابه له ، وعبر عنهما بابنى مراجل ومارده — أمتان للرشيد الأولى فارسية أنجبت له المأمون والثانية تركية وهى أم المعتصم ،[٢]

---

(١) انظر سابقا .

(٢) نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٢

كذلك طلب تيوفلس فى رسالة أن يعمل الأوسط على استخلاص جزيرة كريت التى استولى عليها الأندلسيون، على أثر وقعة الربض (١)، ويردها إلى الروم ثانية (٢). وفى نفس الوقت أرسل توفيل وفدين، أحدهما إلى بلاط لويس بن شارلمان فى إنجلهيم Ingelheim (يونيه ٨٣٩ م) والآخر إلى بلاط البندقية (٨٤٠ م)، وذلك للتحالف معهما ضد مسلمى أفريقية وصقلية، الذين هددوا الأملاك البيزنطية فى إيطاليا (٣).

وكان تيوفلس مدفوعا بسبب الخطر المحدق به من جانب العباسيين، إذ حدث فى عام ٨٣٧ م أن استولى ثيوفلس على حصن زبطرة، فأجابه المعتصم بالاستيلاء على عمورية، مسقط رأس الأسرة الإمبراطورية، وذلك فى العام التالى (٤).

استقبل عبد الرحمن الأوسط سفير ثيوفلس مرحباً، وقد سر بهدايا

---

(١) انظر ما يلى

(٢) ليفى بروفنسال: الإسلام فى المغرب والأندلس (ترجمة سالم) ص ٩٧ — ٩٨ ؛ مؤنس: المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١٦٥

(٣) المعروف أن بيزنطة اعترفت بامبراطورية شارلمان زمن الإمبراطور نقفور الأول Nicephorus (٨٠٢ — ٨١١ م)، وتدعم الاعتراف زمن ميخائيل الأول، بدليل ما ورد فى رسالة شارلمان إلى ميخائيل الأول (٨١١ — ٨١٣ م) من رغبة فى عقد هدنة أو تحالف بين الإمبراطوريتين الشرقية والغربية:

" inter Orientale et Occidentale Imperuim "

(انظر Bryce, pp. 61 n. 2 ؛ ليفى ص ٩٨ — ١٠٠ ؛ Lévi Prov, op. cit T. I. pp. 250 - 1)

(٤) ابن الأثير جـ ٦ ص ١٧٦ — ١٨٠

بيزنطة، وأجابه ببعثة عضواها: الشاعر (الجيانى، والفيلسوف السياسى) والمنجم يحى بن الحكم الملقب بالغزال لجماله والعضو الثانى يسمى يحى أيضا، وهو منجم كذلك، وينسب إليه اختراع نوع من الساعات، حتى عرف باسم «صاحب المنيقلة» (١). خرجا السفيران القرطبيان من ميناء مورسية فى تدمير ووصلا القسطنطينية بعد رحلة شاقة طويلة، فى شتاء سنة ٨٣٩ / ٨٤٠ م. واحتفل الإمبراطور بمقدم الرسولين، ومعهما رسالة مطولة من عبد الرحمن الأوسط، لا تظهر فيها مجاملات دبلوماسية، ولكنه أجاب فيها على كتاب ثيوفلس، فقرة فقرة، ولم يتقيد بشىء (٢)، على أن تفاهما تم بين بلاطى قرطبة والقسطنطينية، لكن لم تبرم معاهدة أو محالفة، لأن عبد الرحمن الأوسط لم ير أن يتورط فى محالفة دولة بعيدة كل البعد، ولذا آثر التفاهم والود على التحالف الرسمى، مما يدل على بعد نظر أمير قرطبة (٣).

واقترن اسم يحى الغزال ببعض الحوادث التى وقعت له فى أثناء مقامة بالقسطنطينية، منها إعجاب الإمبراطورة ثيودورا، المعروفة فى الكتب العربية باسم تود، وحديثه معها بحضرة الإمبراطور، وزيارة الإمبراطورة له بصحبة ابنها ميخائيل، فى القصر الذى خصص لسكنى

---

(١) ليفى ص ١٠٠ — ١٠١

(٢) انظر نص رسالة أمير قرطبة فى الملاحق فيما يلى :

(٣) العبادى ص ١٠٦ — ١٠٧ ؛ مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١٦٤ — ١٦٧ ؛ Scott I, PP 478 — 9

ليفى بروفنسال (ترجمة سالم) ص ١٠١ — ١٠٥ ؛ Lévi — Prov, T. I.P, 258

الوفد الأندلسي بالقسطنطينية ، وخلد الغزال هـــذه الزيارة فى قصيدة رائعـة (١) .

وتجددت محاولات أباطرة بيزنطة للتحالف مع بنى أمية بالأندلس زمن عبد الرحمن الناصر ( ٣٠٠ — ٣٥٠ هـ / ٩١٢ — ٩٦١ م ) ، فقد أوفد الإمبراطور قسطنطين السابع الملقب بالأرجوانى Parphyrogenitus (٢) ( ٩١٣ — ٩٥٩ م ) سفارة إلى قرطبة فى عام ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م ، تحمل هدية فاخرة ورسالة إلى الناصر ، راغبا منه فى إيقاع المؤالفـة ، — كما يقول ابن الخطيب (٣) — إذ كان إمبراطور بيزنطة يخشى نوايا الفاطميين، واستقبل الناصر رسل الروم فى موكب حافل (٤) ، ألقيت فيه خطبة ظهر فيها عظيم سلطانه وتصف ماتهيأ من توطيد الخلافة فى دولة (٥) . وأجاب الناصر على رسالة الإمبراطور وهداياه وبعث بسفير من قبله هو هشام بن هذيل يحمل هدية ورسالة ، مؤكداً أحسن المودة ، وعاد هذا السفير من القسطنطينية بعد سنتين (٦) . وفى صحبته رسل الإمبراطور . وهشام بن

---

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ٤٤١ — ٤٤٥ ؛ ليفى بروفنسال ( ترجمة سالم ) ص ١٠٧ — ١١١ ؛ انظر القصيدة فى الملاحق فيما يلى .

(٢) سمى كذلك لأنه ولد فى الغرفة الأرجوانية ، وهى الغرفة المخصصة للامبراطورة فى القصر الإمبراطورى .

(٣) أعمال الأعلام ص ٣٧ ، انظر كذلك ابن عذارى جـ ٢ ص ٣١٩

(٤) انظر وصف الاستقبال فى الملاحق .

(٥) نفح الطيب جـ ١ ص ١٧٢ — انظر نص الخطبة فى الملاحق

(٦) نفح الطيب جـ ١ ص ١٧٠

هذيل من قسوس مستعربى الأندلس ، وهو الذى تسمية المراجع العربية « الجاثليق » Catholicus (١) .

وطلب الناصر من القسطنطينية الفسيفساء والتحف على يد كبير مستعربى الأندلس وهو الأسقف ربيع بن زيد ، فعاد بالتحف ومر بالقدس واستصحب معه فى عودته عددا من صناع الفسيفساء لتركيبها ، كذلك أحضر ربيع الأسقف حوضا منقوشا بالذهب (٢) .

وفى زمن الحكم المستنصر ( ٣٥٠ - ٣٦٦ هـ / ٩٦١ — ٩٧٦ م ) ورد من بلاد الروم إلى قرطبة نفر من مهرة الصناع ، ومنهم تعلم الأندلسيون هذه الفنون ، ولهذا أثره البعيد فى تطور الفن الأندلسى (٣) .

* * *

لم تحل هذه العلاقات دون تجدد غارات العرب على فرنسا كما لم يحل دون ذلك طرد المسلمين من سبتمانيا ( جوثيا ) وأربونة منذ عام ٧٥٩ م ، واستيلاء الفرنجة على برشلونة الأسبانية الإسلامية عام ٨٠١ م .

تكررت غزوات المسلمين فى جنوبى فرنسا ، وهوجمت مرسيليا أكثر من مرة : فى عام ٨٣٨ م ، ٨٤٢ ، ٨٤٦ ، ٨٤٨ ، ووصل المسلمون

---

(١) مؤنس : المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١٦٥ — ١٦٦

(٢) المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١٦٦ ؛ أعمال الأعلام ص ٣٨

(٣) أعمال الأعلام ص ٤٢ ؛ المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١٦٦

إلى مصب الرون قرب أرل ، وغنموا وعادوا (١) ، بل إن غزواتهم امتدت على طول ساحل فرنسا الجنوبية شرقا حتى وصلوا إلى جنوه الإيطالية .

وحدث خلال الصراع الداخلى فى فرنسا زمن شارل الأصلع (ت ٨٧٧ م ) أن استعان بعض الخصوم بالمسلمين ، فأمدوهم بجنود ، أجبرت شارل الأصلع على طلب الصلح (٢) . ورغم الاضطرابات التى ملأت أسبانيا الإسلامية فى ذلك الوقت ، وهو النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى (٣) ، فإن المسلمين لم يكفوا عن قرع أبواب فرنسا ، فنزلوا فى عام ٢٨٣ هـ / ٨٦٩م فى بروفانس ، فى مكان يقال له كامراج Camrague وحاولوا الاستقرار فى بروفانس (٤) .

كانت أحوال الإمبراطورية الكارولنجية ملائمة كل الملاءمة لاستقرار المسلمين فى جنوبى فرنسا ، فقد حدث بعد وفاة شارل الأصلع بسنتين ، أن قام بوزو Boso دوق بروفانس ، وأعلن نفسه ملكا مستقلا فى أكوتيانيا بمساعدة رجال الدين والنبلاء المحليين . كان ذلك فى أكتوبر من عام ٨٧٩ م .

---

(١) المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١٢٩ .

(٢) أرسلان ص ١٥٥ ــ ١٥٨ ( عن دوت بوكى Don Boquet الراهب البنكتى والمؤرخ ، المتوفى عام ١٧٥٤ م )

(٣) راجع : العبادى ص ١١٧ ــ ١٢٢ ؛ أعمال الأعلام ص ٢٠ ــ ٢٨ ؛ نفح الطيب حـ ١ ص ١٦٣ ــ ١٦٥ ، أخبار مجموعة ص ١٤١ ؛ ١٥٧ ــ ١٥٨ ، ١٧١ ــ ١٧٣ ، ١٧٦ ــ ١٧٨

(٤) المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١٢٩ ــ ١٣٠ ؛ أرسلان ص ١٥٨ ــ ١٥٩ .

وشملت مملكة بوزو حوض الرون من آرل إلى ليون Lyons . كذلك ثار هيو Hugh أحد مقدمى الأديرة . ورغم أن شارل السمين ، إمبراطور الفرنجة وحفيد شارلمان ، تمكن من قمع حركة بوزو وهزيمته فى عام ٨٨٢ م والاستيلاء على معظم أملاكه ، حتى صار محصوراً فى منطقة ضيقة تحيط بمدينة فين Vienne (١) ، إلا أن لويس بن بوزو ، نجح بعد وفاة شارل السمين فى ١٣ يناير ٨٨٨ م ، فى استعادة أملاك أبيه ، وإعلان استقلاله بإقليم بروفانس .

وفى نفس الوقت ، انتهز أود Eudes كونت باريس ، وفاة شارل السمين واضطراب الأحوال ، وأعلن نفسه ملكا على فرنسا الغربية ، وأخذ لقب « ملك فرنسا الغربية » Rex Francia Occidertalis .

وأود هذا ، كان قد اشتهر بشجاعة فى الدفاع عن باريس أمام غزو النورمان لها . فكافأه شارل السمين بجعله دوقا لباريس وما حولها (٢) .

خلال هذه الأحداث والاضطرابات الناجمة عن الثورات الداخلية ، والغزو النورمانى ، أخذ المسلمون يستقرون فى بعض جهات بروفانس ، ويتخذونها قاعدة لهم من جديد ، وذلك بعد أن فقدوا مراكزهم الأولى

---

(١) Deanesly. op. Cit., PP. 460—461

(٢) أود هو ابن روبرت المعروف بالقوى Robert the Strong جد آل كابى Capets الذين انتزعوا العرش من الكارولنجيين فيما بعد وأسسوا أسرة مالكة فى فرنسا

( انظر ما يلى وراجع : Dutaillis, P., The Feu dal Monarchy in France & Eugland, PP. sqq.; Deanesly, PP. 463-4; Brooke AHistory of Europe, P.8,)

فى إقليم سبتمانيا . وفى الفترة بين عامى ٨٨٩ ، ٨٩٤ م ، دخل غزاة جدد من المسلمين ، جاءوا من أسبانيا الإسلامية وتوغلوا فى المنطقة الجبلية المليئة بالغابات والمطلة على خليج سان تروبى St. Tropez جنوبى فرنسا وظلوا فى تقدمهم حتى وصلوا إلى قمة جبل يشرف على جزء كبير من بروفانس . وقد نسب هذا الجبل إلى المسلمين فيما بعد فعرف باسم « جبل المسلمين أو سلسلة جبال المسلمين : Chaines des Mauoes .

أدرك المسلمون أهمية هذه المنطقة الحصينة ، فالبحر مفتوح أمامهم للإمدادات الخارجية ، كما أن البر من الداخل مهيأ للغارات الداخلية ، وبجانبهم الغابات الكثيفة للالتجاء إليها عند الحاجة . أخذوا يقيمون المعاقل فى هذه المنطقة ، وتوالت عليهم الإمدادات من أسبانيا وشمالى أفريقية . وأهم هذه الحصون التى بناها العرب حصن فراكسنيتوم Fraxinetum ، وموضعه الحالى هو المكان المعروف باسم : لاجارد فرينى La Garde - Frainet ، ويقع بين هير Hyéres وفريجوس Fréjus (١)

أما تسميته بهذا الاسم ، فاختلفت حوله الأقوال ، ويحتمل أنه كانت توجد قرية رومانية قديمة بهذا الاسم ، فى هذا المكان ، احتلها العرب وأزالوها ، واختاروا قمة الجبل لإنشاء هذا الحصن وأطلقوا عليه اسم القرية (٢) ، وربما كان أصل التسمية مشتقاً من شجر البلوط Fraxinus

---

(١) المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١٣٠ ، أرسلان ص ١٦٠ ، ١٦١ ، ٢٨١ ، كليليا ( Clelia ) : مجاهد العامرى ص ١٨٤ — ١٨٥ ، Pirenne, Mohammad & Charlemagne, PP. 156, 249 ) .

(٢) غزوات العرب ص ١٦٢ — ١٦٦ .

الذى يكثر فى هذه المنطقة . والمعنى المجازى لهذا الاسم : حربة أو رمح ذو عمود أو مقبض مصنوع من خشب البلوط ، وقد يرجح هذا التفسير الأخير ، بدليل أن هذه التسمية أطلقت على مواضع أخرى فى هذه المنطقة ومايتاخمها : فى دوفينى Daufhiné وسافوى Savoie وبيد مونت .

أورد المؤرخ بيرين Birienne نصا مؤداه ، أنه فى أغسطس من عام ٨٩٠ م أو حوالى ٨٩٠ م ، استقر بعض مسلمى أسبانيا فى منطقة بروفانس وأسسوا حصناً قوياً فى فراكسينيتوم (١) .

أضحت فراكسينيتوم عاصمة الممتلكات الإسلامية فى هذه المنطقة ، وكانت مشمولة برعاية خلفاء قرطبة والملحوظ أن الخليفة الأموى المعاصر لتأسيس هذه القاعدة هو الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ( ٢٧٥ — ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ — ٩١٢ م ) . وقد تمكن المسلمون بفضل مناعة هذا المعقل ، أن يتحكموا فى بروفانس ودوفينى ، ومنه بعثوا بغاراتهم على البلاد المجاورة ، فتوغلوا فى منطقة مرسيليا ، وصعدوا على نهر الرون ، ونشروا الفزع والرعب فى مقاطعتى فالنتان وفين Valentin et Vienns ووصلوا إلى مدينة إكس Aix (٢) .

ومن هذه المنطقة ، امتد سلطان المسلمين إلى مدينة Nice ، وتتبع مملكة آرل ، وسكنها كثير من المسلمين ، وكان لهم بها حى خاص نسب

---

(١) انظر الخريطة وراجع : Pirenne, Op. Cit, P. 249

(٢) العدوى فى حوض البحر الأبيض ص ١٣٠ ؛ غزوات العرب ص ١٧٠

زأيهم Canton des Ses Sarrazins . كذلك احتل المسلمون مدينة جرنوبل Grenoble وليس من المعروف بدقة ، تاريخ دخولهم فيها ، وقد عثر على كتابة منقوشة على حجر ، تدل على وجود المسلمين فى جرنوبل، ويرجع تاريخ هذه الكتابة إلى عام ٩٥٤ م [١] ، أى زمن عبد الرحمن الناصر الأموى فى الأندلس ( ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م ) .

امتدت غزوات المسلمين إلى سافوى . وهناك أسماء عربية كثيرة ، عثر عليها فى سافوى ، مما يدل على إقامة المسلمين بهذا الإقليم . من ذلك وادى السرازيرة أى وادى المسلمين Vallée des Sarrazise قرب مودان Modane [٢] .

ولا شك أن تحكم العرب فى قلعة فراكسنيتوم بجنوب فرنسا ، كان عاملا أساسياً فى استمرار الغزو الإسلامى لهذا الإقليم وما وراء الألب [٣] ولذلك نجد أن هذه الغارات قلت عندما فقد هذا الحصن حوالى عام ٩٧٥ م وربما انقطعت . ومع ذلك ، حاول المسلمون استئناف الغزو والفتح فى جنوب فرنسا ، فى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى ، غير أن هذه الغزوات الأخيرة لم تأخذ صفة الدوام ، لتغير الأحوال فى أوربا المسيحية وفى أسبانيا الإسلامية بصفة خاصة [٤] .

---

(١) غزوات العرب ص ١٧٤

(٢) غزوات ص ١٧٥ — ١٧٦

(٣) انظر ما يلى

(٤) انظر ما يلى

وقعت هذه الغزوات الأخيرة زمن سيادة آل كابيه Capets (١) بفرنسا وبزعامة مجاهد مسلم مغامر هو أبو الحسين مجاهد بن عبد الله العامري الصقلي المسيحي الأصل (ت ٤٣٦ هـ/١٠٤٥) . وقد أشارت إليه الكتب الأجنبية المعاصرة باسم Mwujet أو Musectus ؛ وكان مجرد ذكر اسمه ، يلقي الرعب في قلوب المسيحيين . اتخذ مجاهد من قاعدته دانية Denia بشرق الأندلس ، مركزا للوثوب على جزر البحر الأبيض الغربي ، وسواحل فرنسا الجنوبية وسواحل إيطاليا (٢) .

وخلال النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي ، تعرضت سواحل فرنسا لغزوات المسلمين ، فغزيت عين الطيب عام ١٠٠٣ م ، وفي عام ١٠١٩ م ، هاجم المسلمون مدينة أربونة Narbonne ، ولكنهم ردوا

---

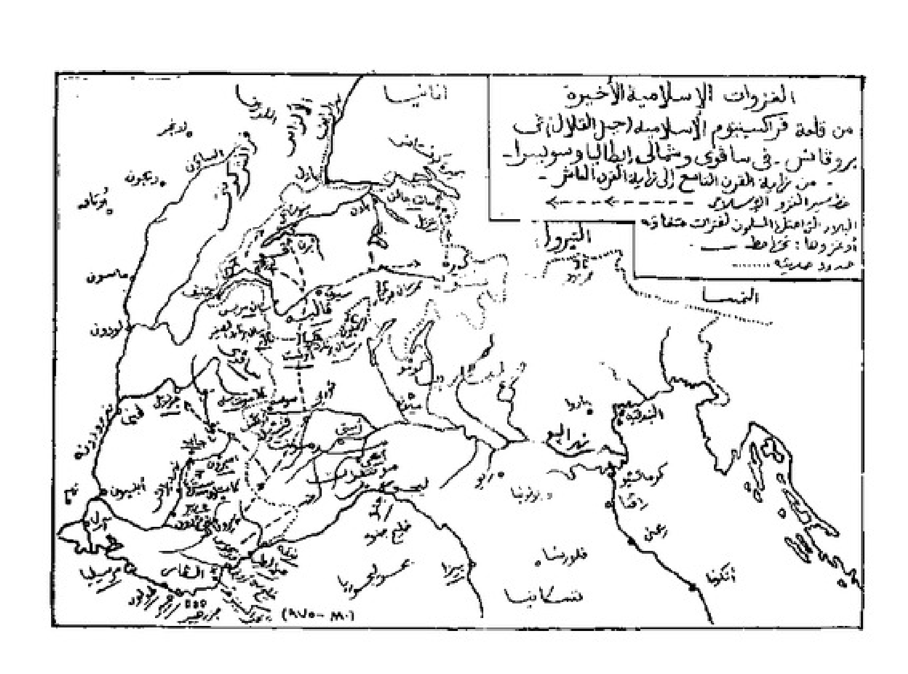
(١) جد آل كابيه الأعلى هو روبرت القوي ، كونت باريس الإقطاعي ، وقد برزت شجاعة روبرت وابنه أودو Odo في رد غارات النورمان عن باريس ، على حين فشل ملوك فرنسا الكارولنجيون ، أمثال شارل الأصلع وشارل السمين ، وكان ذلك في خواتيم القرن التاسع الميلادي ومن هذه الأسرة من أخذ لقب ملك ، مع وجود الملك الكارولنجي ، حتى إذا كانت نهاية عهد لويس الخامس الكارولنجي المتوفى عام ٩٨٧ م ، اجتمع سادة فرنسا الإقطاعيون مع رجال الدين ، وانتخبوا هيو كابي Hugh Capet ملكا على فرنسا في ذلك العام ، وتأسست بذلك أسرة مالكة جديدة هي أسرة آل كابي ، ونسبت إلى هيو هذا ، وبدأ بهذا تاريخ المملكة الإقطاعية في فرنسا ، واستمرت نحو ثلاثة قرون ( راجع : Dutaillis, Pp. 7-11, Brooke, PP. 6, 101 -120 ; Masson, Mediaeval France, PP. PP. 1-21 ). ٦٠١١

(٢) كان مجاهد العامري من موالي المنصور بن أبي عامر ، وولاه حكم مدينة دانيه ، فاستقل بها بعد وفاة ابن أبي عامر ووسع ملكه ونفوذه في البحر ، وقصة حياته وازدهار بلاطه من أساطير البطولة والعظمة ( راجع : ابن خلدون جـ ٤ ص ١٦٤ ؛ صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٥٦ — ٢٥٧ ؛ الروض المعطار ص ٧٦ ؛ ابن الخطيب ص ٢١٧ — ٢١٩ ، معجم الأدباء جـ ١٧ ص ٨٠ ؛ المسلمون في حوض البحر الأبيض ص ١١٦ ؛ غزوات العرب ص ٢٠٢ — ٢٠٤ ، كاليفا ص ٢١١ — ٢١٤)

عنها ، كذلك هاجم المسلمون جزر لاران Larin أمام سواحل فرنسا الجنوبية ، ونزل بها فريق منهم عام ١٠٤٧ م . وكلها غزوات سريعة ، هدفها الحصول على المغنم ، إذ تعذرت الإقامة والاستقرار . وعثر فى مدينة مارتيج Martigues عند مصب الرون ، وفى جزر هيير Hyéres ، على بعض الأوراق الدالة على إقامة المسلمين فترة من الزمن فى هــــذه البقاع (١) .

---

(١) غزوات العرب ص ٢١ ـ ٢٠٢


الغزوات الإسلامية الأخيرة
من قلعة فراكسينتوم الإسلامية (جبل القلال) في بروفانس - في سافوي وشمالي إيطاليا وسويسرا -
- من نهاية القرن التاسع إلى نهاية القرن العاشر -
خط سير الغزو الإسلامي
البلاد التي احتلها المسلمون لفترات متفاوتة أو غزوها: تحت الخط
حدود حديثة
ألمانيا
التيرول
النمسا
بادوا
البندقية
نهر البو
كوماكيو
رافنا
ريمني
أنكونا
بولونيا
فلورنسا
تسكانيا

# الفصل السابع

## النفوذ الإسلامي في إيطاليا

صقلية نقطة وثوب على ايطاليا ـ ملاءمة الأحوال في ايطاليا ـ مهاجمة الشواطئ الايطالية ـ امارة برنديزى الاسلامية ( ٨٣٨ ـ ٨٧٠ ) ـ قلورية وهزيمة بيزنطة البحرية ( ٨٣٨ ) ـ طارانت ( ٨٤٠ ) ـ امارة بارة الاسلامية ( ٨٤١ ـ ٨٧١ ) ـ المفرج بن سلام ـ غزو روما ـ البابوية تدفع جزية للمسلمين (٨٧٠) ـ امارة جارليانو الاسلامية ( ٨٨٢ ـ ٩١٥ ) ـ سقوط ريو ( ٩٠١ ) ـ شمالى ايطاليا ـ شاطئ دالماشية ـ انكونا ـ كوماتشيو ـ التوغل فى بيد مونت من فراكسينيتوم ومعاقل الألب الاسلامية ـ مونتفرات واستى وأكى ـ حصون العرب على نهر البو ـ مجاهد العامرى وغزو لونى وبيزا ( ١٠١٥ م ) .

أما إيطاليا : فلم تسلم من الغزوات الإسلامية ، واشتدت هذه الغزوات خلال عمليات الغزوات والفتح فى جزيرة صقلية ، وقد اتخذ المسلمون من صقلية ، نقطة وثوب على إيطاليا ، ولم تستطع بيزنطة أن تعمل شيئا ، بسبب انشغالها فى ميادين أخرى (١) ، ولذلك اتجهت البابوية فى إيطالية إلى الفرنجة لحمايتها ، وكان معظم إيطاليا الجنوبية خاضعا لأمراء بنفنتم اللومبارديين، وتعرف إمارتهم فى الكتب العربية باسم: «مملكة اللنبردية أو النوبردية أو الأنبردية»(٢) ، كما كانت هناك جمهوريات إيطالية صغيرة مجاورة لإمارة بنفنتم وهى : نابلى وجايتا Gaeta وسورينتو وأمالفى وسالرنو وكابوا وهذه كلها تتبع الإمبراطورية البيزنطية اسميا ، ويسودها النظام الإقطاعى، وقد عملت هذه الجمهوريات على الوقوف فى وجه أمراء اللومبارد والحيلولة دون توسع أمراء بنفنتم (٣) .

ولما كانت هذه الجمهوريات الإيطالية ، تفتقر إلى مساعدات المسيحين ،

---

(١) شغلت الإمبراطورية البيزنطية منذ مطلع القرن الثامن الميلادى فى الحركة اللاإيقونية والصراع الداخلى فضلا عن التنافس على العرش ، وضغط الخلافة العباسية ولاسيما وقد قامت ثورة فى بغداد لإعلان الجهاد ضد الروم ، وهناك خطر البلغار المتزايد فى البلقان ( راجع : C.med, H., PP. 148 – 140 Lindsey, PP. 406 – 417; Levtchenko, PP. 136 – 141; Bayet ( H. G. ) T. 1. PP. 626 – 28, 649 – 51; الحركة اللاإيقونية للمؤلف

(٢) صبح الأعشى حـ ٥ ص ٤١٥

(٣) Hunt, P. 13 ; Scott, H, P. 25 .

وتخشى من كثرة الحروب ، وتقاوم مطامع الأمراء اللومبارديين فى بنفنتم ، فقد اضطرت إلى محالفة المسلمين فى صقلية ، فتحالفت نابلى مع مسلمي صقلية عام ٨٣٠ م أو ٨٣٥ م ، ودام هذا التحالف نحو خمسين سنة رغم احتجاج المسيحيين (١) ويرجع ذلك إلى أن نابلى سئمت من الخضوع لإمارة بنفنتم والإتاوة التى كانت تدفعها لها ، وقدم المسلمون مساعداتهم لجمهورية نابلى ، حين حاصرتها جيوش بنفنتم بقيادة سيكاردوس Sicardus اللومباردى، ونجحت القوات الإسلامية التى أرسلها أبو الأغلب إبراهيم بن عبد الله ( ٢٢٠ — ٢٣٦ هـ / ٨٣٥ — ٨٥٠ م ) والى صقلية ، فى طرد المحاصرين ، وخلال هذه العمليات ، كان المسلمون يزيدون فى سلطانهم لصقلية (٢) .

وكانت هذه سابقة خطيرة ، لكنها كثيرا ما تكررت ، ولجأت إليها مدن أخرى من مدن الجنوب الإيطالى ، ولاسيما خلال الحرب التى اندلعت بين بنفنتم وسالرنو (٣) . بل إنه حدث خلال الصراع الذى وقع فى عام ٨٣٩ م ، بين الأمراء اللومبارد أنفسهم ، فى بنفنتم ، أن استعان المتنافسون بالمسلمين ، فاستعان بعضهم بالأغالبة فى أفريقية وصقلية ، واستعان البعض الآخر بمسلمي كريت أو مسلمي أسبانيا . وكان من نتيجة هذا الصراع الداخلى أن تمكن المسلمون من اجتياح إيطاليا الجنوبية

---

(١) Scott. II, P. 25

(٢) Scott. II, pp. 26-27, 51

بسرعة (١) ، وامتدت غزواتهم إلى جميع شواطئها المطلة على البحر الأدرياتى ، وعلى البحر التيرانى .

وسوف أتناول المناطق التى انبسطت عليها السيادة الإسلامية ، بحسب تاريخ قيام هذه السيادة ، ولو أن الترتيب التاريخى ، غير مضطرد فى بعض الأحيان ، بسبب أن الغزو الإسلامى كان يقع فى أكثر من جهة واحدة فى وقت واحد ، فضلا عن تكرر الغزوات ، ولذا سوف يكون هذا الترتيب التاريخى بالنسبة للغزو الأول .

ففى عام ٨١٢ م هاجم المسلمون لامبدوزا Lampedouza وبوتزا Pozza وإيشيا Ieckia على الشواطىء الإيطالية ، واحتفظوا بها لمدة ثلاثين سنة (٢) .

وفى عام ٢٢٢ هـ / ٨٣٦ م احتل المسلمون برنديزى Brundisium ، وفشل أمير الجهة فى طردهم ، فأحرقوها وعادوا إلى صقلية ، ثم تكرر الغزو حتى استولوا عليها عام ٢٢٤ هـ / ٨٣٨ م ، وكان عرب كريت بمساعدة عرب صقلية ، هم الذين أتموا فتح برنديزى ، واستمرت سيادة المسلمين عليها إلى عام ٨٧٠ م ، أى نحو ثلاثين سنة ، ( ٨٤٠ — ٨٧٠ م )(٣)

أما شبه جزيرة كالابريا Calabria ، وهى التى أطلق المسلمون عليها

---

(١) انظر ما يلى

(٢) مؤنس ص ١١٢

(٣) أرشيباند ص ٢٠٥ ، كرد على ص ٢٢٦ ، مؤنس ص ١١٢

اسم قلورية ، فقد هاجمها المسلمون وخربوا مدينة كاپوا . وذلك فى غزوة سريعة (١) ، وقد أشار ابن الأثير إلى الغزوة الكبرى لإقليم قلورية فى حوادث ٢٢٥ هـ ( ٨٣٩ م ) فقال :

« وسار أسطول المسلمين إلى قلورية ففتحها ، ولقوا أسطول صاحب القسطنطينية ، فهزموه بعد قتال ، فعاد الأسطول إلى القسطنطينية مهزوما . فكان فتحا عظيما » . (٢) ، ولم تنقطع غزوات العرب عن قلورية حتى سنة ٨٨٨ م التى انتصر فيها المسلمون على الأسطول البيزنطى ، بعد وفاة الإمبراطور باسل الأول المقدونى ( ت ٨٨٦ م ) (٣) .

ونجح المسلمون فى احتلال طارانت Tarentum ، عام ٨٤٠ م ، وهى قاعدة بحرية هامة على مدخل البحر الأدرياتى ، وتولى عرب كريت بعد ذلك حكمها حوالى سنة ٨٤٢ م أو ٨٤٣ م ، وقد امتد حكم المسلمين فى طارانت ٤٠ سنة (٤) .

وقد خشى البنادقة على تجارتهم من السيادة الإسلاميه على جنوبى إيطاليا ، فأرسلوا أسطولا مؤلفا من ستين سفينة ، وكان الإمبراطور البيزنطى ثيوفلس ( ٨٢٩ — ٨٤٢ م ) قد أغراهم بالمسلمين ، غير أن أسطول

---

(١) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٦٠ ؛ مؤنس ص ١١٢

(٢) تاريخ الكامل جـ ٦ ص ١٨٢

(٣) أرشيبالد ص ٢٢٠ — ٢٢١

(٤) مؤنس ص ١١٢ ، C. Med. H., IV. PP, 149 -150

البنادقة لتى هزيمة منكرة أمام الأسطول الإسلامى فى مياه طارانت ، قرب كرتونا Cortona على خليج طارانت ، ودمر الأسطول البندقى (١) .

وخلال الصراع الذى نشب فى إمارة بنفنتو اللومباردية عام ٨٣٩ م ، استعان المتنافسون على السلطة بالمسلمين فاتجه بعض المتنافسين إلى مسلمى صقلية ، بينما اتجه البعض الآخر إلى أسبانيا أو كريت ، وكان من نتيجة هذا الصراع ، أن استولى المسلمون على بارى Bari وما حولها عام ٨٤١ م وتكونت فى بارى إمارة إسلامية استمرت نحو ثلاثين سنة ( ٨٤١ — ٨٧١ م ) بل نجح المسلمون فى احتلال بنفنتو نفسها لمدة خمس سنوات ( ٨٤٢ — ٨٤٧ م ) (٢) .

وبارى ميناء هامة على مدخل البحر الأدرياتى، فهى تتحكم فيه، كغيرها من الموانى الجنوبية ،ولذلك اتخذها المسلمون قاعدة لغزو البلاد المتاخمة، واشتهر من قادة المسلمين فى بارى المفرج بن سلام ، الذى يقال إنه فتح أربعة وعشرين حصناً ، زمن خلافة المتوكل على الله العباسى ( ٢٣٢ — ٢٤٧ ﻫ / ٨٤٧ — ٨٦١ م ) ، وكتب ابن سلام إلى صاحب البريد بمصر « يعلمه خبره ، وأنه لايرى لنفسه ومن معه من المسلمين صلاة إلا بأن يعقد له الإمام ، ( أى خليفة بغداد) ، على ناحيته ويوليه إياها ، ليخرج من حد المتغلبين » (٣) ، وبنى فى بارة ، كما تسميها المراجع العربية، مسجداً جامعاً ، وامتد نفوذه على أشهر بلاد أبوليا ، ثم قتل على يد منافسيه ،

---

(١) أرشيبالد ص ٢١٥ ، كرد على ص ٢٧٦

(٢) كرد على ص ٢٧٦ ، مؤنس ص ١١٢

(٣) البلاذرى ق ١ ص ٢٧٧

وخلفه شخص يسمى سوران ، فبعث إلى الخليفة المتوكل ليعقد له على ولاية بارة ، ولكنه مات قبل أن يبرح رسوله إلى الشرق (١) .

ويبدو أن المفرج بن سلام وسوران ، من أهل كريت ، ولا صلة لهما بالأغالبة ، وأنهما عمدا إلى الخلافة العباسية فى بغداد بإرجاعها مباشرة ، لتصح ولايتها (٢) .

واشتهر حاكم بارة المسلم بالتسامح ، حتى إنه كان يشجع الحجاج المسيحيين ويساعدهم على الرحلة إلى فلسطين ، بتيسير حصولهم على السفن وتسهيل مرورهم على البلاد التى يجتازونها ولاسيما مصر (٣) .

وتعرضت روما كذلك إلى غزوات المسلمين عام ٨٠٩ م ، ويقال إن الغزوة وقعت فى يوم السبت فى عيد الفصح فى ذلك العام، ولم يسيئوا إلى البابا ليو الثالث اكبر سنه (٤) ، وتكرر الغزو فى عام ٨٤٦ م ، وهاجم المسلمون الأراضى البابوية، وهزموا حاميات كيفيتا فكيا Civita Viccia ونوفا أوستيا Nova Ostia ، ووصلوا فى هذه الغزوة إلى ضواحى مدينة روما وحاصروها ، فاضطرب البابا سرجيوس الثانى ، وحينئذ أسرع الإمبراطور لويس الثانى الكارولنجى ملك الفرنجة واللومبارديين ، وأرسل حملة لقتال المسلمين ، كما أعد حلف كامنيا المكون من نابلى

---

(١) البلاذرى ق ١ ص ٢٧٧ ، صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤١٠ ، أرشيبالد لويس ص ٢١٥

(٢) كرد على ص ٢٧٧

(٣) أرشيبالد لويس ص ٢٧٥

(٤) Desnesly, p. 875

وأما لنى وجانيا، أسطولا بحريا لمطاردتهم، فاضطر العرب لرفع الحصار بعد قتال عنيف، وعادوا محملين بالغنائم (١).

وجرت غزوة إسلامية أخرى لمدينة روما، وقعت فى عام ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م، وقوامها قوات من الأندلس وأفريقية، وكان حلف كامنيا حليفاً للمسلمين فى ذلك الوقت، ولذلك تمكن المسلمون من الوصول إلى ضواحى روما، فاضطر البابا حنا الثامن إلى مفاوضتهم فى الصلح والجلاء مقابل دفع جزية سنوية قدرها مائة ألف مثقال ذهب، وكان ذلك بعد أن طالت جهود البابا فى إثارة شارل الأصلع الفرنجى (٨٥٥ — ٨٧٧ م)، رغم أن البابا توجه إمبراطورا فى روما فى يوم عيد الميلاد سنة ٨٧٥ م بعد وفاة لويس الثانى، والواقع أن شارل الأصلع لم يضارع فى الكفاية سلفه لويس الثانى، فلم ينهض لإنقاذ البابوية، كما أن بيزنطة كانت حانقة على البابوية لاتجاهها إلى الفرنجة ومن ثم تعرضت الشدة البابوية Holy see لخطر المسلمين. (٢)

على أن الغزو الإسلامى لم ينقطع عن إيطاليا، وكلما ازداد تنافس الأمراء المحليين فى إيطاليا كثرت الغزوات الإسلامية، فازداد الضغط الإسلامى على الشاطىء المغربى لإيطاليا بصفة خاصة، وتوالت الغارات على مدن كامبليا Campagne، ونهب المسلمون جايتا Gaeta وسالرنو Salernum، وهاجموا نابلى وكابوا ومونت كاسينو، واحتلوا منطقة

---

(١) كرد على ص ٢٧٨

(٢) لوبون ص ٣٠٢، أرشيبالد لويس ص ٢١٩، كرد على ص ٢٧٨،
Hunt, p. 14 - Deanesly, P. 456; Scott, II, PP. 63, 51

ميزونيوم Misenium تحت أسوار نابلى ، وأشهر الغزوات التى اجتاحت هذه المناطق ، كانت فى سنوات ٨٥٦ ، ٨٧٦،٨٦٨ ، ٨٧٧ ، ٨٨٣ م (١)

وعند مصب نهر جارليانو Garilano أسس المسلمون إمارة إسلامية عام٨٨٢م أو ٨٨٣م وأضحت هذه الإمارة مركزا لتهديد مستمر للولايات البابوية ، واستمرت هذه الإمارة نحو أربعين سنة ( ٨٨٢ — ٩١٥م) (٢)

وفى مطلع القرن العاشر الميلادى ، نجح المسلمون فى الاستيلاء على مدينه ريو Reggio فى قلورية ، وذلك بقيادة أبى العباس فى سنة ٩٠١م ، الذى بنى فيها مسجداً كبيراً ، وشرط على أهلها ألا يمنعوا المسلمين من عمارة هذا المسجد ، أو الاختلاف إليه لتأدية الصلاة ، كما حرم على المسيحيين دخوله ، واشترط كذلك أن من يدخله من أسرى المسلمين فهو آمن ، وإن خرب النصارى فيه حجرا هدمت كنائسهم كلها بصقلية ، وقد وفى سكان ريو بهذه الشروط ؛ غير أن المسجد لم يستمر عامرا أكثر من أربع سنوات ، وكان البابا حنا الثامن عشر قد استعان بالبيازنة لتحرير مدينة ريو من المسلمين(٣) .

على أن غزوات المسلمين ، لم تقتصر على جنوبى إيطاليا ووسطها ، فقد امتدت إلى شمالى إيطاليا كذلك ، لكن يلاحظ أن هذه الغزوات ؛ فى

---

(١) مؤنس ص ١١٣ ، Scott, II. p. 85, Deanesly. p 450

(٢) كرد على ص ٢٧٧ — ٢٧٨ ، Hunt. P. 13 , Scott, II. P. 86

(٣) كرد على ج ١ ص ٢٧٨ ، كابابا ص ٢٠٠ C. Med. II., IV. P. 141

تلك الأصقاع ، لم تؤد إلى إنشاء إمارات إسلامية فى الأرض الإيطالية ، كما هو الشأن فى الجنوب ، ومع ذلك فقد كانت غزوات ملحة .

وأول غزوة فى شمالى إيطاليا ؛ كانت عام ٧٣٥ م ، على أثر وقعة بلاط الشهداء فى فرنسا ( ٧٣٢ م ) ؛ وفيها توجه عقبة بن الحجاج السلولى ، على رأس جيش ودخل بيدمونت وغنم منها ، ولكنها كانت غزوة سريعة(١) ثم فترت حركات المسلمين فى شمالى إيطاليا مدة من الزمن .

وفى عام ٨٣٤ م ، غزا المسلمون ثغر جنوه ، وتكرر الغزو فى العام التالى ، وغنم منها المسلمون وعادوا(٢) . ولكن سواحل البحر الأدرياتى الشمالية استهدفت لأكثر من غزوة ، منذ عام ٨٤٠ م ، فقد حدث على أثر اشتراك البنادقة فى العمل على طرد المسلمين عقب استيلائهم على طارانت عام ٨٤٠ م ؛ أن توجهت الأساطيل الإسلامية فى البحر الأدرياتى إلى ساحل دالماشيا ونهبت مدينة أوزيرو Osro فى جزيرة خرسو Gherso التابعة للبنادق ، وأسروا عدداً من سفن البندقية ، كما أسروا كثيراً من أهل أنكونا ، ولم تسلم البندقية نفسها من الغزو(٣) .

وعند مصب نهر البو ، يقع ثغر كوماتشيو Gomacchio ، وهذا بدوره تعرض للغزو الإسلامى عام ٨٧٥ م كما تكرر غزو البندقية ،

---

(١) فجر الأندلس ص ٢٨١

(٢) المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١١٣ ، كرد على جـ ١ ص ٢٧٧

(٣) أرشيبالد ص ٢١٥ — ٢١٩ ، كرد على جـ ١ ص ٢٧٦ — ٢٧٧

Scott. II, P. 85

وتوغل المسلمون فى غزواتهم فى الداخل حتى وصلوا إلى حدود استريا Istria ، مما أدى إلى تعطل تجارة إيطاليا البحرية(١) .

ومنذ استقرار المسلمين فى قلعة فراكسينيتوم حوالى ٨٩٠ م ، لم تنقطع الغارات الإسلامية عن شمالى إيطاليا وماحولها من الجهات . فتحكم المسلمون فى ممرات جبال الألب ، وعبروا ممر مونت سنى Mont Cenis عام ٩٠٦ م . فهرب رهبان دير نوفاليز Novalese - على حدود بيد مونت إلى تورين . واستطاع بعض أهالى تلك المناطق أن يقبضوا على فريق من الغزاة المسلمين ، فى مدينة تورين ، لكن هذا الفريق تمكن من الإفلات(٢) .

ولم يستطع العابرون والمسافرون أن يجتازوا من مضايق الألب ، إلا إذا كانوا مسلحين أو أخذوا إذنا من العرب المتحكمين فى جميع الممرات ، أو دفعوا رسما نظير مرورهم .

وكثرت غاراتهم فى شمالى إيطاليا . فهاجموا مونتفرات Montferrat ومدينة أستى Asti وآكى Acqui ، والأخيرة مشهورة بحماماتها المعدنية ، ووصلوا إلى حدود ليجوريا Liguria ودخلوا جنوة عنوة(٣) .

وللعرب حصون فى منطقة بيد مونت ، منها حصن فرسكنديلوم Fracenedeilum قرب كازل Casal على نهر البو ، ويسمى كذلك حصن

---

(١) أرشيبالد ص ٢١٨ — ٢١٩ ، Scott, II, P. 38

(٢) غزوات العرب ص ١٦٧

(٣) غزوات العرب ص ١٧٠ — ١٧١ ( عن ليتوبراند ) ، المسلمون فى حوض البحر الأبيض المتوسط ص ١٣٠

فراكسينتوم ، ويقال إن مكانه الآن مدينة فلستر ال Fenestralle (١) .

. . .

وجاء دور مدينة لونى Luni على ساحل إيطاليا الغربى ، فى مطلع القرن الحادى عشر ، وذلك على يد مجاهد العامرى ، وكان موقع هذه المدينة هاما كمركز تجارى وصناعى ، لاشتهارها بصناعة الرخام ، ولها علاقات تجارية نشطة مع روما والجزر التسكانية وجزيرة قورسيقة ، وفرغ مجاهد من غزو جزيرة سردانية ١٠١٥ م وتوجه إلى لونى واستولى عليها ، واتخذ منها قاعدة لأعماله الحربية فى إيطاليا ، وكان هجوم مجاهد على لونى آخر هجوم إسلامى على هذه المنطقة ، إذ كان رد الفعل عميقا عند المسيحية (٢)

ولما كانت حراسة بيزا ضعيفة فى ذلك الوقت ؛ نظرا لأن قوات البيازنة كانت قد توجهت نحو الجنوب بدعوة من البابا حنا الثامن عشر لتخليص مدينة ريو من قبضة المسلمين ؛ فى ذلك الوقت ؛ هاجمها مجاهد العامرى واحتل حياً من أحيائها وأحرقه ، ولكنه عجـــز عن احتلال المدينة كلها ، لسبب شجاعة امرأة مواطنة فيما يقال ؛ إذ سمعت أصواتا غريبة فى جنح الليل حين اقتحم مجاهد بسفنه نهر الأرنو Arno ؛ فهبت هذه المرأة ، وتوجهت إلى منزل حاكم المدينة وأفضت إليه بالخبر ؛ فنهض على الفور لدفع العدو المهاجم ؛ وتعرف هذه المرأة باسم كيوسكا جيزموندى Chiusica Gismondi (٣) .

---

(١) غزوات العرب ص ١٧٥ ( عن مؤرخ دير نوفاليز ، وهو معاصر للحوادث لكنه متعصب ومتطرف )

(٢) كابيا ص ١٩٨ ـ ١٩٩ ؛ مؤنس ص ١١٦

(٣) كابليا ص ٢٠٠

# الفصل الثامن

## امتداد الغزو الإسلامي إلى سويسرا وأعالي الراين

**القاعدة فراكسينيتوم — تحكم المسلمين في ممرات الألب — اجتياح منطقتي فاليه وفات ( أدفو ) السويسريتين ( ٩٣٦ ) — شرقي سويسرا — وصول المسلمين الى بحيرة كونستانس ومقاطعة سانت جالس في أعالي الراين ( ٩٣٩ ) — حول اقامة المسلمين في سويسرا .**

استطاع المسلمون ، وهم فى قلعتهم الحصينة فى فراكسيليتوم بجنوبى فرنسا ، أن يشنوا غاراتهم على ما حولها من البلاد والأقاليم ، وذلك منذ حوالى عام ٨٩٠ م ؛ وقد سهل عليهم أن يتحكموا فى ممرات الألب فى مطلع القرن العاشر الميلادى ، بل واتتهم الظروف التى جعلت من سيطرتهم على منطقة الألب سيطرة قانونية أو شرعية ، اعترف بها أولو الأمر الوطنيون المعاصرون فى جنوبى فرنسا وشمالى إيطاليا .

فقد حدث أن صراعا شب بين هيو ( ت ٩٤٨م ) كونت بروفانس ، على أثر انتقال تاج مملكة لومبارديا إليه عام ٩٢٦م (١) ، وبين ألبريك Albericus ابن زوجته ماروتزيا Marozia حول النفوذ فى إيطاليا ؛ على أن ألبريك استطاع أن يكون السيد الآمر الناهى فى روما والبابوية ، وأن يتحكم فى المدينة الخالدة نحو اثنتين وعشرين سنة ، وأكثر من هذا تمكن من أن يعين ابنه بابا ، وهو الذى عرف باسم البابا حنا الثانى عشر (٩٥٥هـ — ٩٦٤ م) (٢)

وخلال صراع هيو فى إيطاليا ، اشتدت غزوات المسلمين فى منطقة بروفانس ، وتمكنوا أنذاك من بسط نفوذهم على منطقة جبال الألب

---

(١) Brooke, p. 34

(٢) Ibid, P. 35

وعمرانها . فاستصرخ رعاياه ، مما اضطره إلى الاستعانة بالإمبراطورية البيزنطية ، التي نهضت لنجدته بأسطول مسلح بالنار الإغريقية . وبينما هو يضيق الخناق على حصن فراكسينيتوم الإسلامى قام منافس خطير له يطمع فى عرش مملكة لومبارديا ، هو برنجر الأول Berenger I كونت إيفريا Evrea ، ولجأ هذا المنافس إلى الإمبراطور أوتو Otto عام ٩٤٢ م . ولكى يقطع هيو الطريق على منافسه ، اعترف بسيادة العرب على منطقة الألب وبامتلاكهم لمعابرها ، وعقد معهم معاهـــدة طاب إليهم فيها ، كما يقول المؤرخ الألمـانى ليتوبراند Liutperand (ت ٩٧٠م) ، أن يقطعوا الطريق على عودة منافسه ؛ وقد وفى العرب بهذا الشرط ، فلم يستطع برنجر العودة إلى إيطاليا إلا عن طريق التيرول (١)

وبذلك أضحى المسلمون سادة فى منطقة جبال الألب ، وفى الحدود بين فرنسا وإيطاليا وسويسرا ، وصاروا يتقاضون رسوما على القوافل المـارة عبر ممرات الألب سواء أكانت هذه القوافل للتجارة أم للحج إلى روما .

ومن هذه المعابر ، هاجم المسلمون سويسرا ، ولاسيما عن طريق ممر سان برنارد St. Bernard وهو الذى يفصل بين مقاطعة فاليه Valais السويسرية وبين شمالى إيطاليا . واجتاحوا منطقة فاليه ، وكذلك منطقة جريزون Grisons والملحوظ أن رجال الدين الذين جفلوا أمام المسلمين فى بروفانس ، كانوا قد لجأوا إلى فاليه ، ومعهم ما استطاعوا حمله من كنوز

---

(١) غزوات العرب ص ١٧٤ (رينو) ، ٢٥٥ (كلر) ، Brooke, p. 85

وأموال وتحف، فكان ذلك من بين أسباب عبور المسلمين إلى سويسرا. وقد وصل المسلمون إلى شواطىء بحيرة جنيف Geneva حوالى عام ٩٣٦ م ؛ ومن المحتمل أن هذا التاريخ لا يحدد أول دخول العرب إلى سويسرا ، والغالب أنهم دخلوها منذ مطلع القرن العاشر الميلادى (١).

واشتدت وطأة الغزوات الإسلامية فى المنطقة الفسيحة بين بحيرة كونستانس Constance فى الشمال الشرقى من سويسرا ، وبين مدينة كور Chur فى شرق سويسرا . وفى حوليات المؤرخ فلدور Flodoord عن حوادث عام ٩٣٦ : أن العرب شنوا الغـــارة على سويسرا الألمانية ، وأنهم قتلوا الكثير من الحجاج العائدين من روما (٢) . والواقع أن قسما كبيراً من سويسرا الألمانية ، وهو الواقع بين مدينة كور وبين أعالى الراين كان ميداناً لنشاط العرب ، وقد عثر فى سجلات دير كور ، على كتابة تدل على أن الإمبراطور أوتو الكبير ( ٩٣٦ — ٩٧٣ ) عوض فالتو Walto ، مقدم دير كور ، عن الخسائر التى لحقت بأملاك الدير ، نتيجة اجتياح المسلمين . وكان هرمان Hermann أمير سويسرة الألمانية ، قد التمس من الإمبراطور هذا العوض لدير المذكور وذلك فى المجلس الذى عقده أوتو فى مدينة كدلنبرج Cuedlinburg فى أبريل من عام ٩٤٠ م (٣)

وحوالى عام ٩٣٩ م ، أوغل العرب فى منطقة فات Waadt — وهى

---

(١) غزوات العرب ص ٢٤١ ( كلر )

(٢) غزوات العرب ص ٢٥١ ( كلر )

(٣) غزوات العرب ص ٢٢٥ ، ٢٥٥ ـ ٢٥٦ ( كلر )

نفسها فو Vaud — وقاعدتها لوزان Lussnne الواقعة على الشاطئ الشرقى لبحيرة جنيف . كذلك وصل المسلمون إلى منطقة أفانشى Avanchez ومنطقة نيو شاتل Neuchatel وإلى بحيرة تونستانس وسانت جال St. Gallen وأبنزيل Appenzell وسارجان sargan وتوجنبرج Togenburg وكل هذه المناطق فى أعالى نهر الراين (١) .

وتبعاً لرواية الراهب المؤرخ إكهات ، مقدم دير سانت جال (٢) ، وكان قد هرب أمام حركات المسلمين ، أن المسلمين رغبوا فى الاستقرار فى الأقاليم التى وصلوا إليها ، وأنهم تزوجوا من الوطنيات ، وأخذوا يزرعون الأرض ويستغلونها ، وأن الحكام الوطنين فى تلك البلاد لم يسعهم إلا التسليم بمقامهم ، واكتفوا بجباية إتاوة منهم ، وربما استعانوا بالمسلمين فى منافساتهم الداخلية . ولكن ليس من المحقق ، إن كان هذا قد تم فى إقليم فاليه السويسرى أم فى إقليم سافوى . كذلك ليس من المحقق كم بقى المسلمون فى سويسرا ؛ فإن السجلات والكتابات التى عثر عليها فى الأديرة السويسرية ، مثل دير كور ودير سانت جال ودير فافرس Pfafers لم توضح شيئاً فى هذا الصدد ، هذا مع بقاء كثير من الآثار المادية الدالة على استقرار المسلمين فى أنحاء سويسرا المختلفة (٣) .

---

(١) المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١٣٠ — ١٣١ ، غزوات العرب ص ٢٥٥ — ٢٥٦ ( كلر )

(٢) تقع مدينة سانت جالن جنوب بحيرة كونستانس ، وقد كتب هذا المقدم تاريخاً لدير سانت جال .

(٣) عن تاريخ سويسرا المؤلفة موتر ( Muller ) ج ١ ص ٢٥١ ( غزوات العرب ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ كلر )

من ذلك كتابة وجدت على حجر فى كنيسة القديس بطرس فى مونتجو St. Bierre - Montjoux فى فاليه ، وفى منطقة لوزان مكان يعرف باسم برج المسلمين La Tour des Sarrazins ، وهناك حائط ينسب إلى المسلمين فى مدينة ففلسبرج Viflisburg ، وفى منطقة ديفلي Develiel يوجد كهف منسوب للمسلمين ، وعلى أحد صخوره رقم ٢٣ بالحروف العربية، كذلك فى المقاطعات المجاورة لبازل بقايا أسماء عربية تحف بالطرق الرومانية القديمة ، وهى التى يسلكها العرب فى غزواتهم ، وتوجد فى مدينة بازل ، أسرة تعرف باسم أسرة السرازين ، ولها فروع فى جنيف وهكذا (١) .

ومن المحتمل أن المسلمين غادروا سويسرا ، خلال النصف الأخير من القرن العاشر الميلادى ، إذ كانت أعدادهم قليلة ، وغزواتهم لم تخرج عن كونها مغامرات فردية أو جماعية محدودة ، فضلا عن أن رجال الدين قد انبروا فى شتى البقاع لإثارة الحماس ضد المسلمين ومطاردتهم ، من ذلك مثلا ، ماذكره الراهب المؤرخ إكهارت ، عن جهود سلفه فالتو فى رئاسة دير سانت جال، إن ذلك السلف قد استنفر الناس حوالى عام ٩٥٤م ضد المسلمين ، فهاجموهم وتمكنوا من قتل كثير منهم . كما نجح فالتو وقومه فى أسر عدد كبير من المسلمين ، على حين نجح فريق من المسلمين فى الإفلات من أيديهم . وتقول الرواية ، إن الفريق الذى وقع أسيراً ،

---

(١) عن المؤرخ الأب سيراسى Serasset فى كتابه عن أبرشية بازل ، ج ٢ ص ١٤٩ (غزوات العرب ص ٢٥٢ ، ٢٦٧ . كلر )

سيق إلى دير سانت جال مكبلا بالأغلال ، حيث رفض أن يتناول الطعام وآثر الموت جوعاً (١) .

والراجح أنه بعد سقوط قلعة فراكسينيتوم الإسلامية حوالى عام ٩٧٥ م ، لم تعد للمسلمين صولة فى سويسرا أو فى مناطق الألب ، إذ كانت هذه القلعة تعتبر عاصمة للمتلكات الإسلامية الأخيرة فى فرنسا وشمالى إيطاليا وسويسرا ، وهى مشمولة برعاية خليفة قرطبة (٢) .

---

(١) رينو غزوات العرب ص ١٧٧ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ( كلر وا كهارت )

(٢) رينو غزوات العرب ص ١٦٥

# الفصل التاسع

## نهاية النفوذ الإسلامي في أوروبا الجنوبية

التغير الذى طرأ على أوربا منذ مطالع القرن العاشر الميلادى : انتعاش القوى الروحية — الحركات الديرية الجديدة وأهدافها — الجبهة الاسلامية : الانقسام السياسي والديني - العصبية وكثرة الفتن ووضوحها فى أسبانيا — ابن الخطيب وابن عذارى يجملان العوامل الكبرى لكثرة الفتن زمن بنى أمية بالاندلس — دخول المغامرين المسيحيين فى المعسكر الاسلامي وخطره — السميد القمبيتور — كيف زالت سيادة المسلمين عن البلاد التى وطئوها فى مياه البحر الأبيض وفى بلاد أوربا الجنوبية .

وعلى هذا النحو امتد النفوذ الإسلامى فى أوربا الجنوبية والوسطى ؛ وكانت منطقة أعالى الراين ، عند مشارف سويسرا الشمالية أقصى ما وصل إليه المسلمون فى قلب أوربا ، غير أن حركة المد هذه أعقبتها حركة جزر ولم تكن حركة المد والجزر متكافئة فى جميع الجبهات ، فلم تتم فى وقت واحد ، بل على فترات مختلفة وأزمنة متفاوتة ؛ وربما عاد النفوذ الإسلامى إلى حيث كان ، ولكن إلى أمد غير طويل .

فلقد تغيرت أحوال العالم الأوربى منذ مطالع القرن العاشر الميلادى وخلال القرن الحادى عشر وما يليه ؛ ومنشأ هذا التغير هو ذلك الحماس الدينى الذى ميز القرن الحادى عشر فى التاريخ الأوربى العام ، بصفة خاصة ويرجع الفضل فى هذا الحماس ، إلى تلك الحركات الديرية الجديدة المتطورة ، وهدفها تقوية الجانب الروحى من الحياة الإنسانية ، وعلاج الضعف الذى ألم بالمجتمع الإقطاعى الأوربى أنذاك ، تدعيم المعسكر المسيحى ضد أعدائه .

وأهم هذه الحركات : الحركة الكلونية ، نسبة إلى دير قام فى مدينة كلونى Cluny فى برجنديا بفرنسا ؛ بل لقد عمد بعض الكتاب إلى اعتبار عام ٩١١م ، وهو العام الذى أسس فيه هذا الدير(١) ، بداية التحول العام فى

---

(١) أسس دير كلونى ، وليام التقى دوق أكويتانيا عام ٩١٠ أو ٩١١ م .

أوربا . وتبع الحركة الكلونية حركات ديرية لتحقيق نفس الأهداف ، مثل الحركة الكارزثوية Carthusian نسبة إلى مدينة كارثوزيا Cartusia قرب جرنوبل بفرنسا ، وهى المعروفة حاليا باسم شارترو Chartraux (١) ، والحركة السسترشيانية Cistersian ، نسبة إلى مدينة ستيو Citeux فى فرنسا كذلك (٢) ، والحركة البريمونسترانية Premonstatersian ، نسبة إلى مدينة بريمونترية Prémontrie بأبرشية لاؤن Laon بفرنسا (٣) .

وليس من باب الصدفة ، أن خواتيم القرن الحادى عشر الميلادى ، هى بداية الحروب الصليبية المعروفة فى التاريخ ، وإن كانت فكرة الحروب الدينية ليست جديدة على ذلك القرن ، فالعامل الدينى كان بارزا فى جميع الحروب التى خاضها المسلمون ضد العالم المسيحى فى تلك القرون كما أنه ليس من باب الصدفة، أن يوصف القرن الثانى عشر ، فى التاريخ الأوربى بأنه قرن اليقظة والبعث العلمى فى العصور الوسطى ، وكان الأثر الإسلامى أهم عوامله وعناصره .

وبالإضافة إلى عامل الحماس الدينى الذى شمل أوربا ، هناك الملكيات الجديدة النامية ، وهى التى قامت على أنقاض الإمبراطورية الكارولنجية وأخذت تقوى على حساب النظم الإقطاعية القائمة . فى ألمانيا قامت أسرة

---

(١) مؤسس الحركة الكارتوزية هو برونو الكولونى Bruxno of Colegne عام ١٠٨٤ م ، وكان كاهنا لمدينة ريمس Rheims

(٢) مؤسس الحركة السسترشيانية روبرت رئيس دير موليم Molasme عام ١٠٩٨م

(٣) القديس نوربير Norbert هو الذى أسس الحركة البريمونسترانية عام ١١٢٠م

راجع : ( Chew & Latham, . pp. 113 - 120 Brooke, pp. 372 - 378 )

السكسون Saxons ، ومن بعدها أسرة الساليين Salians خلال الفترة من ٩٣٦ إلى ١٢٢٥ م ؛ ثم أعقبتها أسرتا ألولف Welfs وهوهنشتوفن Hohenstaufen ( ١١٢٥ — ١٢١٨ م )(١) وفي فرنسا قامت أسرة هيوكابيه منذ عام ٩٨٧ م (٢) ؛ وظهر في جنوب إيطاليا النورمان Normans بجيوشهم الجرارة الفتية ، وحماستهم لعقيدتهم المسيحية الجديدة ، وهؤلاء هم المجوس ، كما سماهم المسلمون منذ القرن التاسع الميلادى (٣) ، لكنهم تحولوا من النهب والغزو ، إلى الاستقرار وتأسيس ملك ، ونجحوا في ذلك خلال القرن الحادى عشر (٤) .

كذلك جاءت شدة وطأة الضغط المسيحي على مسلمى أسبانيا ، من من العوامل الكبرى التى ساهمت فى إزالة النفوذ العربى الإسلامى من أوربا ، وكانت هذه الشدة دليلا على التغير العام الذى شمل أوربا كما كانت من آثاره . واقترنت حركة الاسترداد المسيحى بالعامل الدينى (٥) ؛ كما ساهمت عوامل أخرى جغرافية وقومية .

* * *

(١) راجع Bryce, op. cit., PP. 19 sqq., 119 - 131 chew & Latham, PP., 146 sqq., 156 sqq.C. Med. H. Vol. III, PP. 179 — 203

(٢) راجع ما سبق

(٣) انظر : ابن عذارى : البيان حـ ٢ ص ١٣٠ — ١٣٢ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٠

(٤) انظر : Brooke, op. cit., PP., 222 — 4; Scott, op. cit., Vol. II, PP. 52 - 66; C. Med. H., Vol. V, pp. 160 - 77; Historians History, vol IX, PP. 68 — 71

(٥) انظر : ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس — ترجمة سالم — ص ١٧٠ — ١٧٢

أما الجبهة الإسلامية المقابلة للعالم الأوربى المعاصر وقتذاك ، فقد وضحت فيها عناصر الضعف والتفكك ؛ وأول هــذه العناصر : وجود ثلاث خلافات إسلامية ، تقتسم العالم الإسلامى ، ويعادى بعضها بعضاً ، وهى : الخلافة العباسية فى بغداد وخلافة بنى أمية بالأندلس وخـلافة الفاطميين فى المغرب ثم فى مصر وماحولها . وفضلا عن هذا الانقسام السياسى . هناك انقسام دينى بين السنة والشيعة ، مما أدى إلى تمزيق وحدة العالم الإسلامى ، وإضعاف جبهته أمام العالم الأوربى المسيحى الذى أخذ يوحد هدفه ويجمع صفوفه ، ولم يكتف بإزالة النفوذ الإسلامى من أوربا ، بل أوغل فى قلب العالم الإسلامى ، بالشرق الأوسط ، فعانت الدويلات الصليبية التى أقامها بالشام منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى .

هذا من ناحية الشكل العام لإطار العالم الإسلامى ؛ أما الناحية الداخلية فلم تكن خيرا من صفة هذا الشكل ، وهذه هى العنصر الثانى من عناصر الضعف والتفكك والفرقة ، وأبرز جوانبها انتقال العصبية مع الفاتحين المسلمين إلى أوربا ، وأخطرها ماوقع بين عرب الحجاز وعرب الشام ، ثم الصراع الرهيب بين العرب والبربر . وضح هذا فى أسبانيا الإسلامية ، وهى المركز الرسمى الذى غذ الفتوح فى فرنسا وما والاها . حتى أن الإمبراطور أوتو لم يجد أمامه غير عبد الرحمن الناصر الأموى فى قرطبة ( ت ٣٥٠ ه / ٩٦١ م ) ليبعث إليه برسالة فى عام ٩٥٦ م ، طالبا منه أن يكف المسلمون عن غاراتهم بجنوبى فرنسا (١) ، ولاشك أن ضعف

---

(١) غزوات العرب ص ٢٣ ، ١٧٧ — ١٨٢

السلطة المركزية الرسمية يضعف من قبضة ممثليها على فتوحهم بالأطراف والجهات النائية .

وقد لاحظ شارل مارتل حقيقة العصبية وخطرها ، فى مطلع الفتوح الإسلامية فى فرنسا ، فكان مما قاله لقومه ، حين أبدوا له دهشتهم من سرعة الفتوح الإسلامية وانتصارات المسلمين المتلاحقة ، وتقاعد المعسكر المسيحى :

« الرأى عندى ألا تعترضوهم فى خرجتهم هذه ، ولكن أمهلوهم حتى تمتلىء أيديهم من الغنائم ، ويتخذوا المساكن ، ويتنافسوا فى الرياسة ، ويستعين بعضهم ببعض ، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر . » ؛ وعلق المقرى : « فكان والله كذلك ، بالفتنة التى طرأت بين الشاميين والبلديين والبربر والعرب ، والمضرية واليمنية ، وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الأعداء » (١) .

والواقع أن العرب استحوذوا لأنفسهم على الجانب الأكبر من الأراضى والغنائم ، مما أثار حفيظة البربر ، واعتقد العرب أنهم أصحاب البلاد وأصحاب السيادة الفعلية بالأندلس ، ونظراً لأنهم كانوا أقلية بالنسبة للبربر ، فقد اتخذوا موقف الحيطة والحذر دائماً من البربر (٢) ، واشتدت الكراهية بين الفريقين ، وبلغت حداً صارت عنده مثار التهكم والسخرية ، مع شىء من

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ١٢٨ — ١٢٩ ؛ انظر كذلك Levi — Provincal, op. Cit., PP. 18 — 29 ; راجع ماسبق

(٢) العبادى ص ١١١ — ١١٢ ، ١٢٠ — ١٢١ ؛ ابن حوقل ص ٩٧ — ١٠٣

الطرافة ؛ فما يستملح من النوادر المقولة فى نسب البربر ، قول خلف بن فرج ، من شعراء الأندلس ، يهجوا البربر :

رأيت آدم فى نومى فقلت له ∴ أبا البرية إن الناس قد حكموا

أن البرابر نسل منك ، قال إذن ∴ حواء طالق إن كان الذى زعموا (١)

ولذلك طفحت أسبانيا الإسلامية بالفتن والثورات التى كثرت منذ مطالع القرن العاشر الميلادى ؛ وأجمل ابن الخطيب العوامل المختلفة التى أدت إلى كثرة الثورات والفتن زمن بنى أمية فى الأندلس : فى ثلاثة :

« أولها : منعة البلاد وحصانة المعاقل وبأس أهلها بمقارعتهم عدو الدين ، فهم شوكة وحد بخلاف سواهم .

« الثانى : علو الهمم وشموخ الأنوف وقلة الاحتمال لثقل الطاعة ، إذ كان من يحصل بالأندلس من العرب و البرابرة أشرافا يأنف بعضهم من الاذعان لبعض .

« الثالث . الاستناد ، عند الضيقة والاضطرار : إلى الجبل الأشم والمعقل الأعظم من ملك النصارى الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض (٢) » .

واشتهر عهد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن ( ٢٧٥ — ٣٠٠ هـ / ٨٨٨

---

(١) الاستقصاص ٥٦

(٢) أعمال الأعلام ص ٣٥ — ٣٦

٩١٢ م ) ، بكثرة الثورات ، وقد عد ابن عذارى منها نحو ٢٦ ثورة ، وقعت كلها فى عهد هذا الأمير ، وحاول كل ثائر أن يستقل بمدينة أو منطقة ، مثل ثورة ديسم بن إسحاق ، الذى تغلب على مدينتى لورقة ومرسية ، وثورة عبد الرحمن بن مروان المعروف بالجليقى ، فقد استولى على بطليوس وماردة ، يقول صاحب البيان « وجاور أهل الشرك ووالاهم على أهل القبلة(١) » ؛ وهناك ثورات البربر الذين أنشأوا لهم مستعمرات بربرية فى المناطق الجبلية(٢) .

وقد صور ابن الخطيب عن الأمير عبد الله ، بقوله : « وتصيرت إليه الخلافة ، وقد تحيف النكث أطرافها ، واقتسمها الثوار ، وكلب عليها الأشرار ، ولم يبق منها إلا الاسم ، فوق ظهر منبر قرطبة ، والقليل من غيرها ، وساءت الظنون ، ولم يدر عبد الله إلى أين يصرف وجهه : إلى ابن حفصون كبير الثوار المجاور لقرطبة ، وقد استولى على معظم البلاد مثل إلبيرة وريه وما إلى ذلك ، أم لابن حجاج ، وقد استقل بإشبيلية وقرمونة وما إلى ذلك ، أم لعبد الرحمن بن مروان الجليقى ببطليوس أم لعبد الملك بن أبى الجواد بباجة الغرب ، أم لابن السليم بشذونة ، أم لابن إلياس بالقلعة المنسوبة إليه إلخ ... »(٣)

وكذلك صور ابن عذارى هذا العهد بقوله : « وأفضت إليه الخلافة ،

(١) ابن عذارى جـ ٢ ص ٢٠٥

(٢) Lévi — Provincal, PP. 10 — 11 . 24 — 26 مفاخر البربر ص ٧٨

(٣) أعمال الأعلام ص ٢٧ — ٢٨

وقد تحيفها النكث ومزقها الشقاق وحل عراها النفاق والفتنة مستولية ، والدجنة متكاثفة ، والقلوب مختلفة ، وعصا الجماعة متصدعة ، والباطل قد أعلن ، والشر قد أشهر ، وقد تمالأ على أهل الإيمان حزب الشيطان ، وتألب على أهل الإسلام أهل الشرك ومن ضاهاهم من أهل الفتنة الذين جردوا سيوفهم على أهل الإسلام ، فصار أهل الإسلام بين قتيل ومحروب ومحصور يعيش مجهودا ويموت هزلا ... وانقطع الجهاد إلى دار الحرب ، وصارت بلاد الإسلام بالأندلس هي الثغر المخوف ، فكان قتال المنافقين وأشباههم أوكد بالسنة وألزم بالضرورة »(١) .

أدت هذه الأحداث إلى انتهاز الافرنج والأسبان الفرصة للتنكيل بالمسلمين والعمل على طردهم (٢) .

وبلغ الانقسام والضعف والتمزق أقصاه ، زمن ملوك الطوائف ، وهو الزمن الذي استمر نحو قرنين وسبع سنوات ؛ فكون الزعماء العرب إحدى عشرة دويلة منها : بنو عباد بأشبيلية وبنو جهور بقرطبة وبنو هود في سرقسطة ، وبنو صمادح من تجيب في المرية إلخ ... ، وكون البربر عشر دويلات منها : بنو حمود في مالقة والجزيرة وبنو زيري في غرناطة وبنو الأفطس في بطليوس وبنو ذي النون في طليطلة وهكذا . . . كذلك كان للصقالبة خمس دويلات في هذا العهد الفوضوي ، منها مجاهد العامري

---

(١) البيان جـ ٢ ص ١٨٣ ـ ١٨٤

(٢) ابن عذاري جـ ٣ ص ٢٢١ ، ٢٧٧ ـ ٤٤٥ ؛ نفح الطيب جـ ١ ص ١٨٥ — ١٨٩ ؛ غزوات العرب ص ٨٣

وابنه فى دانيه ، وزهير فى المرية ومرسية ، ومبارك ومظفر فى بلنسية ، ونبيل فى طرطوشة وهكذا(١)

ويضاف إلى هذه العوامل الكبرى فى ضعف الجانب الإسلامى فى أوربا ، استعانة المسلمين بالمغامرين من أعداء الدين فى حروبهم وجهادهم ، وهؤلاء مهما أدوا من خدمات للمعسكر الإسلامى ، فإن ولاءهم غير باق ، بل هو مرتبط بقدر ما يتقاضونه من أجور ، وكيف يطمئن قوم لولاء من خرج على قومه ودينه وتنكر لوطنه وقبيلته ! إن الخروج على الخلفاء الجدد أسهل عليهم من الخروج على مواطنيهم ، ومن فرط فى قومه أولى بالتفريط فى أعداء قومه . ولعل أبرز مثال يصور هذه الحالة هو استخدام المسلمين فى الأندلس لمغامر أسبانى مسيحى لا مبدأ له ولا عهد ، هو رودريجو دياز Rodrigo Diaz الذى اشتهر باسم « السيد القمبيطور » Cid Campeador ، ومعنى هذا اللقب « قائد الغارات فى السهول » ، ويعبر العرب فى العصور الوسطى عن صاحب هذا اللقب باسم « صاحب الفحص » ، وهو يقابل اللفظ اللاتينى Compidictus ، ولعله أطلق منذ ذلك الحين على الخبير بالغزوات فى أرض الأعداء ؛ وورد فى المراجع العربية باسم الكنبطور أو الكبيطور(٢) .

---

(١) لعهد الطوائف فى أسبانيا الإسلامية انظر : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٤٨ — ٢٦٠ ؛ أعمال الأعلام ص ١٤٤ وما يليها ؛ ( الإحاطة فى أخبار غرناطة ج ١ و ج ٢ ) ؛ نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٤ ، العبادى ص ١٥٥ — ١٧١ ؛ ( محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس ) كايا ص ٥١ — ٥٥ ، زامباور ج ٢ ص ٨٦ — ٩٥ ، ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس ( ترجمة سالم وزميله ) ص ١١٩ وما بعدها ، وكذلك لنفس المؤلف : L'Espagne Musulmane. PP. 24 — 26 ; Histoire de l'Espagne Musulmane. T. III ; Dozy. T. II. PP. 175 — 189.

(٢) ابن عذارى ج ٢ ص ٢١٥ ؛ ابن الخطيب ص ٢٠٣ — ٢٠٥

اختلطت سيرة هذا المغامر بالأساطير ، ولد حوالى عام ١٠٤٥ م فى مدينة برغش Burgos فى جليقية (غاليا) ، وتوفى والده حوالى عام ١٠٥٨ م ودخل رودريجو فى خدمة ملك قشتالة سانشو بن فرديناند الأول ، وصار حامل لوائه وقائد جيوشه ، وواتته الفرصة لإظهار مواهبه ، إذ صارع فارسا من أبناء نافارة فصرعه ، ولعل ذلك هو الذى خوله لقب القمبيطور ؛ وسفر فى عام ١٠٧٩ م بين ملك قشتالة وبين المعتمد بن عباد ملك أشبيلية الذى كان يدفع جزية لألفونسو السادس ملك قشتالة ، وعاد بالجزية من صاحب أشبيلية عام ١٠٨٠ م ؛ وخلال هذه السفارة ، اشترك فى معركة فى جانب مملكة أشبيلية ، لأنها مشمولة بحماية مملكة قشتالة ، وذلك ضد جيش غرناطة ، وكان من بين جنود غرناطة قشتاليون ، فانتصر رودريجو وأسر كثيرا من نبلاء النصارى الذين يحاربون فى صفوف مملكة غرناطة . غير أن ألفونسو السادس نفى رودريجو فى عام ١٠٨١ م ، لأنه كان يقوم بأعمال ومغامرات دون إذنه .

وكان نفيه نقطة تحول فى حياة البطل القشتالى ، وهذا هو الدور الذى امتلأ بالأساطير ، فخرج على رأس ثلثمائة فارس من المغامرين أمثاله ، وتوجه يعرض خدماته على من يضمه إليه ، أيا كانت جنسيته أو عقيدته ، فذهب إلى برشلونة وعرض خدماته على أميرها وهو كونت رامون بيرنجر ، فلم يرحب به ، ثم توجه إلى أحمد المقتدر من بنى هود ملوك سرقسطة المسلمين ، فرحب به ، ومن ثم بدأ رودريجو يحارب فى صفوفه ضد الأراغونيين والقطلانيين ، وانتصر لحساب الملك المسلم ، فأغدق عليه ملك سرقسطة الهدايا والعطايا ، وكان ملك سرقسطة فى ذلك الوقت المؤتمن ابن أحمد المقتدر ، وربما كان المؤتمن هذا هو الذى أطلق عليه لقب

« سيدي » ، وهو صورة أندلسية للفظ « سيد » ، وانتقل هذا اللفظ إلى الأسبانية فصار Mio Cid ، واشتهر به رودريجو حتى صار علما عليه .

حاول ألفونسو السادس ملك قشتالة أن يسترده ، وظل السيد يحارب فى صفوف المسلمين ، وظل فى سرقسطة حوالى عام ١٠٨٦ م . وكان ألفونسو السادس ملك قشتالة قد اشتهر بحروبه ضد المسلمين ، ولا سيما بعد انتزاع طليطلة عام ١٠٨٥ م من أمرائها المسلمين ، وهم ذو النون البربر من ملوك الطوائف ؛ وفى تلك الأثناء كان السيد يعمل مع ملك سرقسطة أحمد المستعين بن المؤتمن ، وحاول ضم بلنسية إلى صاحب سرقسطة الذى يخدم هذه ونجح فى انتزاعها ، وكانت بلنسية فى ذلك الوقت مشمولة بحماية ملك قشتالة ، وملكها القادر ؛ غير أن السيد أخذ يفكر فى الأمر ، وحدثته نفسه بترك الجانب الإسلامى والعودة إلى ملك قشتالة ، الذى لقى هزيمة منكرة على يد المرابطين فى ١٣ أكتوبر ١٠٨٦ م فى وقعة الزلاقة المشهورة وتم الصلح بين ألفونسو السادس والسيد فى ربيع ١٠٨٧ م ، ولكن السيد كان يضع مصالحه الشخصية فوق كل اعتبار ، فأخذ يعمل لحسابه . فكثرت مغامراته فى المنطقة الشرقية ، من الأندلس من أريولة إلى شاطبة ، وأجبر كونت برشلونة المسيحى على دفع جزية له ، وطلب أمير طرطوشة المسلم حماية السيد ودفع له جزية ، وسرعان ما دفع له الجزية جميع صغار أمراء المسلمين بشرق الأندلس ، ليضمنوا عدم اعتدائه ، وهم أمراء البونت ومربيط وشبرب وشارقة والمنارة ، فزادت ثروته واتسع نفوذه .

اشتد النفور بين السيد وبين ألفونسو السادس ، وصمم ملك قشتالة على انتزاع بلنسية من السيد ، واستعان بجنود من جنوة وبيزه ، وحاصر بلنسية براً وبحراً ، وكان السيد فى ذلك الوقت يحارب بجانب ملك سرقسطة

ضد أرغونة ، فأخذ يحرب فى بلاد قشتالة ، وحينئذ اضطر ألفونسو السادس لرفع الحصار عن بلنسية .

وكان السيد هو الذى يحكم بلنسية ، ونائبه فيها ابن الفرج غير أن أهل بلنسية أعدموا نائب السيد لأنه أرهقهم بالمال ، فاستقل بالمدينة كبار المواطنين بها وعلى رأسهم جعفر بن جحاف قاضى المدينة ، وطلب هذا القاضى من المرابطين حمايته من السيد ، ولكن السيد زحف على بلنسية فى عام ١٠٩٣ م واستولى عليها . وقاست المدينة الكثير من الجوع والوباء ؛ وعامل السيد أهل المدينة بعد ذلك بالتسامح وخطب فيهم خطبة وضح سياسته وموقفه ، غير أنه لم يغفر لهم قتلهم القادر المشمول برعاية ألفونسو السادس ، وعاقب القاضى بالإعدام حرقا ، كما أعدم كثيراً من أهل المدينة .

أضحى السيد سيد بلنسية المطلق ، ووسع رقعة ممتلكاته ، وحول مسجدها الجامع إلى كندرائية ؛ ومات فى يوليه ١٠٩٩ م وهو العام الذى سقط فيه القدس وحارب المرابطون زوجته التى استنجدت بابن عمها ألفونسو السادس ، ولكن المرابطين استولوا على بلنسية عام ١١٠٢ م[١]

ومن مقالة ابن الخطيب وابن عذارى ، ومن مغامرات السيد ، تتضح حقيقة كبرى ، كانت من أكبر عوامل الهدم والتمزيق للقوة الإسلامية فى أسبانيا ، فضلا عن التمزق والفرقة ، تلك هى خطورة استعانة أمراء

---

(١) انظر : ليفى بروفنسال ( المترجم ) ص ١٧٤ - ٢٣١ ، البيان ج ٢ ص ٢١٥ ، ابن الخطيب ص ٢٠٣ - ٢١٥ ; Brooks. PP. 231 — 2 ; Lace — Poole P. 177 ; كابديا ص ٦٨ ، الروض المعطار ص ٤٧ - ٥٥ ، مؤنس : ; C. Med. H., IV, P. 400 السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين ( المجلة التاريخية مايو ١٩٥ م ٣ عدد ١ ص ٣٧ — ٨٧ )

المسلمين بمن يجاورهم من الأعداء ، ضد بعضهم البعض ، وخضوع الكثير منهم لحماية ملك قشتالة ودفع جزية له ؛ ومن هؤلاء بنوزيرى فى غرناطة وبنو عباد فى أشبلية وطليطلة وبنوهود فى سرقسطة .

وإذا أضفنا إلى ذلك كله : إلحاح المسلمين فى الحصول على الغنائم ، وحرصهم عليها ، مما كان من أسباب هزيمتهم فى فجر عهدهم بأوربا — فى بلاط الشهداء — ، تكون عوامل الوهن ، قد استشرت فيهم ، وتكون شمس الإمبراطورية التى أقاموها فى أوربا ، قد آذنت بالغروب .

* * *

ونتناول فى إيجاز ، كيف زالت السيادة الإسلامية عن البلاد التى فتحوها فى أوروبا الجنوبية وفى مياه البحر الأبيض .

فأما جزيرتا قبرص ورودس ، فإن السيادة عليها تأرجحت بين المسلمين والبيزنطيين والصليبيين ، حتى قضى العثمانيون على الإمبراطورية البيزنطية عام ١٤٥٣ م ، ومن بعدها قضوا على إمبراطورية المماليك (١٥١٧ م) ، وكانت قبرص تابعة للمماليك منذ القرن الخامس عشر ، وانتهت السيادة عليها إلى العثمانيين ، كما آلت رودس إلى العثمانيين عام ١٥٢٢ م . يوم انتزعوها من فرسان الاسبتارية الصليبيين (١) .

وأما جزر بحر إيجة الصغيرة ، فإن السيادة الإسلامية لم تثبت فيها طويلا ، ولا سيما بعد سقوط جزيرة كريت ، فى أيدى البيزنطيين . ظلت الإمبراطورية البيزنطية تكافح فى سبيل استعادة كريت . حتى نجحت فى عام ٣٤٩ هـ/٩٦١ م ، بقيادة نقفور فوقاس ، زمن الإمبراطور رومانوس الثانى . وأسر البيزنطيون آخر أمراء كريت المسلمين . وهو

---

(١) راجع ما سبق وانظر : زيادة ص ٢٠٠ — ٢٠٣ ، الجراكسة ص ١٠٥ — ١١٤
Wiet. PP. 261 — 2 ; Lane — Poole. P. 339

عبد العزيز بن حبيب بن عمر ؛ ويقال إنه التحق بخدمة الإمبراطور البيزنطى ومن ثم عادت سيطرة بيزنطة على حوض البحر الأبيض الشرق (١) .
وهجر المسلمون الجزيرة بعد أن احتفظوا بسيادتهم عليها نحو قرن ونصف وعندما استولت الحملة الصليبية الرابعة على بيزنطة عام ١٢٠٤م ، صارت جزيرة كريت من نصيب بونيفاس مونتفرات ، ولكنه باع الجزيرة للبنادقة فى نفس العام ، فظلت كريت تابعة لجمهورية البندقية حتى فتحها العثمانيون عام ١٦٦٩ م (٢) .

وجاءت نهاية السيادة الإسلامية على جزيرة صقلية ، على يد النورمان أواخر القرن الحادى عشر الميلادى (٣) . والملاحظ أن طبيعة الفتح النورمانى لصقلية ، تختلف عن انتصارات المسيحيين على المسلمين فى أسبانيا ، فإن حركة الأسبان المسيحيين ، كانت عملية استرداد مسيحى لبلادهم ، أما الفتح النورمانى لصقلية ، فهو أمر جديد ، للاستقرار وتكوين دولة جديدة . والنورمان أنفسهم غزاة جدد ، طرأوا على أوربا منذ القرن التاسع الميلادى (٤) .

---

(١) Vassiliev. P. 314

(٢) نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٩ ، أسد رستم جـ ٢ ص ٣٤ — ٣٥ ، المعجب ص ١٠ ، أومان ص ١٧٩ — ١٨٠ ، مؤنس ص ١٣٨ ، شارل ديل : البندقية ص ٢١ ، إبراهيم العدوى : اقريطش بين المسلمين والبيزنطيين فى القرن التاسع ( المجلة التاريخية مايو ١٩٥٠ — ص ٥٣ — ٦٨ ، C. Med. H. Vol. ; Scott, II, p. 76 ; IV, PP. 141 — 42.

(٣) انظر قبله ص ١١٣ وما يليها ، Historians History Vol. IX. pp. 68 — 70

(٤) Brooke. P 222

تزعمت أسرة هو تفيل De Hauteville النورمانية حركات الفتح النورماني ، في جنوبي إيطاليا وصقلية . وشجعها الصراع والتنافس والانقسام بين مسلمي صقلية (١) ، وقد تظاهر النورمان في أول أمرهم بأنهم يعملون على استعادة البلاد البابوية ، لكنهم كانوا في حقيقة أمرهم يؤسسون لأنفسهم . فاشترك روبرت جويسكارد R. Guiscard النورماني مع أخيه الأصغر روجر Roger في عمليات الفتح ، ووعد روبرت أخاه ، بنصيب في فتوحه المقبلة في قلورية (كالابريا) وصقلية ؛ ونجح الأخوان عام ١٠١٠ م حتى وصلا إلى مدينة ريو Reggio (٢).

والواقع أن النورمان كانوا يتطلعون إلى جزيرة صقلية لخصبها وثروتها وقد أغراهم ضعف المسلمين في صقلية ، إذ إن حكام الجزيرة المسلمين ، كانوا في صراع وتنافس ، بعد أن تخلصوا من نفوذ الدولة الزيرية في شمال أفريقية (٣) ، ومن هؤلاء المتنافسين شخص يعرف باسم « محمد بن الثمنة ولقبه القادر بالله ، يقال إنه استعان بالنورمان في صراعه الداخلي كما استعان بالزيريين من قبل مما سهل للنورمان مهمة فتح صقلية ، وليس هذا الأمر غريبا ، فهناك ملوك الطوائف في أسبانيا الإسلامية ، كثيراً ما استعانوا بملوك قشتالة المسيحيين في صراعهم ومنافساتهم .

ورغم أن محاولة عبور مضيق مسينا ، مخاطرة كبرى لوجود

---

(١) Scott. II PP. 52 — 54

(٢) Historians History. , C. Med. H., Vol V, PP. 169 — 71 Vol. IX, PP. 68 — 71

(٣) انظر زمباور ح ٢ ص ١٠٩

الأسطول الإسلامى ؛ إلا أن النورمان نجحوا فى عام ١٠٦١ م فى الاستيلاء على مسينا ثم تروينا Troina ، وهذا ماثبت أقدامهم للعمليات الحربية المقبلة ، ونظرا لانشغال النورمان فى مشروعات مماثلة فى إيطاليا الجنوبية ، فإن تقدم النورمان فى صقلية كان بطيئاً ؛ واستمر لبضع سنوات . اضطر روبرت جويسكارد لمغادرة صقلية إلى إيطاليا فترة من الزمن ، وترك أخاه الأصغر روجر ، دون قوة كافية أمام قوات المسلمين الضخمة (١) .

وساعد على بطء التقدم النورمانى ، وفاة ابن الثمنة سنة ١٠٦٢ م ، لأن النورمان فقـــدوا حليفا مفيداً لهم ، كما وقع نزاع بين جويسكارد وأخيه روجر حول اقتسام الغنائم ، وفى تلك الأثناء ، تحسن موقف المسلمين فى صقلية ، ولا سيما أن مساعـدات كانت تأتيهم من شمـالى أفريقية ، غير أن جويسكارد النورمانى استطاع فى عام ١٠٧١ م أن يكمل فتوحه فى إيطاليا الجنوبية بالاستيلاء على بارى ومن ثم تفرغ لصقلية ، واستولى على بالرمو فى العام التالى كما سقطت سراقوسة عام ١٠٨٥ م (٢) ، وبذلك تحكم النورمان فى جميع الأجـــزاء الشمالية لجزيرة صقلية ، ومع ذلك ظل المسلمون يمتلكون الجزء الأكبر من الجزيرة ، وقد تحسن مركز النورمان بسبب تضامنهم ووحـدتهم فضلا عن تعـاون الأخوين ، وعـدم وجود بارونات إقطاعيين أقوياء يخشى بأسهم كما هو الشأن فى إيطاليـا الجنوبية ، وكان الأخوان شـديدى الحرص فى المنح الإقطاعية ، وهو النظام المألوف

---

(١) C. Med. H.. Vol. V, P. 177 ; Brooke, pp. 222 - 227. Waern, oP. Cit., pp. 29 - 30

(٢) Encycl. Britt. Art. Sisily

وقتئذ فكانت منحها صغيرة تجنباً لأخطار تجىء من جانب الأتباع فى المستقبل (١) .

تلا ذلك فترة هدوء لانشغال جويسكارد فى إيطاليا الجنوبية ضد ريتشارد حاكم كابوا Capua ، وضد اللومبارد الخاضعين للبابوية . وبسبب حملات جويسكارد كذلك على اليونان ، بجانب تمرد باروناته عليه فى الأرض الإيطالية ، وتوفى جويسكارد عام ١٠٨٥ م ، فخلفه ابنه روجر بورسا R. Borsa بلقب دوق Duke ( ١٠٨٥ — ١١١١م)، وحكم فى جنوبى إيطاليا ، غير أن روجر هذا كان ضعيفا ، فثار ضده البارونات ، وكانت أقوى شخصية يخشى بأسها هى شخصية أخيه بوهيمند Bohemund ، أعظم شخصية نورمانية معاصرة ، ظل بوهيمند شوكة فى جنب أخيه ، حتى أتيحت لمطامعه فرصة الحروب الصليبية ، فاشترك فى الحملة الصليبية الأولى ، طمعا فى تأسيس إمارة له فى الشرق ، ونجح فى تأسيس إمارة أنطاكية الصليبية ١٠٩٨ م (٢) .

وكان يحكم الأملاك النورمانية فى صقلية وقتئذ كونت روجر Count Roger وهو الأخ الأصغر لروبرت جويسكارد ، لم يستطع الدوق روجر بورسا أن يتحكم فى عمه كونت روجر ، وأن يفرض سيادته عليه وإنما نظر إليه باعتباره حاميا له ، ولذلك منحه حق الامتلاك التام للقلاع القائمة فى قلورية ، وهذه كان يقتسمها مع أخيه جويسكارد من قبل ؛ ويمتاز

---

(١) Scott, II, pp. 55 - 56 ; Brooke, pp. 223 - 224

(٢) Brooke, P. 221

كونت روجر بالعبقرية الحربية ، وبعد النظر ، ولذلك أكثر من بناء الحصون والمعاقل حتى يتمكن من الصمود أمام المسلمين بصقلية ، وأخذ يعمل على تقوية معسكره ، بتشجيع الهجرة من جنوبي إيطاليا ومن الولايات اللومباردية ، بل إنه أحسن سياسة الرعايا المسلمين الذين كانوا يخضعون له فى الأملاك النورمانية بشمالى صقلية ، وجند من المسلمين بعد أن منحهم حرية العقيدة ، وعنى بالقوة البحرية ومع ذلك فلم تصل إلى الدرجة التى كانت عليها البحرية الإسلامية وقتئذ .

ويحتمل أن كونت روجر كان قد نجح من قبل فى عقد معاهدة مع الدولة الزيرية ليحول دون مساعدتها لمسلمى صقلية ، وبهذه الخطوة الدبلوماسية ، استطاع أن يوسع الأملاك النورمانية فى صقلية ، فى حياة أخيه الأكبر ، فهو الذى استولى فى عام ١٠٧٧ م على ترابانى Trapani وتاورمينا Taormina فى عام ١٠٧٩ م كما نجح فى عام ١٠٨٤ م ، وذلك قبيل وفاة أخيه بسنة ، فى القضاء على مقاومة المسلمين ، مع استمراره على حسن معاملة المسلمين الخاضعين له . والهدف الأكبر لكونت روجر هو الاستيلاء على سرقوسة التى نجح فى الاستيلاء عليها عام ١٠٨٥م ، ورغم بقاء بعض القلاع المفرقة فى أيدى المسلمين ، إلا أن نهايتهم قربت ؛ واستولى فى عام ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م على مدينة نوتو Noto وأكمل فتح صقلية نهائيا (١) .

° ° °

(١) Historians' History of the World: Brooke PP 224-275 Vol. IX, PP.72-76

أضحى كونت روجر، وتسكتبه بعض المصادر العربية الجط كندرجار، سيد صقلية وأقوى حاكم فى تلك المنطقة، وشغل المكانة التى شغلها أخوه جويسكارد من قبل، وتطلعت إليه البابوية لمحالفته و حماية إيطاليا، نظراً لضعف روجر بورسا، وكان نفوذ كنت روجر أقوى وأوسع من مجرد ملك إقطاعى (١). ولعل أبرز جوانب سياسته، تسامحه مع المسلمين الذين صاروا رعية له فى صقلية، حتى دفعوا له الضرائب، وعاونوه فى حكومته، ولاسيما أن روجر أبقى على النظم الإسلامية القائمة والتقسيم الإدارى الإسلامى، وعلى الألقاب الإسلامية لبعض المناصب العليا (٢)؛ وبلغ من تعاون المسلمين معه، أنه فى الحصار الذى ضربه النورمان على مدينة أمالفى فى إيطاليا الجنوبية عام ١٠٩٦ م، كان من بين قواته، عشرون ألف مسلم؛ واتخذ روجر وخلفاؤه من بعده وزراء من المسلمين، وأبقوا على اللغة العربية كلغة تخاطب بين جميع الطبقات، وأصدروا بها القرارات والقوانين، كذلك ضرب النورمان نقودهم على النظام الإسلامى، فكانت تطبع عليها آيات من القرآن الكريم فضلا عن كتابة التاريخ الهجرى، كذلك سادت العادات الشرقية الإسلامية فى المواكب الملكية، فتحمل المظلة على رأس الملك النورمانى. وقام الملك النورمانى كذلك بتقليد خلع الخلع، وتنظيم قصره على النسق الإسلامى كما أن التعليم ظل دائما على يد الأساتذة العرب وبجانبهم أساتذة يهود، ولم

---

(١) Brooke, p. 225

(٢) Waern, pp. 31 — 32, Encycl. Brit.

يحاول روجر أن يجبر مسلما على اعتناق المسيحية (١)

ومن ناحية أخرى ، شجع روجر النورمانى المهاجرين المسيحيين على النقلة إلى بلاده ، واعترف بنفوذ البابا الروحى ، وأحل الطقوس اللاتينية فى الجزيرة محل الطقوس الإغريقية (٢) .

مات روجر عام ١١٠١ م ، وترك فى صقلية حكومة قوية مدعمة ، تولاها من بعده ابنه سيمون Simon لمدة عشر سنوات ثم الابن الثانى المشهور وهو روجر الثانى الذى بدأ حكمه عام ١١١٢ م ويشبه الكتاب ، كونت روجر ، وهو روجر الأول ، بوليام الفاتح النورمانى فى السياسة والدهاء والعبقرية الحربية والإدارية ، وهو أول سلسلة من الحكام الأقوياء العباقرة من النورمان ؛ بل إن نجاح خلفائه من بعده ، يعزى إلى الأسس القوية التى وصفها هو (٣) .

* * *

ولما سقطت صقلية فى أيدى النورمان ، لم يبق إلا مالطة وقوصرة ، تحميان شواطىء أفريقية ، فأرسل كونت روجر فى عام ١٠٩١ م أسطولا إلى مالطة ، أجبر حكامها المسلمين على الاعتراف بسيادته ؛ وظل المسلمون

---

(١) Scott, II, PP. 64 - 75 ؛ انظر ما فصله ابن حوقل والإدريسى عن صقلية النورمانية .

(٢) Waern, PP. 32 — 34 ؛ Brooke, P. 225

(٣) Brooko, PP. 225 — 227 ; C. Med. H., IV, PP. 124 — 166; Hist, History, of. Cit., PP. 76—77; Waern, PP. 35 — 40, Encycl. Birit.

فى مالطة ، رغم تبعيتها السياسة إلى النورمان (١) . كذلك استولى النورمان على جزيرة قوصرة (٢) .

ولم يكتف النورمان بإزالة سلطان المسلمين عن هذه الجزائر ، بل حاولوا الاعتداء على مدينة المهدية بشمالى أفريقية عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م ؛ ورغم هزيمة النورمان أمام جيوش بنى زيرى فى وقعة الديماس ، إلا أنهم جددوا المحاولة عام ٥٤٢ هـ / ١١٤٨ م واستولوا عليها فترة من الزمن بسبب الاضطرابات التى شملت شمالى أفريقية عقب نزول العرب الهلالية (٣) .

* * *

وفيما يتعلق بجزيرة سردانية ، كان زوال النفوذ الإسلامى الأخير فيها ، على يد حلف من بيزا وجنوة ، اللتين أغراهما الانتصار على مجاهد العامرى عام ١٠١٦م ، فتابعا السير نحو سردانية . والواقع أن مجاهدا لقى الكثير من المصاعب فى سردانية ، لسبب تمرد رجال جيشه نتيجة لأطماعه اللانهائية ، وربما كان منشأ هذا التمرد من جانب فريق من المسيحيين الذين يعملون فى جيشه وتحت رايته (٤) .

---

(١) لقد لقى المسلمون العنت فى مالطة ، حين انتقل إليها فرسان الاسبتارية بعد طردهم من رودس على يد العثمانيين عام ١٥٢٣ م ؛ وأخذ الاسبتارية فى مالطة يقطعون الطريق البحرى على الأساطيل الإسلامية التركية أو الأفريقية ، ونقلوا آلاف الأسرى المسلمين إلى جزيرة مالطة ؛ ومن أجل ذلك حاول العثمانيون الاستيلاء على مالطة عام ١٥٦٥ م ، لكن محاولاتهم لم تنجح . ولم يتمكن من القضاء على الاسبتارية فى مالطة سوى نابليون بونابرت وهو فى طريقه إلى مصر ١٧٩٨ م ، واتخذ من القضاء عليهم مادة للدعاية له قبل المصريين

(٢) حسنى ص ٦١ — ٦٨

(٣) حسنى ص ٦٧ — ٦٨ ؛ مؤنس ص ١١٣ — ١١٤

(٤) كابليا ص ٢٠٤

وفى ذلك الوقت أخذ مجاهد يفكر فى خطة للانسحاب من الجزيرة قبل وصول القوات المشتركة ، نظراً لضعف مركزه فى الجزيرة ، وعلى الرغم من نصيحة قائده البحرى أبى خروب بعدم الانسحاب ، أمر مجاهد بالرحيل لكنه لم يلبث أن تعرض لعاصفة بحرية هوجاء ، وحينئذ حاول الالتجاء إلى مكان أمين على سواحل سردانية ، فنصحه أبو خروب بعدم ملاءمة المكان ، غير أن العاصفة قد اشتدت ووصلت سفن الأعداء إلى مياه سردانية عام ١٠١٦ م . ووقعت الكارثة ، ولم ينج من سفنه إلا عدد قليل ، يقول شاهد عيان ، وهو أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجانى (ت ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م) :

« كنت مع أبى الجيش مجاهد أيام غزاته سردانية ، فدخل بالمراكب فى مرسى ، نهاه عنه أبو خروب رئيس البحريين ، فلم يقبل منه ، فلما حصل فى ذلك المرسى ، هبت ريح ، فجعلت تقذف مراكب المسلمين مركبا مركبا إلى الريف ، والروم وقوف لا شغل لهم إلا الأسر والقتل للمسلمين ، فكلما سقط مركب بين أيديهم ، جعل مجاهد يبكى بأعلى صوته ، لا يقدرهو ولا غيره على أكثر من ذلك ، لارتجاج البحر وزيادة الريح ، فيقبل علينا أبو خروب وينشد :

بكا دوبل لا أرقأ الله عينه ألا إنما يبكى من الذل دوبل (١)

---

(١) الدوبل حيوان قيل هو الخنزير أو ذكره أو ولده أو ولد الحمار أو الذئب الهرم ( القاموس المحيط )

ثم يقول (أى أبو خروب) : قد كنت حذرته من الدخول ها هنا فلم يقبل(١) .

ويصف ابن الخطيب هذه الكارثة البحرية بقوله :

« وتداعى عليه ملوك الأرض الكبيرة ... فكانت عليه وقعة شنيعة ، وظهور ما سمع بمثله ، فقتل من أصحابه وجنوده عالم لا يحصى ، وملكوا أسطوله واستنقذوه ، واستولوا على حريمه ، وفيهن نساؤه وبناته وعلى ولده وجود أمه النصرانية ، افتدى بعضهن سريعاً ، وتأخر البعض كولده على فإنه وقع فى سهم صاحب الألمانيين ... فاحتبس به للمباهاة ، وأعيا على والده فداؤه ، وقد بذل فيه عشرة آلاف ، إلى أن خلص بعد زمن طويل ، ولم يخلص من أسطوله أجمع إلا خمسة مراكب وأربعة قوارب ، وكان شحنة الأسطول المغلول ، من سبى سردانية ، يوم ظهور العدو عليه ، ثمانية آلاف فارس(٢) » .

لم يفكر مجاهد فى غزو سردانية بعد هذه الكارثة ، ومات عام ١٠٤٥ م .

حدث بعد ذلك صراع بين بيزا وجنوة حول السيادة على جزيرة سردانية ، فأتيحت الفرصة للمسلمين للعودة إلى الجزيرة ، فغزوها من جديد عام ١٠٥٠ م ، ولكن احتلالهم كان مؤقتا ، فقد نهض البابا ليو التاسع

---

(١) كليليا ص ٢٠٥ (عن بغية الملتمس)

(٢) أعمال الأعلام ص ٢١٩ — ٢٢٠

وكون حلفا مسيحيا لطرد العرب من الجزيرة ، بمساعدة أهلها ، وبذلك تم إجلاء المسلمين نهائيا عن سردانية فى ذلك العام(١) .

وفى نفس العام المذكور ( ١٠٥٠ م ) تعاونت جنوة وبيزا على إزالة السيادة الإسلامية عن جزيرة قورسيقة كذلك(٢) .

أما جزر البليار ، وكان يحكمها مجاهد ، فقد ظلت خاضعة لحكمه حتى وفاته ، وكان يحكمها بالنيابة عنه ، عبد الله بن أخى مجاهد ، فظل عبد الله يتولى حكومتها خمسة عشر عاما من ٤١٣ هـ حتى توفى سنة ٤٢٨ هـ/١٠٣٦م ، خلف عبد الله فى حكومة البليار الأغلب مولى مجاهد ، وخلال حكم الأغلب مات مجاهد . وخلفه ابنه على الملقب بإقبال الدولة ، ويقيم فى دانية ، وكان الأغلب كثير الغزو فى البحر ، فاستأذن عليا فى ذلك فأذن له ، وقبل أن يغادر الأغلب البليار عين صهره سليمان بن مشكيان نائبا عنه ، فظل يحكمها خمس سنين حتى وفاته ، فولى على مكانه مبشراً الملقب بناصر الدولة ؛ وخلال حكم مبشر على ميورقة ، سقطت دانية فى يد المقتدر بن هود صاحب سرقسطة من ملوك الطوائف(٣) ؛ وتعرض مبشر لأطماع كونت برشلونة الفرنجى الطاغية وهو رامون برنجاريو الثالث Ramas Berengario III إذ تحالف هذا الكونت مع جمهورية بيزا وهاجم البليار واستولى على جزيرة يابسة ثم حاصر ميورقة لمدة عشرة شهور ، فاستنجد مبشر بعلى

---

(١) كابلياس ص ٢٠٦ — ٢٠٨

(٢) مؤنس ص ١١٣

(٣) راجع ماسبق

ابن يوسف بن تاشفين صاحب المغرب ، فلم يستطع ابن تاشفين إنجاده إلا بعد سقوط ميورقة فى يد صاحب برشلونة عام ٥٠٨ هـ/ ١١١٤ م ، وتوفى مبشر فى ذلك العام(١) .

نجح المرابطون فى استخلاص الجزيرة من يد صاحب برشلونة وحكموها سنة ٥٠٩ هـ/١١١٥ م ، وظلوا بها حتى سنة ٦١١ هـ/١٢١٤ م ، ثم حكمها من بعدهم الموحدون من ٦١١ هـ إلى ٦٢٧ هـ ( ١٢١٤ - ١٢٢٩ م ) ؛ وفى عام ٦٣٧ هـ/ ١٢٣٩ م ، فتح جاكومو الأول Giacomo di Avagona صاحب أرغونة ، هذه الجزر وطرد منها المسلمين نهائيا(٢) .

* * *

أما كيف انتهى النفوذ الإسلامى فى فرنسا ، فالمعروف أن قلعة فراكسينيتوم ، فى جبل القلال ، كما ورد فى قلة من المراجع العربية والفارسية(٣) ؛ كانت القاعدة الإسلامية الباقية فى بروفانس إلى قرب نهاية القرن العاشر الميلادى ، وبواسطة هذه القاعدة تحكم المسلمون فى بروفانس وفى منطقة الألب وشمالى إيطاليا وبعض بلاد سويسرا ، ولذلك أضحت فراكسينيتوم عاصمة الممتلكات الإسلامية فى تلك البقاع .

حاول المسيحيون اقتلاع المسلمين من هذه المناطق ، وأخذ كفاحهم صورة الحروب الصليبية والوطنية ، وتعرض المسلمون لهذه الحرب فى جميع البلاد التى يقيمون فيها بأوربا ، وذلك فى أوقات متقاربة وسريعة .

---

(١) صبح الأعشى حـ ٥ ص ٢٥٦ — ٢٥٧ ؛ كابابا ص ١٩٠ — ١٩١

(٢) صبح الأعشى حـ ٥ ص ٢٥٧ ؛ كابابا ص ١٩١ — ١٩٢

(٣) رينو Brooke P 886

وتزعم حركة الكفاح المسيحى كوراد الثالث Corrad III ، أمير برجنديا وسويسرا وفرانش كونتي Franche-Conté ، والأخيرة هى التى كانت تعرف باسم « دوقية برجنديا » ، وهى غير مملكة برجنديا(١) ، ويقال إن كوراد أوقع بين المجريين الذين اجتاحوا الألزاس عام ٩٥٢ م وبين المسلمين فى بروفانس ، ثم أهوى على الفريقين خلال المعركة ، وأفنى معظمهم ، ويحتمل أن هذه المعركة وقعت فى سافوى(٢) .

وحوالى عام ٩٦٠ م ، تمكن المسيحيون من طرد العرب من جبل سان برنارد ، نسبة إلى القديس برنارد دمنثون Dementhone الذى اشترك فى القتال(٣) . وبعد ذلك بنحو اثنتى عشرة سنة ، وقع حادث أسر القديس مايول Mayeul مقدم دير كلونى(٤) ، وقافلته خلال عودته من روما ، على أيدى المسلمين المتحكمين فى المنطقة الواقعة بين مدينتى جاب Gap وإمبرون Embrun فى أعالى نهر ديرانس ، وكان للمسلمين ثلاثة أبراج محصنة فى إمبرون . جاء هذا الحادث مثيراً للمسيحيين ، وكان له دوى عظيم فى جميع الأقطار المسيحية ، نظرا لمكانة هذا القديس(٥) ، فقام النبيل بيبون Bebon من قرية نويى Noyers قرب مدينة سسترون Sisterons - على نهر ديرانس - واستنفر قومه ضد المسلمين النازلين بنواحى

---

(١) رينو : Brooke. P. 385

(٢) غزوات العرب ص ١٧٥ - ١٧٦ ( مجموعة دون بوكى Don Boquet )

(٣) غزوات العرب ص ١٨٢

(٤) Brooke. P. 116

(٥) رينو : غزوات العرب ص ١٨٦ — ١٨٧

سسترون ، وبنى حصنا بالقرب من حصن المسلمين القائم على جبل بترا إمبيا Petra-Empia ، وأخذوا يرقبون حركات المسلمين للانقضاض عليهم ، وفشلت محاولات المسلمين للحيلولة دون بناء الحصن ، وأخيراً استطاع بيبون ومن معه اقتحام حصن المسلمين نتيجة خيانة حارس الباب ، وإن فعل ذلك انتقاما لعرضه ، ونجح المسيحيون فى إبادة من بالحصن ، ومن أجل هذا العمل ، سجلت الكنيسة الغربية بيبون ضمن عداد القديسين (١) .

وفى نفس الوقت ، ثار أهالى مدينة جاب ، عاصمة الألب العليا ، وكان المسلمون يحتلونها منذ مدة طويلة ، وانقضوا على المسلمين بزعامة وليام كونت بروفانس ، وكانت هذه المدينـــة تتبع بروفانس(٢) . وفى منطقة الألب السفلى ، طرد العرب من مدينة ريى Biez ، وتقع شمالى نهر فردون Verdon أحد فروع ديرانس المتفرع من الرون ، ويحتفل أهل هذه المدينة فى كل سنة بعيد خلاصهم من المسلمين ، وهو اليوم الذى يصادف عيد العنصرة(٣) .

أما قلعـــة فراكسينيتوم نفسها ، فجاءت نهايتها بعد محاولات ملحة متكررة من جانب مسيحى بروفانس ، وكان وليام كونت بروفانس صاحب

---

(١) رينو : غزوات العرب ص ١٨٦ — ١٨٨ ( مجموعة الراهب اليسوعى بالاند Baland وهى مجموعة تاريخ القديس أو مجموعة البالنديين :
( Recueil des Ballandistes )

(٢) رينو : غزوات العرب ص ١٨٦ — ١٨٧

(٣) رينو : غزوات العرب ص ١٩٢

الفتح المعلى فى أغلب هذه المحاولات . استنفر وليام أهالى كونتيته لقتال المسلمين ، فهبوا معه ، وتوجه نحو فراكسينيتوم ، وأخذوا يسدون المسالك على المسلمين ، فنزل إليهم العرب ودارت معركة عنيفة فى نواحى بلدة دراجنجان Dragengman ، فى مكان يقال له تورتور Tourtour حيث يوجد إلى الآن برج ، أقيم منذ ذلك اليوم تخليداً للانتصار فى تلك المعركة التى انتهت بهزيمة المسلمين . اضطر المسلمون إلى الالتجاء إلى الغابات المجاورة ، وقتل أكثرهم وأسر الكثير ، وأخيرا سقط حصن فراكسينيتوم عام ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م (١) .

وهكذا سقطت القلعة الإسلامية العتيدة ، وهى التى بقيت بيد المسلمين نحو ٨٦ سنة ( ٨٨٩ — ٩٧٥ ) ، وامتنعت على أعدائها ، بفضل موقعها ومناعتها الطبيعية ، إذ كانت تقيم فيها أسمته القلة من المراجع العربية والفارسية : « جبل القلال » .

قال الأصطخرى : « وأما جبل القلال ، فإنه كان جبلا فيه مياه خرارة فوقع إليه قوم من المسلمين فعمروه ، وصاروا فى وجوه الإفرنجة ، لا يقدر عليهم لامتناع مواضعهم ، ومقداره فى الطول يومان » (٢) .

وقال ابن حوقل : « والجبل القلال الذى بنواحى إفرنجة ، بأيدى المسلمين ، عمارة وحرث ومياه وأرض ، تقوت من لجأ إليهم ، فلما وقع عليه المسلمون ، عمروه وصاروا فى وجوه الإفرنجة ، والوصول إليهم ممتنع

(١) رينو : غزوات العرب ص ١٨٨ — ١٩١

(٢) المسالك والممالك ص ٥١ ، وفى طبعة دى غويه De Goeje ص ٧٠ — ٧١

لأنهم يسكنون وجه الجبل ، فلا طريق إليهم ، ولا متسلق عليهم ، إلا من جهة ، هم منها آمنون ، ومقداره فى الطول نحو يومين (١) » .

كذلك أشار ياقوت الرومى الحموى إلى هذا الجبل بصدد حديثه عن أنكبردة (٢) — وهى دوقية بنفتم اللومباردية الواقعة جنوبى الأملاك البابوية فى إيطاليا — وأيضاً فى مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع.

وعرف كتاب الفرس هذا الجبل وسموه «كولا قلال» أى جبل القلال ووردت بصدده ، عبارة فارسية لا تخرج فى معناها عن المعنى الذى أورده الأصطخرى وابن حوقل فى عبارتيهما . ويقول رينو ، إن الأوصاف التى وردت فى هذه النصوص تنطبق على فراكسينيتوم ، وذلك فى رسالة بعث بها لناشر كتاب مراصد الاطلاع (٣) .

وبزوال هذه القلعة ، زالت جميع أملاك المسلمين فى جميع المناطق التى كانوا يقيمون بها ، كما زال نفوذهم فى الأرض الكبيرة ، وفى منطقة الألب وفى سويسرا فيما وراء الألب .

استولى المسيحيون على الأراضى التى كانت بيد المسلمين ، ووزع كونت وليام الكنوز والمغانم التى كانت تملأ الحصن ، بين قومه .

---

(١) كتاب صورة الأرض ص ٢٠٥

(٢) معجم البلدان حـ ١ ص ٢٧٣

(٣) رينو : غزوات العرب ص ١٦٣ — ١٦٥

والملاحظ أن رجال الدين ظفروا بأغلب الأراضي والكنوز ، وذلك لأن رجال الدين ساهموا مساهمة فعلية في هذه الحروب ، مثل أساقفة مدينتي فريجوس وتيفة . ومن الذين أصابوا الثروة نتيجة هذه الحروب ، رجل من جنوة ، كافح مع البروفلساليين ، فمنح ضياعاً واسعة عندشواطىء خليج سان تروبي الذى تطل عليه قلعة فراكسينيتوم ، كما ظفر مسيحي آخر على مدينة كاستلان Castellane الواقعة فى أعالى نهر فردون أحد فروع الرون ، وشرقي مدينة ريي Riez . وربما كانت أصول ثروة آل كاستلان المعاصرين للمستشرق رينو ( فى القرن التاسع عشر ) راجعة إلى هذه الحروب(١) . أما أراضي مدينة طولون ، فقد وقع نزاع حول اقتسامها ، لسبب ضياع معالم التمليك القديمة ، لطول مقام العرب بها ، ولكن كونت وليام أرضى الجميـــع ، وهذا ماخلد اسمه فى التاريخ الفرنسي حتى لقب بأبي الوطن (٢) .

على أن سقوط حصن فراكسينيتوم عام ٩٧٥ م ، لم يعن قطيع دابر العرب دفعة واحدة ، وإن عنى زوال أملاكهم ونفوذهم وأهميتهم فى تلك الجهات ، وإنما بقيت شراذم عربية متناثرة فى جبال الألب وهذه استسلمت أو استرقت أو أجبرت على اعتناق المسيحية وذابت فى أوطنيين . ويقال إن هذه الشراذم بقيت إلى ما بعد عام ٩٨٠ م ، بل إلى ما بعد عام ١٠٠٠م ، ولكنها على أية حال لم تكن ذات خطر أو أهمية (٣) .

---

(١) رينو : غزوات العرب ص ١٩١ — ١٩٢

(٢) رينو : غزوات العرب ص ١٩٢

(٣) رينو : غزوات العرب ص ١٨٨ ، ١٩٢ ( ودلبن Delbene )

ولا شك أن هناك كثيراً من البقايا المادية التي تركها العرب في إقليم بروفانس ، منها : بقايا آبار وكهوف وأحجار منحوتة وبقايا مبان ، ومن العجيب أنه لم يعثر على كتابة عربية في بقايا حصن فراكسينيتوم ، وربما كانت موجودة وذهبت مع ما تصدع منه ، كذلك وجدت بقايا الحصون العربية المتناثرة فوق قنن الجبال ، وبقايا الأبراج والمراقب والأربطة ، على طول ساحل بروفانس ، بين فرنسا وإيطاليا ، وكانت تشعل عليها أو منها النيران ليلا للتخاطب أو طلب الإمدادات أو للإنذار بحرب ، ومن هذه الأبراج ما يرجع إلى أوائل القرن الثامن الميلادي .

ثم إن العرب في بروفانس ، هم الذين استثمروا شجر البلوط Fraxini ولا تزال توجد غابة تنسب إليهم ، كما أنهم استخرجوا القطران ( القار ) من أشجار الصنوبر والأرز وقلفطوا به المراكب ، حتى إن أهل بروفانس يعبرون باسمه العربي دون تحريف ( Duitran ) ، على خلاف بقية أهل فرنسا الذين يسمونه Gsoudran [١] . وإن بدا في هذا اللفظ الأخير كذلك الأصل العربي .

* * *

وفي البر الطويل ، وهو إيطاليا ، تضافرت قوات الإمبراطورية البيزنطية ، والجمهوريات الإيطالية ، مثل البندقية وبيزا وجنوة ، وكذلك الإمبراطورية الغربية والبابوية ، تضافرت هذه القوات جميعها على طرد المسلمين من إيطاليا .

---

(١) رينو : غزوات العرب ص ٢٣٧ — ٢٣٩ ( ودنيس Denys ، وللأخير كتاب عن مقاطعة الفار Le Var في بروفانس ، حيث توجد فراكسينيتوم )

ولذلك تم إجلاء المسلمين عن بنفنتم عام ٨٤٧م بعد أن مكثوا بها نحو خمس سنوات . وعن برنديزى عام ٨٧٠ م . بعد نحو ثلاثين سنة من مقام المسلمين بها . وعن بارى فى العام التالى . بعد ما يقرب من ثلاثين سنة من حكمهم فيها . وعن ريو عام ٩٠٥ بعد أربع سنوات من نزولهم بها . وعن جارليانو عام ٩١٥م بعد أن امتد سلف من المسلمين بها نحو أربعين سنة (١)

وقد تدخل الإمبراطور أتو الثانى (٩٧٣ — ٩٨٣) ، نظراً لانشغال بيزنطة بالفتن عقب وفاة الإمبراطور البيزنطى حنا الشميشق J. A. T. Zimisces عام ٩٧٦ م ، وكانت الإمبراطورية الغربيـــة تنافس بيزنطة فى إيطاليا ، ودخل أتو إيطاليا عام ٩٨٢ م وانتزع طارانت من المسلمين ، لكن المسلمين داهموه وأبادوا جيشه فى نفس العام ، وكاد الإمبراطور أتو يقع فى أسر المسلمين أو البيزنطيين الذين لم يرضوا عن تدخله فى إيطاليا ، واعتبروه بربرياً (٢) .

وفى شمالى إيطاليا ، كان احتلال المسلمين مؤقتاً ، بل كان أقرب إلى الغزو السريع منه إلى الفتح والاستقرار ، مثل نوفا أوستيا Nova Ostia وروما وكيفيتا فكيا Civita Vecchia وأوزيرو بجزيرة خرسو على ساحل

---

(١) راجع ماسبق وانظر : البلاذرى ص ٢٧٧ ؛ ابن الأثير حـ ٤ ص ٢٣٣ ، حـ ٦ ص ١٨٢ ؛ صبح الأعشى حـ ٥ ص ٤١٠ ؛ لوبون ص ٣٠٢ ؛ أرشيبالد ص ٢١٥ ، ٢١٨ — ٢٢١ ، ٢٢٥ ؛ كرد على حـ ١ ص ٢٧٦ — ٢٧٨ ، المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١١٢ — ١١٣ ، كايتيا ص ١٩٨ — ١٩٩ ؛ Deanesly, PP. 375, 450, 456; Hunt, PP. 13 - 14, Scott, 11, Pp. 25 - 7; C. med. H. Vol 1v pp. 141 - 149 - 50

(٢) Brooke, PP. 53 — 54

دالماشيا ، وأنكونا وكوتشيو وجنوة ولونى ، والأخيرة كان مجاهد الدانى العامرى قد غزاها عام ١٠١٥ واتخذها قاعدة لفتوحه ، ولكن تغير الأحوال العامة فى أوربا ، واليقظة الشاملة فى القرن الحادى عشر ، حالت دون استقراره فيها وبرزت جهود البابا بندتو الثامن (١٠١٣ — ١٠٢٤) فى الدعوة لطرده عنها أو المساهمة الفعلية فى الحرب ، فقد أعد حملة ، تحملت خزانة البابوية نفقاتها ، كما ألف البابا بين بيزا وجنوة المتنافستين ، فاشتركتا معا فى هذا الكفاح ، ونجحت القوات المتحالفة فى طرد مجاهد عن لونى فى معركة بحرية فاصلة عام ١٠١٦ م (١) .

* * *

وتعتبر أسبانيا ، آخر معقل إسلامى فى أوربا . فقد ظل المسلمون بها ما يربو على سبعة قرون . وبالنظر إلى تغير الأحوال فى أوربا منذ مطالع القرن العاشر الميلادى ، وتطور الأحوال فى الجبهة الإسلامية عامة ، وفى أسبانيا الإسلامية بصفة خاصة (٢) ، كانت الحلقة تضيق على المسلمين فى أسبانيا تدريجياً ، لسبب إلحاح الدويلات المسيحية الوطنية التى لم يقض عليها القضاء التام منذ وطئت أقدام المسلمين أسبانيا ، وجاءت فترة يقظة ، زمن حجابة المنصور بن أبى عامر لهشام الثانى الأموى خليفة قرطبة (٣٣٦ — ٣٩٩ هـ / ٩٧٦ — ١٠٠٨ م) لكنها كانت قصيرة الأجل ، ويقال

---

(١) راجع ما سبق وانظر . المسلمون فى حوض البحر الأبيض ص ١١٢ ، ارشيبالد ص ٢٣٤ ، كابلباس ص ١٩٩ — ٢٠٠ ، Scott, II, P. 86; Hunt, P. 14 ; C. Med. H. Vol. III, PP. 149 — 50

(٢) راجع ما سبق

إن ابن أبي عامر غزا ٥٦ غزوة فى مدة ٢٧ سنة لم يهزم فى واحدة منها ؛ لجاءت وفاته عام ١٠٠٢ م متنفساً للمسيحين حتى علقوا على زواله وتمنوا له سوء الخاتمة (١) .

وبزوال خلافة قرطبة عام ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م ، وتحول قرطبة إلى جمهورية إسلامية زمن بنى جهور ( ٤٢١ — ٤٦٢ هـ / ١٠٣٠ — ١٠٦٩ ) تحرش المسيحيون بالمسلمين ، وكانت مملكة أشتوريا Asturias المسيحية بشمالى أسبانيا ، وهى التى عرفت باسم : مملكة ليون ، قد تزعمت حركة الكفاح المسيحى ضد مسلمى أسبانيا منذ القرن التاسع الميلادى ، إذ كانت قشتالة لاتزال كونتية صغيرة كما برزت قوة مملكة نافار Navarre المسيحية ولا سيما زمن ملكها سانكو جارزيا الثالث Sancho Garzia III ( ١٠٠٠ — ١٠٣٥ م ) ، الذى ضم إليه قشتالة عن طريق الوراثة ، وشغلت نافار بمحاربة الفرنجة والمسلمين .

وفى منتصف القرن العاشر الميلادى وجد فى أسبانيا ثلاث ممالك مسيحية هى : قشتالة ونافار وأراجون ، وظهرت زعامة قشتالة فى النضال ضد المسلمين (٢) . واستطاعت قشتالة زمن ألفونسو السادس أن تنتزع مدينة طليطلة من المسلمين عام ٤٨٧ هـ / ١٠٨٥ م ، وكانت تحت حكم بنى

---

(١) وعبارتهم : « إنه مات ولكن قبره فى جهنم : Mortus est Almanzor et Sepultus est in inferno »
( انظر فشر ص ٣٨٨ ; Brooke, P. 114 )

(٢) Brooke PP. 114 — 115

ذى النون من ملوك الطوائف من البربر (١) ، كما استطاع ألفونسو الأول ملك أرغونة أن يستولى على مدينة سرقسطة عام ١١١٨ م ، وكان يحكمها آل منذر بن يحيى التجيبى من ملوك الطوائف من العرب .

ترتب على هذين الانتصارين ، اتساع رقعة البلاد المسيحية على حساب مسلمى الأندلس ، ولو أدرك المسلمون ضعف الجبهة المسيحية ، لاستطاعوا البقاء فى أسبانيا أو على الأقل لطال عمرهم أكثر ، فقد كان المسيحيون الأسبان يختلفون فيما بينهم من ناحية اللغة والتقاليد وأساليب الحكم ، وكان اتحاد جبهتهم أمراً غير ميسور دائماً ، ولعل هـذا هو السبب فى طول الحروب بين الجانبين (٢) .

أخذت حروب المسيحيين ضد مسلمى أسبانيا صفة الحرب الصليبية . وليس من باب الصـدفة التوافق الزمنى بين عصر الحروب الصليبية فى الشرق وفترة ازدياد الضغط المسيحى على مسلمى أسبانيا ، فإن سقوط طليطلة لايبعد كثيراً عن مطلع الحروب الصليبية التاريخية فى الشرق ، وهى التى بدأت بعقد مجمع كلرمونت Clermont بفرنسا عام ١٠٩٥ م ، كما أن سقوط آخر معقل صليبى فى الشرق فى يد المسلمين ، وهو عكا عام ١٢٩٠م زمن السلطان خليل بن قلاوون ، لايبعد كثيرا عن استيلاء مسيحى أسبانيا على منطقة مرسية Murcia الإسلامية عام ١٢٦٦ م (٣) .

---

(١) راجع الروض المعطار ص ١٣٠ ــ ١٣٥

(٢) Green. P. 59

(٣) نفس ص ٣٨٩ ، انظر الروض المعطار ص ١٨١ ــ ١٨٣

وكانت أسبانيا ، بجانب العامل الوطنى ومساعدة العامل الجغرافى ، تلتهب بالحماس الروحى نتيجة اليقظة الدينية العامة فى أوربا ، ولاسيما وقد دخلها مسيحيون متحمسون من فرنسا وألمانيا وإيطاليا ، وخدموا فى جيش ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وكان لهؤلاء الفرسان المسيحيين أثر فى سقوط طليطلة عام ١٠٨٥م . والملاحظ أن الحركة الدينية المعروفة باسم الحركة السيسترشيانية (١) ، قد دخلت فى مملكتى أرجونة وقشتالة ، كما امتدت إلى البرتغال ، وقامت أديرة هذا النظام فى منطقة الحدود بين المسلمين والمسيحيين ، وعملت كطلائع فى الحروب ضد المسلمين (٢) .

وانضم إلى هذه الطوائف طوائف دينية حربية أخرى ، قامت فى أسبانيا المسيحية وهى الكالاترافا Calatrava والقنطرة Alcantara وأيفوفا Ovova ، وكذلك طائفة سنتياجو (شنت يعقوب) ، نسبة إلى يعقوب الحوارى الذى بنيت على رفاته كنيسة فى هذه المدينة التى عرفت باسمه ، وكان المسيحيون يحجون إليها لزيارة القبر والكنيسة (٣) ، كان لهذه الطوائف جميعها أثر كبير فى إشعال الحماس الدينى والحربى فى المعسكر المسيحى (٤) .

. . . . . .

---

(١) راجع ما سبق

(٢) نشر ص ٢١٧ ، ٣٨٩ ـ ٣٩٠

(٣) اسم المدينة بالكامل Santiago de Compostella ، وهى الآن المدينة الرئيسية فى ولاية كوروني Corogne ( انظر الروض المعطار ص ١١٥ ـ ١١٦ ، ١٢١ ) .

(٤) نشر ص ٣٩٠

استنجد المسلمون فى أسبانيا بالمرابطين فى شمالى غربى أفريقية ، وكانت هذه الطائفة تشتعل حماسا دينياً وحربياً ، وتقوم بحركة جهاد واسعة النطاق فى أفريقية (١) ولم يلبث المرابطون أن سيطروا على أسبانيا الإسلامية بزعامة يوسف بن تاشفين اللمتونى (٢) ، وهزموا ألفونس السادس فى وقعة الزلاقة Zallaca فى ١٢ رجب ٤٧٩ هـ / ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦ م (٣) .

وحدث أن كان فريق من الصليبيين المتوجهين إلى الشرق ، على أثر سقوط إمارة الرها الصليبية فى يد عماد الدين زنكى عام ١١٤٤ م ، أن توقف هذا الفريق عند شواطئ البرتغال . وكان يتكون من مغامرين من الإنجليز والألمان والفريزيين Freisians والفلمنكيين Flémings فأغراهم البرتغاليون بأن فى أسبانيا مجالا للحروب الصليبية والجهاد الدينى ، وليس هناك مايدعو إلى الاتجاه إلى الشرق وتجشم مصاعب الرحلة ، جاء هذا الإغراء من جانب ألفونسو هنريك المغامر الفرنسي من آل كابى ، والذى صار أميراً على البرتغال ، بسبب الانتصارات التى ظفر بها على المرابطين فى أسبانيا ، إذ انتصر عليهم فى وقعة أورك Ourique عام ١١٣٩ م وانتزع من المسلمين مدينة شنترين Santarem فى مارس عام ١١٤٧ م .

---

(١) انظر : إمبراطورية مالى التاريخية الإسلامية للمؤلف

(٢) راجع ( ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٣٢ — ٢٣٣ ، الاستقصا جـ ٢ ص ٢٣ — ٢٤ ، روض القرطاس ص ٩٦ — ١١٢ إلخ ، نفح الطيب جـ ٢ ص ٢٧٦ — ٢٧٨ :
Gibb, Mohammedanism, P. 122

(٣) قنس ص ٢٩٠ ، الروض المعطار ص ٨٦ — ٩٠ ، Brooke, P. 221

استجاب هذا الفريق الصليبي وساعده على انتزاع لشبونة من أيدى المسلمين عام ١١٤٧ م بعد أن استماتت المسلمون فى الدفاع عنها ، حتى سلمت الحامية الإسلامية بشرط حقن دمائها ، ولكن الصليبين نكثوا ما وعدوا (١) .

وجاء الموحدون إلى أسبانيا ، بعد المرابطين ، أواخر القرن الثانى عشر وسحقوا جيشاً مسيحياً بقيادة ألفونسو الثامن فى وقعة الأراك Alarcos عام ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م (٢) .

كان لهذه الانتصارات أثرها فى نشاط البابا أينوسنت الثالث ، فأخذ يدعو لتوحيد جبهة المسيحيين ضد مسلمى أسبانيا ، وظهرت آثار هذه الدعوة فى اتحاد أرجونة وقشتالة تحت قيادة ألفونسو الثامن ، وانتصار الأسبان على المسلمين فى وقعة العقاب Las Navas de Tolosa عام ٦٠٩ هـ/ ١٢١٢ م (٣) .

وتوالت انتصارات المسيحيين حتى سقطت بلنسية Valencia وقرطبة وإشبيلية وجيان Jaen وقادس Cadiz خلال القرن الثالث عشر (٤) بحيث لم يبق للمسلمين فى القرن الرابع عشر سوى إمارة غرناطة ، وحكامها من

---

(١) الروض المعطار ص ١١٣ ـ ١١٤ ، باركر ـ ترجمة الباز ـ ص ٩٤ ، Runciman II; PP. 258 — 250; Brooke, P. 108, 835

(٢) الروض المعطار ص ١٢ ـ ١٣ ، فشر ص ٣٩٠

(٣) الروض المعطار ص ١٣٧ ـ ١٣٨

(٤) راجع لهذه البلاد : الروض المعطار ص ١٨ ـ ٢٢ ، ٤٧ ـ ٥٥ ، ٧٠ ـ ٧٢ ، ١٤٥ ـ ١٤٩ ، ١٥٣ ـ ١٥٨ ، ١٨١ ـ ١٨٣ ، الخ . . .

بنى نصر ، وهذه احتفظت باستقلالها حتى نهاية القرن الخامس عشر ، وكلما اشتد الضغط المسيحى عليها ، استنجدت بالدول الإسلامية ، وكانت أقوى دولة إسلامية معاصرة لها هى دولة المماليك ، من ذلك رسالة بعثها أميرها أبو عبد الله بن محمد إلى السلطان المملوكى جتمق فى عام ٨٤٤ هـ / ١٤٤٠ م ، ومضمونها التماس العون ضد « الإفرنج المجاورين » فوعد جتمق بمخاطبة العثمانيين ، ثم أمدهم بما استطاع من مال وسلاح لصعوبة إرسال قوة حربية (١) .

ولما طلبت إيزابلا من غرناطة دفع جزية لها ، أجابها أميرها فى عام ١٤٧٦ م بأن « دار الضرب هذه لم تعد تضرب عملة ذهبية ، ولكنها تضرب الفولاذ » ولما استؤنفت الحرب ضد غرناطة ، طلب أميرها العون من قايتباى سلطان المماليك فى مصر عام ٨٩٢ هـ / ١٤٨٦ م ، فاتخذ قايتباى إجراء دبلوماسياً حاسماً ، بأن هدد باتخاذ إجراءات عنيفة ضد المسيحيين المقيمين فى دولته ، إذا لم يكف فرديناند وإيزابلا عن حرب غرناطة ، وأرغم قايتباى مسيحى القدس على الكتابة إلى ملوك الإفرنج ، وأنذر بالقبض على رجال الدين المسيحى بالقدس ، وقفل طريق الحج أمام المسيحيين ، كما أنذر بهدم كنيسة القيامة ، وقد نفذ قساوسة القدس ما أمرهم به السلطان المملوكى ، ولكن دون جدوى . فلم يلبث ملوك قشتالة وأرغونة أن استولوا

---

(١) الجراكسة المؤلف ص ١٠٦ — ١٠٧

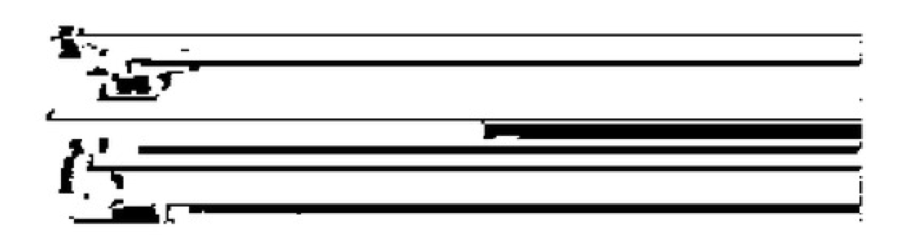
على غرناطة نهائياً فى ٨٩٧ هـ/١٤٩٢ م ، وبذلك زال آخر معقل للمسلمين فى أوربا (١) .

* * *

لقد كان للسيادة الإسلامية العربية فى العالم الأوربى آثار بعيدة المدى وضحت فى نظم الحكم وطرق الزراعة وأحوال المجتمع والحضارة الغربية عامة ، غير أن هذا الأثر لم يتأت فقط عن مقام المسلمين الطويل أو القصير فى أرجاء أوربا الجنوبية ، ولكن أيضاً عن العلاقات العامة المتنوعة ، وهى التى قامت بين العالم الإسلامى والعالم الغربى ، وهذا وذاك له مبحث آخر .

---

(١) انظر : اجراكسة للمؤلف ص ١٤٦ — ١٤٧ ، الدكتور عبد العزيز الأهوانى : سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة — مجلة كلية الآداب — م ١٦ ح ١ مايو ١٩٥٤ ص ٩٥ — ١١٢ ، بدائع الزهور ح ٢ ص ٢٣٧ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ ، ٢٦٦ ، ٢٧٧ ، ٣٧٦ ، Green, PP. 65 — 6



# رسالة عبد الرحمن الأوسط

## إلى الإمبراطور ثيوفلس (١)

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« أما بعد ، فقد بلغنى كتابك ، تذكر فيه الذى كان عليه من مضى منكم لأولينا من المودة الصادقة ، وأنه قد دعاك ذلك إلى مكاتبتنا ، وإرسال قرطيوس (Kartiyus) رسولك إلينا لتجديد تلك المودة ، وترتيب تلك المصادقة ، وتسأل أن ينعقد فيما بيننا وبينك من ذلك ما نتمسك به ، ونتواصل له ، ونبعث رسلا من عندنا إليك ، ليعلموك بالذى نحن عليه من الرغبة فيما حضضت عليه ، ودعوت إليه ، لتثبت بقدومهم عليك مودتنا ، وتتم به صداقتنا .

وفهمنا ماذكرته من أمر الخليفة مروان رضى الله عنه وصلى عليه ،

---

(١) عن الحسن بن محمد بن مفرج ( ت ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م ) وعيسى بن أحمد الرازى ( من مؤرخى القرن ١٠ م ) نقله ليفى بروفنسال E. Lévi Provencel فى كتابه " Islam D,occident"

ترجمة الدكتور السيد محمد عبد العزيز سالم . ص ١١٥ ـ ١١٨ )

ومن وشائج قرابتنا منه ، وأسيت لما استلب من سلطانه ، واستبيح من حرمه ، واستحل من دمه ، وما كان من الفاجر أبي جعفر تربه الله ، وجراءته على الله ، واغتراره به ، وانتهاكه لمحارمه ، والله قد أحصى عليه ذلك ، فأسفه منه ، فهو لا محالة يجازيه جزاء سعيه .

ثم الذي ذكرته من فعل الخبيثين: ابن مراجل وابن ماردة أخيه بعده ، من إلحادهما في نحلتهما ، وإساءتهما اسيرتهما ، ورغبتهما في رعيتهما ، وشدة وطأتهما عليهم ، واستحلالهما دماءهم وأموالهم ، وما ذكرت من حضور وقت زوال دولتهم ، وانقطاع مدة سلطانهم وتأذن الله برد دولتنا وسلطان آبائنا ، الذين نبأت عنهم الكتب ونطقت بهم الرسل وأوجب لهم الإجماع وحازه إليهم البرهان والذي حضضت عليه من الخروج إليهم ، وطلب الثأر منهم . ووعدته من نصرتك لنا ، بما ينصر الصديق صديقه ، ومن يعلم هواه فيه ومودته له ، وما عطفت عليه من أمر أبي حفص ومن معه من جالية بلدنا ، وغلبتهم على ما غلبوا عليه من بلدك وخضوعهم لابن ماردة ، ودخولهم في طاعته ، وما سألت من أهل الإنكار لذلك والأنفة منه ، وحكيت من أمراء أفريقية في نزعهم عن ابن ماردة وخلافهم عليه ، واستثقالهم لدولته . وكل ما حكيت من ذلك وقصصته في كتابك ، فقد قرأناه وفهمناه .

وأما ما رغبت من مودتنا ، وأحببته من مصادقتنا ، وأردت تجديده وتوصيله والتمسك به وتوثيقه ، مما كان عليه أوائلك لأولينا ، فقد رغبنا منك في مثل الذي ذكرته من حرصك على مواصلتنا ، وأن نتمسك

من ذلك ، بما كان عليه سلفنا ، وما لم يزل من كان قبلنا من الملوك يتمسكون به ، ويتحاضون عليه ، ويحفظه بعض لبعض ، ويشدون أيديهم به .

وأما ما ذكرت من أمر الخليفة مروان بن محمد رحمه الله ، فإن الله تعالى أحب أن يكرمه ، بما انتهك من حرمته ، ونكث من بيعته ، ويسوقه إلى رحمته ، وأن يشق بذلك من ركبه منه ، ويخزيه ويعذبه عليه .

وأما ما كان عليه الفاجر أبو جعفر من تعذيبه العباد وظلمه وجرأته على الله ، وانتهاكه لمحارمه فإن الله قد أخذه بذنبه واستدركه ببغيه ،وصيره من عذابه ونكاله إلى مالا انقطاع له ولا تخلص منه ، جزاء بما اجترح ، وكذلك حكم الله فى أهل معصيته، وأولى الاجتراء والافتراء عليه.

وأما ما ذكرت من أمر الخبيث ابن ماردة ، وحضضت عليه من الخروج إلى ما قلته وذكرته من تقارب انقطاع دولته ودولة أهله ،وزوال سلطانهم ، وما حضر من وقت رجوع دولتنا ، وأزف من حين ارتجاع سلطاننا ، فإننا نرجو فى ذلك عادة الله عندنا ، ونستنجز موعده إيانا ، ونعترى حسن بلائه لدينا بما جمع لنا من طاعة من قبلنا ، من أهل شامنا وأندلسنا وأجنادنا وكورنا وثغورنا ، وما لم نزل نسمع ونعترف ، أن النقمة تنزل بهم ، والدائرة تحل عليهم من أهل المغرب ، بنا وعلى أيدينا ، فيقطع الله دابرهم ، ويستأصل شأفتهم ، إن شاء الله تعالى .

وأما ما ذكرت من أمر أبى حفص الأندلسى، ومن صار معه من أهل بلدنا ، فى خضوعهم لابن ماردة ، ودخولهم فى طاعته ، وما سألت من

النظار فى أمورهم ، والإنكار لفعلهم ، فإنه لم ينزع إليه منهم إلا سفلتهم وسوادهم وفسقتهم ، وليسوا فى بلدنا ولا برتبتنا فنغير عليهم ، ونكفيك مؤنتهم ، وإنما اضطروا إلى الدخول فى طاعة ابن ماردة ، لمأمنهم من بلاده ، ودنو ناحيتهم من ناحيته ، ولم نكن نحسبك تعجز عنهم ، ولا تصعب عن نكايتهم ، ولا تتوقف عن إخراجهم عما تطرقوه من بلدك ، وإذ ترى مكانهم به من موضعك ، وإن الله بحوله وقوته وفضله ومنته رد إلينا سلطاننا بالمشرق ، وما كان تحت أيدى آبائنا منه ، نظرنا فى ذلك بما فيه صلاح لنا ولك ، واستقامة اطاعتنا وطاعتك ، وعرفنا الذى يكون من معونتك على ما دعوت إليه ، وحضضت عليه بما يعرفه الصديق لصديقه ، وذو المودة لأهل مودته ، ولم يضع لك عندنا ما رعيته من حقنا وقمت فيه من حفظنا .

وقد أدخلنا رسولك قرطيوس علينا ، وكشفناه على الذى أوصيت به إلينا ، وعن كل ما يجب لصديق أن يعرفه من حال صديقه ، ووجهنا إليك بكتابنا هذا رسولين من صالحى من قبلنا ، فاكتب إلينا مفهما بالذى أنت عليه من الأمر الذى كتبت به إلينا ، والذى يجب عليك من سائر خبرك ، ومتعة عافيتك ، لننظر فيما يتصرفان به من عندك على حسب ما يأتينا به من عندك ، إن شاء الله » .

# استقبال الإمبراطور البيزنطى ثيوفلس

## لسفارة عبد الرحمن الأوسط

## وأخبار يحي الغزال

## ٨٣٩/ ٨٤٠ م (١)

كان الشاعر الأندلسى الجيانى يحي بن الحكم الملقب بالغزال ، أحد الرسولين اللذين أوفدهما عبد الرحمن الأوسط إلى الإمبراطور ثيوفلس فى بيزنطة ، وخرج الغزال مع رفيقه وسميه يحي ، ومعهما الترجمان اليونانى من ميناء مرسية فى تدمير ، وتعرض فى البحر للعواصف ، حتى بلغ القسطنطينية فى نهاية الأمر .

وعند وصول الوفد الإسلامى إلى العاصمة البيزنطية ، كلف الإمبراطور موظفاً خاصاً ، هو مقدم السفراء ، بتعريف رجال الوفد بآداب البلاط البيزنطى ، ثم دعى الغزال لمقابلة ثيوفلس .

اشترط الغزال ألا يسجدا له ، وألا يخرجهما الإمبراطور عن شيء

---

(١) عن ابن حيان : المقتبس ، ليفي ( الترجمة ص ١٠٥ وما يليها) أبو الخطاب ابن دحية الكلبي توفى بالقاهرة ١٢٣٥ م ، المطرب فى أشعار أهل المغرب .

من سلتهما ، فأجابهما إلى ذلك ، فلما مشيا إليه قعد لها فى أحسن هيئة ، وأمر بالمدخل الذى يفضى إليه ، فضيق حتى لا يدخل إليه أحد إلا راكعا ، فلما وصل إليه ، جلس إلى الأرض ، وقدم رجليه وزحف على إليته زحفة ، فلما جاز الباب ، استوى واقفا . والملك قد أعد له ، وأحفل فى السلاح والزينة الكاملة ، فاهاله ولا ذعره ، بل قام ماثلا بين يديه(١) .

ولم يملك ثيوفلس إخفاء ابتسامة إعجاب به قائلا لرجالات دولته المحيطين به : كان الحكماء على حق فى قولهم ، إن من شخصية الرسول يعرف سيده ، إن هذا الأندلسى حكيم من حكماء القوم ، وداهية من دهاتهم .

( قصة الكأس ص ١٠٦ — ١٠٧ ليفى : الترجمة ) وحدث مرة أن طلب الغزال وهو فى حضرة الإمبراطور ماء ليشرب ، فأحضروا له كأسا من الذهب المزدان بالأحجار الكريمة ، فلما شرب ، سكب الماء الذى بقى فى الكأس على الأرض وأخفى الكأس فى كم عباءته وسأل الإمبراطور فى ذلك ما لا يليق وصرح به على لسان ترجمانه ، فكان رد الغزال :

إن أمراءنا الذين تبغون صداقتهم ، قد اعتادوا عندما يطلب أحد السفراء أن يشرب فى حضرتهم ، أن يطلبوا له كأسا ثمينة ، يمكنه الاحتفاظ بها بعد شربه منها ، فإذا كانت عادة سادتى هذه غير متبعة لديكم ، فإنى مستعد

---

(١) عن المطرب لابن دحية الكلبي :

يحيى بن حكم البكرى الجيانى الملقب بالغزال لجماله ، كان حكيم الأندلس وشاعرها وعرافها عمر ٩٤ سنة وعاصر خمسة من خلفاء بنى أمية بالأندلس أولهم عبد الرحمن بن معاوية وآخرهم الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ، وتوفى حوالى عام ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م

لإعادة كأسكم إليكم ، وهم السفير بإخراجها من كمه ، إلا أن ثيوفلس بادر فأشار إليه بالاحتفاظ بها ( لبفى الترجمة ص ١٠٦ — ١٠٧ ) .

ولم يلبث الغزال أن ظفر بإعجاب الإمبراطورة(١) ، وحدث أن كان الغزال يوما جالسا عند الإمبراطور ، وإذا بزوجة الملك قد خرجت وعليها زينتها ، وهى كالشمس الطالعة حسنا ، فجعل الغزال لا يميل طرفه عنها ، وجعل الملك يحدثه وهو لاه عن حديثه فأنكر ذلك عليه ، وأمر الترجمان بسؤاله ، فقال له : عرفه أنى قد بهرنى من حسن هذه الملكة ما قطعنى عن حديثه ، فإنى لم أر قط مثلها ، وأخذ فى وصفها والتعجب من جمالها وأنها شوقته إلى الحور العين ، فلما ذكر الترجمان ذلك للملك ، تزايدت حظوته عنده ، وسرت الملكة بقوله ، وأمرت الترجمان أن يسأله عن السبب الذى دعا المسلمين إلى الختان ، وتجشم المكروه فيه ، وتغيير خلق الله ، مع خلوه من الفائدة ، فقال للترجمان : عرفها أن فيه أكبر فائدة ، وذلك أن الغصن إذا زبر قوى واشتد وغلظ ، وما دام لا يفعل به ذلك ، لا يزال رقيقا ضعيفا ، فضحكت وفطنت لتعريفه(٢) » .

ويقال إن الإمبراطورة زارت الغزال فى صحبة ابنها الطفل ميشيل وذلك فى القصر الذى خصص لإقامة الوفد الأندلسى ، وسماه ابن حيان باسمه « أكاديمية من مرمر » ، وأحضرت معها نبيذاً ، وطلبت منه

---

(١) زوجة الإمبراطور هى تيودورا Theodora المعبر عنها فى الروايات العربية بكلمة تود أو نود تصحيفا ( لبفى الترجمة ص ١٠٧ )

(٢) عن ابن حيان : المقتبس ، نفح الطيب جـ ١ ص ٤٤٤

أن يشرب مع ابنها ، فأجاب بأن ذلك لا يجوز فى دينه(١) ، وكان قبلا قد اعتذر عن عدم الشرب بنفس الحجة للإمبراطور ثيوفلس (٢) ، وقد نظم الغزال فى مناسبة هذه الزيارة قصيدة تتمثل فيها بعض الصور الشعرية الرائعة لهذا العصر ، يقول فيها :

وأغيد لين الأعطاف رخص ... كحيل الطرف ذى عنق طويل

ترى ماء الشباب بوجنتيه ... يلوح كرونق السيف الصقيل

من أبناء الغطارف قيصرى الـ ... ـعمومة حين ينسب والخؤول

كأن أديمــه نصفا بنصف ... من الذهب الدلاص أو الوذيل

أتى يوما إلى بزق خمر ... شمول الريح كالمسك الفتيل

ليشربها معى ويبيت عندى ... فيثبت بيننا ود الخليل

وجاءت أمه معه فكانا ... كأم الخشف(٣) والرشا الكحيل

توصينى به وتقول أخشى ... عليه البرد فى الليل الطويل

فقلت حماقة منى ونوكا ... فديتك لست من أهل الشمول

فأية غرة سبحان ربى ... لو انى كنت من أهل القفول(٤)

. . .

---

(١) المغرب حـ ٢ ص ٥٧ ــ ٥٨

(٢) النفح حـ ١ ص ٤٤٤

(٣) الخشف هو ولد الظبى

(٤) عن لبق الترجمة ص ١٠٨ ــ ١١٠ المغرب حـ ١ ص ٥٧ ــ ٥٨

عاد الغزال عن طريق دسانت ياجوء دى كومبوستلا أو شانت ياقب(١) وذلك لأن الغزال تلقى أمراً من عبد الرحمن الأوسط ، هو ورفيقه عندما كانا فى القسطنطينية ، لكى يتوجها إلى شمال أوربا بعد عودتهما من لدن ثيوفلس ، والظاهر أنهما قاما بهذه الرحلة التى ركبا فيها الأطلنطى وعادا إلى أسبانيا بعد ذلك بعشرين شهراً ( ليفى الترجمة ص ١١٢ ) .

---

(١) ليفى الترجمة ص ١١٣ — ١١٤

# استقبال الناصر لسفراء الإمبراطور البيزنطي[١]

## ربيع أول ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م

عن ابن حيان : « إن ملك الناصر بالأندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن ، وهادته الروم وازدلفت إليه ، تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر ، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم ، إلا وفدت عليه ، خاضعة راغبة ، وانصرفت عنه راضية ، ومن جملتهم صاحب القسطنطينية العظمى ، فإنه هاداه ورغب في موادعته (٢) » .

وصلت سفارة الإمبراطور البيزنطي في صفر سنة ٣٣٨ هـ(٣) ، وتأهب الناصر لورودهم ، وأمر أن يتلقوا أعظم تلق وأفخمه ، وأحسن قبول وأكرمه ، وأخرج إلى لقائهم ببجاية ، يحيى بن محمد بن الليث وغيره لخدمة أسباب الطريق . فلما صاروا بأقرب المحلات من قرطبة ، خرج إلى لقائهم

---

(١) نفح الطيب حـ ١ ص ١٧١

(٢) عن نفح الطيب حـ ١ ص ١٧١ — ١٧٢

(٣) هناك اختلاف في تاريخ وصول سفارة بيزنطة ، فذكر ابن خلدون أنها وقعت سنة ٣٣٦ هـ ، بينما أرجع ابن عذارى تاريخها إلى عام ٣٣٨ هـ . وكذلك المقرى ، وقد أشار ابن عذارى إلى هذه السفارة في موضعين مختلفي التاريخ ( حـ ٢ ص ٣١٩ ، ٣٢٢ )

القواد فى العدد والعدة والتعبية ، فتلقوهم قائداً بعد قائد ، وكمل اختصاصهم بعد ذلك ، بأن أخرج إليهم الفتيين الكبيرين الخصيين : ياسراً وتماما ، إبلاغاً فى الاحتفال بهم ، فتلقياهم بعد القواد ، فاستبان لهم بخروج الفتيين إليهم ، بسط الناصر وإكرامه ، لأن الفتيان حينئذ ، هم عظماء الدولة ، لأنهم أصحاب الخلوة مع الناصر وحرمه ، وبيدهم القصر السلطانى ، وأنزلوا بمنيـــة ولى العهد الحكم ، المنسوبة إلى نصير بعدوة قرطبة فى الربض ، ومنعوا من لقاء الخاصة والعامة جملة ، ومن ملابسة الناس طراً ، ورتب لحجابتهم رجالا تخيروا من الموالى ووجوه الحشم ، فصيروا على باب قصر هذه المنية ستة عشر رجلا لأربع دول ، لكل دولة أربعة منهم (١) .

« ورحل الناصر لدين الله من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة ، لدخول وفود الروم عليه ، فقعد لهم يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من السنة المذكورة ، فى بهو المجلس الزاهر قعوداً حسناً نبيلا .

« وقعد عن يمينه ولى العهد من بنيه : الحكم ، ثم عبد الله ، ثم عبد العزيز ثم الأصبغ ثم مروان . وقعد عن يساره : المنذر ثم عبد الجبار ثم سليمان ، وتخلف عبد الملك ، لأنه كان عليلا لم يطق الحضور .

« وحضر الوزراء على مراتبهم يميناً وشمالا . ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالى والوكلاء وغيرهم .

---

(١) المقصود بذلك وفود الدول الأخرى التى وصلت فى ذلك الوقت وعقد الناصر هذا المجلس لاستقبال الجميع ، غير أن أهم وفد كان فى ذلك الوقت هو الوفد البيزنطى ومن أجله « عقد هذا المقعد الشهير » راجع ابن عذارى ج ٢ ص ٣١٩ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٣٧ .

« وقد بسط صحن الدار أجمع بعتاق البسط وكرائم الدرانك، وظللت أبواب الدار وحناياها بظل الديباج ورفيع الستور .

« فوصل رسل ملك الروم حائرين مما رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان ، ودفعوا كتاب ملكهم صاحب قسطنطينية العظمى : قسطنطين ابن ليون ، وهو فى رق مصبوغ لوناً سماوياً ، مكتوباً بالذهب بالخط الإغريق ، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة أيضاً ، مكتوبة بفضة بخط إغريق أيضاً ، فيها وصف هديته التى أرسل بها وعددها ، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل ، على الوجه الواحد منه صورة المسيح وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده . وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش على غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك ، معمولة من الزجاج الملون البديع ، وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج . وكان فى ترجمته عنوان الكتاب فى سطر منه : قسطنطين ورمانين المؤمنان بالمسيح ، الملكان العظيمان ملكا الروم ، وفى سطر آخر : العظيم الاستحقاق الفخر الشريف النسب ، عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس ، أطال الله بقاءه .

« ولما احتفل الناصر لدين الله هذا الاحتفال ، أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه لتذكر جلالة مقعده وعظيم سلطانه وتصف ما تهيأ من توطيد الخلافة فى دولته » .

. . .

تعاقب بعض الخطباء ، فلم يتهيأ لهم القول ، حتى قام منذر بن سعيد ( من ذاته ) فأجاد .

# خطبة منذر بن سعيد البلوطى

## ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م(١)

« أما بعد حمد الله والثناء عليه والتعداد لآلائه والشكر لنعمائه ، والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه ، فإن لكل حادثة مقاماً ، ولكل مقام مقال ، وليس بعد الحق إلا الضلال ، وإنى قد قمت فى مقام كريم ، بين يدى ملك عظيم ، فأصغوا إلى معشر الملأ بأسماعكم ، وأتقنوا عنى بأفئدتكم » .

« إن من الحق أن يقال للمحق صدقت ، وللمبطل كذبت ، وإن الجليل تعالى فى سمائه ، وتقدس بصفاته وأسمائه أمر كليمه موسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه ، أن يذكر قومه بأيام الله جل وعز عندهم . وفيه وفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة . وإنى أذكركم بأيام الله عندكم . وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التى لمت شعثكم وآمنت سربكم . ورفعت قوتكم . بعد أن كنتم قليلا فكثركم . مستضعفين فقواكم ومستذلين فنصركم . ولاه الله رعايتكم وأسند إليه إمامتكم أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق وأحاطت بكم شعل النفاق . حتى صرتم فى مثل

---

(١) عن نفح الطيب حـ ١ ص ١٧٢ ـ ١٧٣

حدقة البعير من ضيق الحال ونكد العيش والتغيير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء ، وانتقلتم بيمن سياسته إلى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء . أنشدكم بالله معاشر الملأ : ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها؟ والسبل مخوفة فأمنها ؟ والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها ؟ ألم تكن البلاد خراباً فعمرها ؟ وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها ؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته ، حتى أذهب الله عنكم غيظكم ، وشفى صدوركم وصرتم يداً على عدوكم ، بعد أن كان بأسكم بينكم ، فأنشدكم الله ، ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها ؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها ، ولم يكل ذلك إلى القواد والأجناد ؟ حتى باشره بالقوة والمهجة والأولاد ، واعتزل النسوان وهجر الأوطان ، ورفض الدعة وهي محبوبة وترك الركون إلى الراحة وهي مطلوبة ، بطوية صحيحة وعزيمة صريحة . وبصيرة ثابتة نافذة ثاقبة ، وريح هابة غالبة ، ونصرة من الله واقعة واجبة ، وسلطان قاهر ، وجد ظاهر ، وسيف منصور تحت عدل مشهور ، متحملا للنصب ، مستقلا لما ناله في جانب الله من التعب ، حتى لانت الأحوال بعد شدتها ، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها ، ولم يبق لها غارب إلا جبه ، ولا نجم لأهلها قرن إلا جده ، فأصبحتم بنعمة الله إخواناً ، وبلم أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً ، حتى تواترت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات ، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم ، وآمال الأقصين والأدنين مستخدمة إليه وإليكم ، يأتون من كل فج عميق وبلد سحيق ، لأخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفصيلا ، ليقضي الله أمراً كان مفعولا ، ولن يخلف الله وعده ولهذا الأمر ما بعده ،

وتلك أسباب ظاهرة بادية تدل على أمور باطنة خافية ، وليلها قائم ، وجفنها غير نائم ، وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ( الآية . . . ) .

وليس فى تصديق ما وعد الله ارتياب ؛ ولكل نبأ مستقر ولكل أجل كتاب فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه، وأسألوه المزيد من نعمائه، فقد أصبحتم بين خلافة أمير المؤمنين ؛ أيده الله بالعصمة والسداد ، وألهمه خالص التوفيق إلى سبيل الرشاد ، أحسن الناس حالا ، وأنعمهم بالا ، وأعزهم قراراً وأمنعهم داراً ؛ وأكثفهم جمعا وأجملهم صنعاً ، لاتهاجون ولا تذادون ، وأنتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون ؛ فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم والتزام الطاعة لخليفتكم وابن عم نبيكم صلى الله عليه وسلم ؛ فإن من نزع يدا من الطاعة ، وسعى فى تفريق الجماعة ، ومرق من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ؛ ذلك هو الخسران المبين ؛ وقد علمتم أن فى التعلق بعصمتها ، والتمسك بعروتها ؛ حفظ الأموال وحقن الدماء وصلاح الخاصة والدهماء ، وأن بقوام الطاعة تقام الحدود وتوفى العهود ، وبها وصلت الأرحام ، ووضحت الأحكام ، وبها سد الله الخلل وأمن السبل ووطأ الأكناف ورفع الاختلاف وبها طاب لكم القرار واطمأنت بكم الدار ، فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به . فإنه تبارك وتعالى يقول : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ( الآية . . . ) ، وقد علمتم ما أحاط بكم فى جزيرتكم هذه من ضروب المشركين وصنوف الملحدين ، الساعين فى شق عصاكم وتفريق ملاكم، الآخذين فى مخاذلة دينكم وهتك حريمكم وتوهين

دعوة نبيكم صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين .
أقول قولي هذا ، وأختم بالحمد لله رب العالمين ، مستغفراً الله الغفور الرحيم فهو خير الغافرين » .

. . . . .

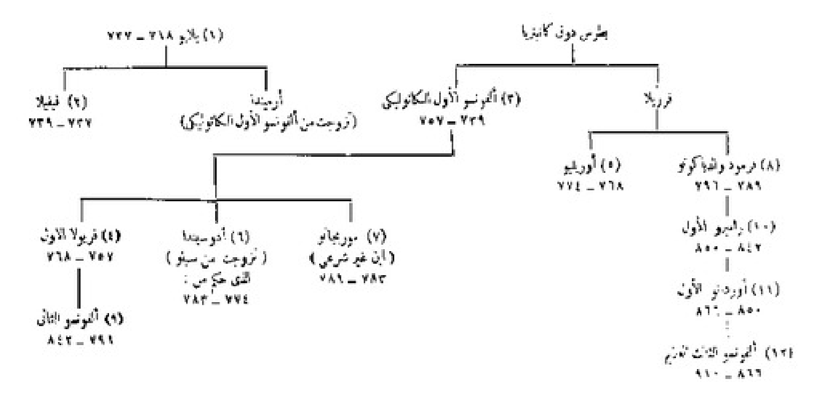
[ علق ابن سعيد في المغرب (١) ، على هذه الخطبة والمناسبة التي قيلت فيها وأثرها على سفراء الروم وعلى كبير السفراء بصفة خاصة فقال : فصاب العلج وغاب على قلبه ، وقال هذا كبير القوم ، أو كبش القوم ] ( النفح حـ ١ ص ١٧٤ )

---

(١) انظر المغرب في حلى المغرب ( نشر وتحقيق الدكتور شوقي ضيف ) حـ ١ ص ٣٢٤ حـ ٢ ص ٥٧ — ٥٨ .

# أمراء مملكة أشتوريا المسيحية

## خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين



# مصادر البحث

ا-المصادر العربية . ب - المصادر الأجنبية . حـ - كلمة عن المراجع التي تناولت غزوات العرب الأخيرة في بروفانس ومنطقة الألب وماوالاها .

١ — ابن الأثير ( على بن أحمد بن أبى الكرم ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٨ م )

الكامل فى التاريخ ( مصر ١٢٧٤ هـ ) .

٢ — ابن الخطيب ( لسان الدين بن الخطيب السلمانى )

كتاب أعمال الأعلام فى من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ( ألفه فى الفترة بين ٧٧٤ ، ٧٧٦ هـ / ١٣٦٢ — ١٣٦٤ م ) حققه ونشره أ. ليفى بروفنسال — بيروت ١٩٥٦ .

٣ — ابن القوطية ( أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم الأندلسى الأشبيلى الأصل القرطبى المولد. وقد نسب إلى جدته القوطية ، وهى ابنة « وبه » Wamba ابن غيطشة Wetiza ملك أسبانيا القوطى ) .

تاريخ افتتاح الأندلس ( نشره وترجمه إلى الأسبانية د. ج. ريبرا Don Julian Ribera — مدريد ١٩٢٦ )

٤ — ابن تغرى بردى ( أبو المحاسن يوسف ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م )

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ( طبعة دار الكتب المصرية ) .

٥ — ابن حزم ( أبو محمد على بن أحمد ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م )

الفصل فى الملل والأهواء والنحل (وبهامشه الشهرستانى: الملل والنحل) ( القاهرة ١٣١٧ هـ ) .

٦ — ابن حوقل ( أبو القاسم بن حوقل النصيبى )

كتاب صورة الأرض .

( نشره ج. هـ. كرامرز J.H. Kramers — ليدن ١٩٣٨ )

٧ — ابن حيان ( أبو مروان حيان بن خلف ت ٣٠٠ هـ/ ٩١٢ م )

كتاب المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس .

( نشره الأب ملشور Melchor — باريس ١٩٣٧ ) .

٨ — ابن خلدون ( عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م )

تاريخه ( مصر ١٢٨٤ هـ ) .

٩ — ابن طباطبا ( محمد بن على المعروف بابن الطقطقى )

الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية ( مصر ١٣١٩ هـ ) .

١٠ — ابن عبد الحكم ( أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم ت ٢١٤ هـ/ ٨٢٩ م )

فتوح مصر والمغرب ( تحقيق عبد المنعم عامر — مصر ١٩٦١ م ) .

١١ — ابن عذارى ( أبو العباس بن عذارى المراكشى )

البيان المغرب فى أخبار المغرب ( بيروت ١٩٥٠ ) .

١٢ — أبو الفداء ( السلطان الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل الأيوبى صاحب حماه ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م )

تقويم البلدان ( نشره م . رينو M. Reinaud ، م . ج . دوسلين Le Bon Mac Guckin De Slane — ليدن ١٨٤٠ م ) .

١٣ — أحمد أمين

١ — فجر الإسلام ( القاهرة ١٩٢٨ )

٢ — ضحى الإسلام ( القاهرة ١٩٣٥ )

١٤ — ( أخبار مجموعة ) فى فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم . ج ١ مجريط ١٨٦٧ ) . وقد ترجم هذا الجزء إلى الأسبانية الدون أميليو لافونت Don Emilio Lafunte

١٥ — أرسلان ( الأمير شكيب )

١ — تاريخ غزوات العرب ( مترجم ) — مصر ١٣٥٢هـ

٢ — الحلل السندسية فى الأخبار الأندلسية (فاس ١٩٣٦م)

١٦ — أرشيبالد ( Archibald L. Lewis )
القوى البحرية والتجارة فى حوض البحر المتوسط
( ترجمة أحمد محمد عيسى ومراجعة وتقديم محمد شفيق غربال — مصر ١٩٦٠ ) .

١٧ — أرنولد ( ناشر ) Sir Thomas Arnold ، ألفرد جيوم A. Guillaum
تراث الإسلام ( ترجمة لجنة النشر للجامعيين ) .

١٨ — الاصطخرى ( أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى المعروف بالكرجى — توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ) المسالك والممالك .
( تحقيق الدكتور محمد جابر الحينى ومراجعة محمد شفيق غربال مصر ١٣٨١ ﻫ / ١٩٦١ م ) .

١٩ — الأصفهانى ( أبو الفرج ت ٣٥٦ ﻫ / ٩٦٧ م )
الأغانى ( القاهرة ١٢٨٥ ﻫ ) .

٢٠ — البلاذرى ( أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩ ﻫ / ٨٩٢ م )
فتوح البلدان ( مصر ١٣١٩ ﻫ ) .

٢١ — التونسى ( السيد خير الدين )
كتاب أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك ( تونس ١٢٨٤ ﻫ ) .

٢٢ — الحميرى ( أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم — جمع كتابه عام ٨٦٦ هـ / ١٤٦٢ م ) صفة جزيرة الأندلس ( منتخبه من كتاب : الروض المعطار — فى خبر الأمصار) تحقيق ونشر ليفى بروفنسال — مصر ١٩٣٧ م ) .

٢٣ — الدورى ( الدكتور عبد العزيز )
العصر العباسى الأول ( دراسة فى التاريخ السياسى والإدارى والمالى ) .
منشورات دار المعلمين العالية — بغداد ١٣٦٣هـ/١٩٤٥م

٢٤ — السخاوى ( شمس الدين محمد ت ٩٠٢ هـ /١٤٩٦ م ): التبر المسبوك (مصر ١٨٩٦ ) .

٢٥ — السيوطى ( عبد الرحمن بن أبى بكر ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م ) :
غزوات قبرص ورودس (فيينا ١٨٨٤ — له ترجمة ألمانية)

٢٦ — الطبرى ( أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م )
تاريخ الأمم والملوك ( مصر ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٩ م ) .

٢٧ — العبادى ( المرحوم الأستاذ عبد الحميد )
المجمل فى تاريخ الأندلس — التاريخ .

٢٨ — العرينى ( الدكتور السيد الباز )
الدولة البيزنطية ( مصر ١٩٦٠ م )

٢٩ ـ العنيسى ( طوبيا العنيسى الحلبى )

كتاب تفسير الألفاظ الدخيلة فى اللغة العربية (مصر ١٩٣٢)

٣٠ ـ القلقشندى ( أبو العباس أحمد بن على ت ٨٢١ ﻫ / ١٤١٨ م )

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا (نشر دار الكتب المصرية)

٣١ ـ المقرى ( أحمد بن على التلمسانى ت ١٠٤١ ﻫ / ١٦٣٣ م )

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (مصر ١٣٠٢ﻫ)

٣٢ ـ المقريزى ( تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥ ﻫ / ١٤٤١ م )

١ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك (تحقيق ونشر الدكتور زيادة ـ بدأه من عام ١٩٣٦ م ) .

٢ ـ المقفى (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٣٧٢ تاريخ ) .

٣٣ ـ الناصرى ( أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى )

كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ( الدار البيضاء ١٩٥٥ م ) .

٣٤ ـ اليعقوبى ( أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن واضح ت ٢٨٢ ﻫ / ٨٩٥ م ) .

١ ـ تاريخه ( ليدن ١٨٨٣ ) .

٢ ـ البلدان ( ليدن ١٨٩٢ ) .

٣٥ — أومان ( Oman )

الإمبراطورية البيزنطية ( ترجمة الدكتور طه بدر — مصر ١٩٥٣ ) .

٣٦ — باركر ( Barker )

الحروب الصليبية ( ترجمة الدكتور الباز العرينى — مصر ١٩٦٠

٣٧ — بينز ( Baynes )

الإمبراطورية البيزنطية (ترجمة الدكتور حسين مؤنس وزميله — مصر ١٩٥٠

٣٨ — جواد على :

تاريخ العرب قبل الإسلام .

٣٩ — جورجى زيدان :

العرب قبل الإسلام ( مراجعة وتعليق مؤنس ) .

٤٠ — حتى ( فيليب )

تاريخ العرب ( ترجمة محمد مبروك نافع ) .

٤١ — ديفيز ( H. W. Davis )

شارلمان ( ترجمة الدكتور الباز العرينى — مصر ١٩٥٥ )

٤٢ — رستم ( الدكتور أسد ) .

الروم (في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم مع العرب — بيروت ١٩٥٥ ) .

٤٣ — زامباور ( Zambaur )

معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ( ترجمة الدكتور زكي محمد حسن والدكتور حسن محمود والدكتورة سيدة كاشف وآخرين ) مصر ١٩٥١ .

٤٤ — زيادة ( الدكتور محمد مصطفى ) :

المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس ( ترجمة الشيتي ومنصور - مجلة الجيش ١٩٤٦ ) .

٤٥ — عبد الوهاب ( حسن حسني )

قوصرة (المجلة التاريخية المصرية م٢ عدد ٢ أكتوبر ١٩٤٩)

٤٦ — فروخ ( عمر )

العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض ( من فتح المغرب والأندلس إلى آخر عصر الولاة — بيروت ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٩ م ) .

٤٧ — طرخان ( الدكتور إبراهيم على )

١ — الحركة اللا إيقونية فى الدولة البيزنطية (مصر ١٩٥٦)

٢ — دولة القوط الغربيين ( مصر ١٩٥٨ )

٣ — تاكيتوس والشعوب الجرمانية ( مصر ١٩٥٩ )

٤ — نهاية الإمبراطورية الرومانية فى الغرب ( مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة - العدد التذكارى م ٢٠ - مصر ١٩٦٢ )

٥ — شمالى أفريقية والوندال ( المجلة التاريخية - العدد التذكارى م ١١ مصر ١٩٦٣ )

٦ — مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة (مصر ١٩٥٩)

٤٨ — فشر ( H. Fisher )

تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ( ترجمة الدكتور زيادة والدكتور العرينى — مصر ١٩٥٠ ) .

٤٩ — ( كتاب مفاخر البربر ) لمؤلف مجهول الاسم ، ألفه عام ٧١٢ هـ ونشره ليفى بروفنسال — الرباط ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م .

٥٠ — كرد على ( محمد )

الإسلام والحضارة العربية ( مصر ١٩٥٠ ) .

٥١ — كايليا ( Clelia Sarnelli Cerqua )

مجاهد العامرى ( قائد الأسطول العربى فى غربى البحر المتوسط فى القرن الخامس الهجرى — مصر ١٩٦١ )

٥٢ — لوبون ( G. Le Bou )

حضارة العرب ( ترجمة عادل زعيتر — مصر ١٣٦٧ ه / ١٩٤٨ م )

٥٣ — ليفى بروفنسال Lévi Provencal )

الإسلام فى المغرب والأندلس ( ترجمة الدكتور سالم وزميله ـ مجموعة الألف كتاب رقم ٨٩ )

٥٤ — مؤنس ( الدكتور حسين )

١ — فتح العرب للمغرب ( مصر ١٩٤٧ )

٢ ـ السيد القمبطور وعلاقاته بالمسلمين ( المجلة التاريخية المصرية مايو ١٩٥٠ م ٣ ص ٣٧ - ٧٨ ) .

٣ — المسلمون فى حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية (المجلة التاريخية المصريةم ٤ - ١٩٥١ ص ٤٥ - ١٦٩ )

٤ ـ فجر الأندلس ( مصر ١٩٥٩ )

٥٥ - ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الروى ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م).

١ - معجم البلدان (مصر ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٦ م).

٢ - مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (وهو تلخيص لمعجم البلدان).

٣ - معجم الأدباء.

٥٦ - نصحى (الدكتور إبراهيم).

تاريخ مصر فى عصر البطالمة (مصر ١٩٤٦).

— ب —

1 — Albert de Circourt,

Histoire des Mores Mudejares et Des Morisques ou des Arabes D'Espagne (T. I, Paris, 1864)

2 — Bailly, A.,

1 — Bayzance (Paris, 1939)

2 — Les Grands Capétiens (1180 — 1328) (Paris, 1952)

3 — Barthold (in Encycl. of Islam)

الترجمة العربية جـ ٣ مادة « باشترد »

4 — Baynes, N. H., & Moss, H. St. L. B., (Edit.)
Byzantium (Oxf., 1948)

5 — Boissannades, P.,

Du Nouveau sur Le Chanson de Roland (Paris 1933)

6 — Bradley, H.,

The Goths, from the Earliest Times to the End of the Gothic Dominion in Spain (London, 1887)

7 — Brooke, Z. N.

A History of Europe (911 — 1198) (Lond., 1928)

8 — Bryce, J. V.,

The Holy Roman Empire (Lond., 1950)

9 — Bury, J.,

1 — History of the Later Roman Empire

2 — History of Greece. (Lond., 1931)

10— Calmette, J.,

Les Derniers Etapes du Moyen Age Français

11— (Camb. Med. H.), Vols. III — IV — V.

12— Cartelliere, O.,

The Count of Burgundy (Studies in Hist. of Civilization) Lond., 1929

13— Cary, M.,

A History of Rome Down to the Reign of Constantine (Lond., 1954)

14— Ch - André, J.,

La Berbèrie

15— Chew, H. M., & Latham, L. C.,

Europe in the Middle Ages (814 - 1494) (Lond., 1936)

16— Courcelle, O.,

Histoire Litteraire des Grandes Invasions Germaniques (Paris, 1948)

17— Davis, R. H. C.,

A History of Mediaeval Europe (Lond., 1958)

18— Deanesly M.,

A History of Early Mediaeval Europe (476 — 911) Lond., 1956

19— De Marlès, M.,

Histoire de la Domination Des Arabes et Des Maures En Espagne et En Portugal (Paris, 1825)

20— Diehl, C. & Marçais, G.,

Le Monde Orientale De 395 a 1081 (H. G. I. III) Paris, 1944

21 — Dill, S.,

Roman Society in the Last Century of the Western Empire (Lond., 1926).

22— Dozy, R.,

Histoire Des Musulmans D'Espagne (Leiden, 1932)

23— Dutaillis, P.,

The Feudal Monarchy in France & England (Lond., 1949)

24— (Encyclopedia Brittannica )

25— (Encyc. of Islam)

26— (Encycl. of Religion & Ethics)

27— Evans, J.,

Life in Mediaeval France (Oxf., 1925)

28— Eyre, E., (Edit).

European Civilization, Its Origins & Development (Oxf., 1935)

29— Fichtenau, H.

The Carolingian Empire (Oxf., 1951).

30— Finlay, G.,

History of the Byzantine Empire (Edinb., 1856)

31— Foord, E.

The Byzantine Empire (Lond., 1911)

32— Freeman, E. A.,

Western Europe in the Eighth Century & Onward, (Lond., 1904)

33— Funk - Brentano, Fr.,

The National History of France (The Earliest Times, Lond., 1927)

34— Gibb, Sir H. A. R., Mohammedanism (New York, 1955)

35— Gibbon, E.,

Decline & Fall of the Roman Empire (Lond., 1893)

36— Goubert, P.,

Byzance avant L'Islam (Paris, 1951)

37— Green, V. H.,

Renaissance & Reformation (A Survey of European History between 1450 — 1660)

38— Greegoire, H.,

The Byzantine Church ( In Byzantium, Ed. By Baynes & Moss)

39— Gregory of Tours,

The History of the Franko

(Translated by O. M. Dalton, 2 Vols., Lond., 1927)

40 — Grousset, R.,

L'Empire Du Levant (Paris, 1949)

41— Gsell, S.,

Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord.

42— Hall, H. R.,

The Ancient History of the Near East

43— Hallam, H.,

View of the State of Europe During the Middle Ages (Lond., 1914).

44— Halphen, L.,

1 — Charlemagne et L'Empire Carolingien (Paris, 1947)

2 — Les Barbares (Paris, 1948)

45— Hodgkin, T.,

Italy & Her Invaders (Oxf., 1892)

46— Hogben, S. J.,

The Muhammadan Emirates of Nigeria (Lond., 1930)

47— Hubert, H.,

The Greatness & Decline of Celts (Lond., 1934)

48— Hunt, W.,

History of Italy (Lond., 1875)

49— Ives, G. B.,

History of the Byzantine Empire (New York, 1954

50— Lane - Poole, S.

1— The Moors in Spain ( Lond., 1887 )

2— A History of Egypt in the Middle Age (Lond., 1925)

51— Lavesse, E. & Rambaud, A., (Edit),

Histoire Générale Du VI Siécle a Nos Jours (T. Premiere « Les Origines » 395 - 1095 ) (Paris, 1922)

52— Leclercq, D. H.,

L'Espagne Chrétienne (Paris, 1906)

53— Lévi - Provencal, E.,

1— L'Espagne Musulmane au Xeme Siecle (Paris. 1932)

2— Histoire De l'Espagne Musulmane (Paris 1950 - 1953)

54 — Levtchenko, M. V.,

Byzance Des Origines a 1453 (Paris 1949)

55— Lindsay, J.,

Byzantium into Europe (Lond., 1952)

56— Lot, F.,

Les Invasions Germaniques (Paris, 1935)

57— Martin, E. J.,

A History of the Iconoclastic Centroversy (London)

58— Massen G.,

Mediaeval France (London)

59— Milman. H. H..,

History of the Latin Christianity (Lond., 1872)

60— Moss, H. St., L. B.,

the Birth of the Middle Ages (Of., 1943)

61— Mot t. G F. & Dee, H. M.

Middle Ages (New york, 1952).

62— Nöldke, T.,

The Scope & Influence of History ( In Historians' History of the World, Vol. VIII). - (New York, 1926)

63— Oman, Ch.,

The Dark Ages (476 - 918) - (Lond., 1949)

64— Orton, P.,

Outline of Mediaeval History (Cambr. 1942)

65— Ostrogorsky, G.,

History of the Byzantine State

(Translated by J. Hussey, (Oxf., 1956)

66— Painter, S.,

A History of the Middle Ages (New York, 1954)

67— Pirenne, H.,

1— A History of Europe (Lond., 1948)

2— Mohammad & Charlemagne (Lond., 1954)

68— Poupardin,

La Royaume de Bougogne (888 - 1038) (Paris. 1907)

69 - Reid. J. S.,

The Municipalities of the Roman Empire ( Cambr.. 1918)

70— Risler, J. C.,

La Civilisation Arabe (Paris., 1955)

71— Rossi., E., Malta (Encycl. of Islam, Vol. III)

72— Rostovtseff. M.

The Social & Economic History of the Roman Empire

Vol. I (Lond), 1957)

73— Runciman, S.,

1— Byzantine Civilization (Lond., 1948)

.. 2— History of the Crusades (Cambr. 1954)

74— Salmon, E. T.,

A History of the Roman Empire (Lond., 1950)

75— Scott, S. P.,

History of the Moorish Empire in Europe (Lond., 1904)

76— Seignobos, C.,

L'Europe Fendale (A. C. T. II) (Paris 1925)

77— Sergeant, L.,

The Franko (Lond., 1898)

78— Sismondi, J. C. L.,

History of the Italian Republics in the Middle Ages

(Translated by W. Boulting)

79— Soame, J.,

The Coast of the Barbary

80— Stephenson, C.,

Mediaeval History (Washington, 1943)

81— Stevens, C. E.,

Sidonius Appollinarius & His Age (Oxf., 1933)

82— Syme, R.,

The Northern Frontiers under Augustus (C. Med. H., Vol. I)

83— Thomson, J. O.,

History of the Ancient Geography (Cambr., 1948)

84— Vassiliev, P.

History of the Byzantine Empire (Madison, 1952)

85— Villari, P.,

The Barbarian Invasions of Italy (Translated by L.Villari)

Vol. I Lond., 1902)

86— Waern, C.,

Mediaeval Sicily (Lond., 1910)

87— Wahl, (In. H. G. T. I)

88— Watts, A. E.,

Spain (Lond., 1803)

— ح —

من الملاحظ خلو المراجع العربية المتداولة كلها تقريبا ، من الإشارة إلى غزوات العرب الأخيرة فى بروفانس ومنطقة الألب وما والاها ، سوى ماذكره الأصطخرى وابن حوقل وياقوت ، ولذلك فإن أهم مايرجع إليه حتى الآن ، فيما أعلم ، هو المراجع الأجنبية ، ولاسيما ماكتبه الفرنسيون والإيطاليون والألمان . ومن العجيب حقا ، أن كتاب العرب فى أسبانيا الإسلامية ، لم يتناولوا النشاط الإسلامى فى تلك المناطق ، مع العلم بأن أسبانيا الإسلامية ، زمن خلفاء قرطبة ، كانت الحامية الرسمية للمسلمين فى بروفانس . ولعل هناك من المراجع العربية التى لم تصل إلينا ، أو فقدت خلال حركة الاسترداد المسيحى ، وهى الحركة التى اشتعل أوارها فى أسبانيا الإسلامية .

ولقد بذل المرحوم المحقق شكيب أرسلان . جهداً مشكورا ، حين تعرض لهذا الموضوع ، وبذل أقصى ما يستطيع العالم المحقق الوطنى أن يبذل فى سبيل الوصول إلى الحقيقة ، إذ قام بما لم يقم به إلا القلائل ، يوم سافر وشهد ما استطاع أن يشهده من الآثار العربية الإسلامية فى الأرض الأوربية ، وسأل وناقش واستقصى ، فأدى بذلك خدمة علمية باقية للتاريخ العربى الإسلامى فى العصور الوسطى .

ترجم شكيب أرسلان بحثين كبيرين هامين ظهرا فى هذا الموضوع فى القرن التاسع عشر .

الأول : المستشرق الفرنسى المحقق رينو ( ١٧٩٥ - ١٨٦٧ م ) وهو من مواليد عصر الثورة الفرنسية ، والعصر البونابرتى ، ومات قبيل الحرب السبعينية التى أذلت فيها فرنسا ، كما عاصر حفر قناة السويس وحرب القرم وحركة البعث الإيطالى ، وعظمة الاتحاد الألمانى زمن بسمارك ، عاش رينو فى عصر الحوادث الكبرى فى التاريخ العالمى .

وقد نشر كتابه عام ١٨٣٦ م وعنوانه بالكامل :

M. Reinaud, Invasions Des Sarrazins En Farnce et de France en Savoie, en Pieront et dans La Suisse — Pendant les huitiéme, neuviéme et dixiéme siécles de notre ère, D'Aprés Les Auteurs Chrétiens et Musulmans .

وتقع ترجمة هذا الكتاب فيما أصدره شكيب أرسلان تحت عنوان : « تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط » من ص ١٦ — ٢٤٣ . وعلق على الترجمة ، وكان أمينا فى الترجمة والتعليق .

وذكر رينو فى كتابه أن اثنين من الكتاب سبقاه فى التعرض لهذا الموضوع ، هما :

1 — M. B..... N. C, F. ?, Précis Historiques des guerres des Sarrazins dans les Gaules ( Paris. 1810 )

2 — Desmichels M., L'Histoire Générale du Moyen Age, T. II ( Paris, 1831 )

ومما يدل على أمانة رينو العلمية ، أنه اعترف بمبالغات الرهبان

المؤرخين المعاصرين لتلك الحوادث ، فهو يقول إنه ينقل ما سجلوه على علاته ، وإن لم يبرئه هذا من التعصب الذي وضح في بعض صفحات كتابه.

الثاني — للمستشرق الألماني فرديناند كلر ، نشره في زيورخ في عام ١٨٥٦ م . وعنوانه :

Dr. Ferdinand Keller, Der Einfall der Sarazenenen in Die Schweiz um die Mitte des x yahremderts.

ومعناه : « غارة العرب على سويسرا في أواسط القرن العاشر » . وتقع ترجمة هذا الكتاب في كتاب شكيب أرسلان من ص ٢٤٤ - ٢٧٥ .

وقد نقل كلر ، كما فعل سابقه رينو ، عن الرهبان المؤرخين المعاصرين وقرأ ما كتبه رينو ، وناقش بعض آرائه .

وكان شكيب أرسلان قد ترجم هذا الكتاب ونشره ملخصاً في مجلة المنار بمصر عام ١٩١٩ م ، ثم أعاد نقله بكامله في كتابه ، ولم يختصر منه إلا ما رآه غير هام ، كما فعل في ترجمة كتاب رينو .

وورد في كتاب رينو وكلر ، عدد كبير من المراجع المعاصرة وغيرها من التي تعرضت لنشاط المسلمين في تلك البقاع ، وأنقل هنا بعضاً منها:

فمن كتبوا عن تاريخ بروفانس، وفصلوا في أحداث الغزو الإسلامي، في الكتب التي أصدروها : Bouche و Papon

— وعن برجنديا : Von Gingins

— وعن نيم Nimes : Menard

— وعن De Guyse : Hainut

— وعن منطقة الألب العليا : La doucette

— وعن لانجدوك : Don Vaissette

— وعن مقاطعة الفار : Denys : Le Var

— كذلك أشارت ، إلى هذه الغزوات ، مجموعة مؤرخي فرنسا :

Recueil des Historiens de France

— وكتاب غاله المسيحية Gallia Christiana

ومن المؤرخين الإيطاليين ، فيما أصدروه من كتب وبحوث :

Bonino - Debene - Dellachiesa - Durandi - Monbrizio - Sigeberto.

وفى مجموعة التاريخ الجرمانى : Monumenta Germanica Historica

وما كتبه هوبى Hübi فى القاموس التاريخى لسويسرا :

Dictionnaire Historique et Biographique de la Suisse.

وفى كتاب تاريخ دير سانت جـالى ، الذى أصدره الراهب المؤرخ إكهارت Eckehard

وكتاب مقاطعة سانت جالن لمؤلفه : Von Arx

وما كتبه المؤرخ الألمانى Luitprand المتوفى عام ٩٧٠ م ، ونفس العالم الأثرى الإيطالى لودفيكو أنطونيو مورأتورى Muratori المتو عام ١٧٥٠ م ؛ وذلك فى المجموعة التى نسبت إليه .

وكذلك ما كتبه المؤرخ الألمانى شبريخر Sprecher

ومن كتب التراجم :

Gerhardi. Vita S. Qudalrici

ومجموعة حياة القديسين المنسوبة لمصنفها الراهب اليسوعى بالاند Baland ، وقد مات دون أن يكملها ، وأكملها غيره ، وعنوانها :

Recueil Des Balandistes

ومجموعة الراهب البندكتى المؤرخ مارتن المشهور باسم « دون بوكى » Don Boquet . وهو من مواليد مدينة أميان Amiens بفرنسا ، وتوفى عام ١٧٥٤ م . وهكذا . . . . .